درب الأشواك

صفحات من تاريخ المقاومة في فلسطين

درب الأشـواك
صفحات من تاريخ المقاومة في فلسطين
تأليف : سليم حجة
الطبعة الأولى : ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد©
قياس القطع : 17 × 24

درب الأشواك

صفحات من تاريخ المقاومة في فلسطين

بقلم الأسير
سليم حجة

قدم له
الأستاذ إسماعيل هنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أرواح شهدائنا العظام ..

الشيخ عز الدين القسّام

الشيخ أحمد ياسين

الدكتور عبد العزيز الرنتيسي

والمهندس يحي عياش

إلى الشيخ جمال منصور.. الشيخ جمال سَلِيم.. الشيخ يوسف السُّرَكْجيّ..

محمود أبو هنُّود.. أيمن حلاوة.. رائد الشرنوبي.. هاشم النجار..

إلى خنساوات فلسطيـن.. أمي الغالية.. وزوجتي الـوفية أمّ عمر.. وأمّ نضال فرحات.. وأم وائل البرغوثي والدة أخي المجاهد الأسير بلال..

إلى كلِّ من آواني ونصرني وساعدني خلال المطاردة، أو خلال وجودي في الأسر..

إلى جيل النصر والتحرير القادم بإذن الله تعالى.. وولدي الغالي عمر..

والثُّلة المجاهدة التي ستحرِّرُنا من الأسر بعون الله..

الشكر والتقدير

إلى إخوتي في درب المقاومة..

بلال البرغوثي، وأمجد السائح، ورائد أبو الظاهر، وجلال رمانة، وأشرف الزغل، ومصطفى حجّة، وأحمد أبو طه، ومرسي فرحانة، وسميح عصيدة، وعبد الناصر عيسى، وإبراهيم حامد.

وإلى كلِّ من ساهم في إنجاز هذا الكتاب وإيصاله إلى حالة ترضي من ينظر فيه.

تصدير
بقلم
الأستاذ إسماعيل هنية
حفظه الله تعالى

بسم الذي أعز الإسلامَ بحُماتِه ، وسيّر لرفعتِه رجالاً لا تلهيهم الدنيا عن الجهاد في سبيلِه، أحسنوا النية، وابتغوا الأجرَ فآتاهم الله من فضله وعداً يقيناً بنصرٍ عظيم، فهنيئاً لمن رآه قريباً واقعاً ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾، وصلىٰ الله علىٰ محمد القائد الأمي الأمين، قاد الأمة للرفعة ، وخط نهجَها الذي عليه سار أبطالُ هذا الكتاب، وإلىٰ هدفه سعوا بثقة ويقين.

إنّ من لا يقرأ التاريخ يظل أبد الدهرِ طفلاً صغيراً ساذجاً ، و لكلِّ تاريخٍ رجالٌ يسطرونه بالدم لوحةً خالدةً تتوارثُها الأجيال، وإن هؤلاء الذين نُسِجت بسيَرِهم حروف هذا الكتاب لَهُم رجال هذا العصر، وإنه لجديرٌ بنا أن نخلدهم في القلوب والأذهان والسطور، لنخط لأبنائنا سبيل النصر المقتفي خير ما تركوه من آثار.

إنهم من علّموا العالم كيف للنعل القديمِ أن يكون أجمَلَ ألفَ مرةٍ من الوردةِ عندما يصفعُ وجهَ الطاغيةِ الجبار ، إرادتهم سيفٌ أبداً لم يصدأ حيث لا إهمالَ بل شحذٌ ونزالٌ يتلوه نزال، هؤلاء أعلنوا ثورة النورِ والحقِّ والعدلِ في وجهِ الظلمِ والطغيانِ والجبروت، ثورة وقودها العزيمة والصمود والإرادةُ والعزة والكرامة

واليقين، فضربوا للحرية موعداً لا تخلفُهُ مكاناً سوىٰ فحق لهم أن يتَقلدوها وسامَ فخرٍ وعزة!

لقد جاء هذا التوثيق الدقيق المؤثر المشوق المتقن لغة وتاريخاً وأسلوباً وبلاغةً من كاتب مجاهدٍ وأسيرٍ عايش التجربةَ فكان أصدقَ مَن وصفَها، وقد أحسن بنا إذ أخرجنا إلىٰ نور الماضي حيث الغد مرآته من عتمة المجهول، وقد أحسن بتلك القضية التي أعجزت العالم أجمع إذ تقلّدَ قلمه سيفاً، وحروفَه نصلاً ، وذاكرتَه سكيناً تشرِّحُ لنا التفاصيل وما وراء التفاصيل، هو لم يكن في النور فحسب كي يرىٰ؛ بل لقد كان في النور شيء يستحقُّ أن يراه!

هذا عملٌ مباركٌ كاتبُه، ومباركٌ قارئه، ومباركٌ كلّ من أشرفَ علىٰ إصداره ، كتابٌ يستحق أن يتوج تحفة تاريخية جهادية خالدة ، أسأل الله أن يبارك فيه من جهدٍ، وينفع به.

❊ ❊ ❊

تقريظ
بقلم القائد الأسير
الأستاذ إبراهيم حامد

اقترنت الشهادة والاستشهاد بـهوية النضال الفلسطيني طيلة القرن الـماضي، وبرهنت على أن هذا النضال ملهِم وخلاّق، وقادر على اختراق الضمير والوجدان إلى أعماقه.

في بلادنا تَمنح الشهادة صاحبَها صفة البطولة، وتُقدمه كمثل يُحتذى، ويملك طاقة التحريض والإلهام في أقصى درجاتها، حتى لو لم يكن هذا الشهيد أو ذاك صاحبَ طابع مـميز، أو ذا تاريخ في العمل النضالي، فما كان محمد الدرة، ولا فارس عودة، ولا إيمان حجّو، سوى رموز للبراءة والطفولة، ولكن الشهادة كانت دائماً قادرة على أن تـهَبَ هؤلاء وأمثالهم قدرة تأثير تشبه في مفعولها تأثير القائد المـلهم، وأضحت هذه الأمثلة بالنسبة لقادة النضال الوطني كالتصديق والبرهان المـؤكد على جميع ما يفكرون به ويمارسونه من أعمال النضال والمقاومة.

إنّ الكتابة عن الـشهداء هي في الـحقيقة كتابة عن أحد الـقيم العليا للشعب الفلسطيني الذين كانت دماؤهم بوصلة الضمير الجماعي للشعب والقضية، وكم كانوا قريبيـن منّا وهم يفارقوننا فيستشهدون، كانوا يعانقون فينا الروح بحنان نادر، وكأنهم ببطولاتهم هذه يطهروننا، ويـجعلوننا أكثر صفاء ونـقاء وشفافية، كيف لا ومن يتولى

الكتابة عنهم تربطُه بـهم روابطُ الروح والمسار والمصيـر، لولا أن أقدار الله غالبةٌ لكان كاتبُ سيرتهم واحداً منهم.

لعل أيَّ امرئ من جيلنا الذي خاض انتفاضتين عنيدتين شيَّع عشراتِ أو مئات الشهداء في محيطه القريب، فتـرك ذلك في نفسه أخاديد لا يردمها إلا لـقاؤه بهم يوم القيامة، فكيف يكون حاله إذا كان هؤلاء الشهداء هم أشقاء الروح، ورفاقُ الدرب، وأبناءُ الصف وإخوة الطريق.

وهؤلاء ـ وليس سواهم ـ من يزورنا في أحلامنا الليلية، يبشون لنا بوجوههم، ويؤنسون لنا ظلمة السجن، أو وحشة العزل.

في هذا الكتاب يُقدّم لنا الأخُ الرائع، والوفيّ المجاهد، القائد سليم حجّة سيرةَ قـلّة من أولئك الرجال الذين صنعوا بأفعالهم تاريخَ حِقْبة من جهادنا الميمون، هؤلاء الذين تبقىٰ ذكراهم العطرة شاهدة علىٰ الإنسان الفلسطيني وعطائه وإقدامه الفريد.

لم يكن سليم حجّة مجرّد صديق لبعضهم، بل كان واحداً منهم، وعندما يكتب عنهم فإنمـا يكتب بتلك الـحميمية التي تعكس الوفاء والصدق، وصـراحةَ الروح والضمير، وهو إذ يكشف لنا بعض الستار عن تلك الطليعة من مجاهدي «كتائب الشهيد عزّ الدين القسّام» في منطقة نابلس وشمال الضفة الغربية، فإنما يكشف لنا المقدار الذي تتيحه الـمعلومات التي أضحت متداوَلةً في أروقة محـاكم الاحتلال العسكرية، وحُكم أصحابُها بمقتضاها.

لطالما كانت نابلس والشمال الفلسطينيّ مهداً للعمل الجهادي الذي عكس عناد شعب فلسطين، وذلك منذ أن أحرق أهل جبل نابلس الغابات والحقول في وجه الغازي نابليون، حين خشوا غدرَه كما غدر بأهلها فارتكب بحقهم مجزرة مروّعة، ولذلك كان يسمىٰ جبل نابلس جنين طولكرم جبل النار.

وهكذا كانت أفعال أهل هذا الجبل مثالاً يحتذىٰ في التصدّي والتحدّي والإباء، حدَثَ ذلك في ثورة عام ١٩٣٦م، وفي الانتفاضتين المجيدتين، ففي الأولىٰ وقعت مدينةُ نابلس ستّ مرات متتالية تحت حظر التجوال الجائر، وفي الثانية خضعت لحصار وحشيّ لسنوات متعاقبة، ولكنها ظلت القلبَ النابض للانتفاضة في وجه الاحتلال.

يكشف لنا هذا الكتاب ـ الذي يُترجم سيرة العديد من القادة وأبطال «كتائب الشهيد عز الدين القسّام» في نابلس وشمال الضفة الغربية ـ بعضَ معالم المصنع المركزيّ للبارود الفلسطيني في الانتفاضة الثانية، ويُسطّر كيف قام الجيل الثالث من مهندسي «كتائب القسّام» بتطوير وسائلنا القتالية.

كما يروي دور كل مجاهد ـ ممّن يُذكرون في هذا الكتاب ـ ومساهمته في المجهود العسكري الضارب في «حركة حماس»، ذلك المجهود الذي كشف لنا ـ علىٰ الرغم من سخرية العابثين منه ـ عن إبداع فلسطيني آخر في مجال تطوير إمكانات القوة المادية واستخدامها بشكل فعّال ومؤثّر.

هذا الإبداع تجاوز حدود تغنّي الشعراء به إلىٰ تقديم الأمثلة القابلة للتكرار في كل جيل من أجيال أمة الإسلام النابض بالحياة، أمثلة صنعها طلائعيو شعب أعزل، قد لا يتّسِع كتابٌ لذكرهم جميعاً، وإن كانوا يستحقون أن تفرد لكل منهم كتب لا كتاب، وفي مقدمة تلك الأمثلة السامقة قائدهم الشهيد يحيىٰ عياش، مكتشف البارود الأول لأجيال فلسطيني ما بعد عام ١٩٦٧م، ولا أقصد المعنىٰ المجازيّ لكلمة «مكتشف»، بل أردت المعنىٰ الماديّ المحسوس لهذه الكلمة.

لطالما تعرفنا علىٰ الشهداء وهم بيننا أحياء، ميزناهم من سحناتهم، وعرفناهم من تعابير وجوههم القوية التي تدل علىٰ صرامة وحزم في نفوس أصحابها، غير أن

الوقوف على سيرة أولئك العظماء من الشهداء يجعلنا نكتشف فيهم سمات أخرى، فهذه القوة في البنية، والعزيمة في الإرادة، كان يرافقها حياء الإيمان، ورقة القلب، وصفاء النفس، وصفات أخرى انعكس أثرها على علاقاتهم بمن حولهم.

فالعيش مع سير تلك القمم الشامخة جعلنا نوقن أن شهداء «كتائب عزّ الدين القسّام» كانوا من صفوة رجال «حماس»، بل صفوة مجتمعهم الفلسطيني، فهم لم يكونوا على هامش حركتهم وتنظيمهم، وإنما كانوا في القلب منها، ومن كوادرها الأساسية الموهوبة والمتعلمة، عرفتهم أروقة الجامعات طلاباً جادّين، ونشطاء لامِعِين، وكان قدر الله لـهم أن يعرفهم سجن العدو، فصهرتهم التجربة، وكانوا مثالاً في الصبر وقوة الاحتمال.

في هذا الكتاب سنتعرف على رمزهم وقائدهم الشهيد الـمهندس أيمن حلاوة، وعلى شيخهم العالم المجاهد يوسف السُّرَكْجيّ، وتـقرأ عن كبيرهم صلاح دروزة، ثم لن ترتوي حتى تستقي من مناهل بقية الإخوة الكرام: محمود أبو هنُّود، ونسيم أبو الروس، وأحـمد مرشود، وكريم مفارجة، ونصر الدين عصيدة، وطاهر جرارعة، وجاسر سمارو، وأيمن حشايكة[1]، وإياد حمادنة، وهاني رواجبة، ومهند الطاهر، وسائد الأقرع، وغيرهم الكثيرين.

لقد كان الاستثمار في النواة المركزية لرجال «حماس» في العمل العسكري ليس

---

(١) ولد في قرية طلوزة قضاء نابلس، وكان من أبرز نشطاء قريته، وانضم إلى صفوف الحركة منذ التأسيس. واعتقل عام **١٩٩٤**، وأمضى في الأسر عشرة شهور، ثم اعتقل مرة أخرى عام **١٩٩٧**، وأمضى فيه كذلك ستة شهور، ثم اعتقلته «السلطة» عام **١٩٩٨** في «سجن بيتونيا» بتهمة مساعدة أبو هنُّود. استشهد بتاريخ **٢٤/ ١١/ ٢٠٠١** بعد قصف سيارة شقيقه أيمن، ولم يكن عمر أيمن قد جاوز **٣٥** عاماً، وترك من بعده زوجَه وخمسة أطفال.

من أجل تحـقيق أهداف مبتذلة، كتلك الدولة المزعومة التي حدودها الجنوبية رفح، والشمالية جنين، فهذه الدولة الفلسطينية الشائعة لا نعرفها، ولم نناضل لأجلها، ولم تكن تستحقّ ذلك الاستثمار الضخم في خيرة الرجال؛ فهم لم يكونوا يذهبون إلى الموت إلا ابتغاء تحقيق الهدف الذي ناضلت من أجل تحقيقه أجيال الفلسطينيين، وليس تحرير فلسطين ـ كل فلسطين ـ إلا أقلَّ ما فيه.

هذا الهدف الذي ينبغي إعادة توجيه الأنظار إليه، وعدّه أساس الاستـقطاب السياسي، ووضعه في الساحة الفلسطينية بين برنامجين موجودين:

أحدهما: يمثل الفئة التي تقف مع تحرير فلسطين من البحر إلى النهر.

وثانيهما: يمثل الفئة التي ليست مع تحريرها.

وإذا كان من وفاء لهؤلاء الرجال الشهداء، فهو الوفاء للأهداف التي ناضلوا وناضلنا من أجلها؛ ليعود لكل شيء معناه، وإلا ستفقد الأشياء الجميلة رونقها، وتنسلخ الأهداف العليا من معانيها.

وإن من واجبات مكتب إعلام الأسرىٰ ـ (قسم الدراسات)، نشر السيرة العطرة للشهداء البررة، وذلك من باب الاحتفاء بهم، والتعريف بالقيم التي يمثلونها، ثم قياماً بالتوثيق لجانب من سيرتهم بقلم أحد الذين عاشوا بينهم، خاصة بعد مضي ما يزيد علىٰ عشر سنين من رحيلهم، وإننا نرجو أن تكون دماؤهم وتضحياتهم وجهادهم نبراساً هادياً، ومعلماً صائناً للمسيرة من الخطأ والزلل.

إبراهيم حامد

من «سجن رمون»

تقريظ
بقلم القائد الأسير
الأستاذ عبد الناصر عيسى

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

الحديث عن الجهاد والمقاومة بلسم شافٍ للمستضعفين في الأرض، تشفي به صدور قوم المؤمنين، كيف لا والشهداءُ المخلصون هم من خيرة أهل الأرض، اصطفاهم الله تعالىٰ ليكونوا أهل قربه ومحبته، أما الأسرىٰ والمجاهدون المطاردون فما زالوا ينتظرون، وظننا فيهم أنهم ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

حديث الجهاد والمقاومة ليس مجرد حكايات تروىٰ، ولا قصصاً تحكىٰ، بل إن من ورائه أهدافاً سامية، فهو يرفع الهمم، ويرقىٰ بالعزائم، وتستمد منه الأجيال طاقات تدفعها إلىٰ المضي قدماً، والاستمرار في درب المقاومة، ذاك الدرب الطويل الشائك المضرج بالدم، يتوارث المؤمنون حمل راياته كابراً عن كابر، حتىٰ يأذن الله بالنصر الذي وعد به عباده المؤمنين ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ...﴾ [الروم: ٤-٥].

وقد كتب الله سبحانه علىٰ عباده المؤمنين في الأرض عامةً، وعلىٰ أجيال فلسطين خاصة أن يحيوا حياة الجهاد والرباط، ويقدموا الشهداء والتضحيات ما بقي المحتل الصهيوني المجرم جاثماً علىٰ أرض فلسطين يعيث فيها فساداً؛ يقتل أبناءنا، ويمنع

عودة المهجرين إلى ديارهم التي أخرجوا منها بغير حق، وينتهك حرمات الأقصى والمقدسات، ضارباً بعرض الحائط كل القيم والأخلاق، مستهتراً بالمواثيق والقوانين الدولية والإنسانية التي يتبجّح بها مُدَّعو الحضارة والمدنية الزائفة.

كثيراً ما حاول العدو الصهيوني ـ وما يزال جاهداً ـ أن يقتل في شعب فلسطين روح المقاومة ليزرع بدلاً عنها روح القَبول بالواقع والاستسلام، وأن يمحو من ذاكرتنا الجماعية مواقف بطولية، وشواهد إنسانية لا تزال باقية في قلوبنا وعقولنا للبذل والإصرار على العطاء.

والحرب على الوعي الجهادي ما زالت مستعرة، يتبجح بها ليلاً، ويدعو لها بدقة في النهار، زاعماً أنه قد زرع اليأس في جسد المقاومة، بل تعدت وقاحته إلى التبجح بأن أثر حربه هذه قد وصل إلى قلب وعقل وذاكرة الكثيرين من قيادات وأبناء الشعب الفلسطيني.

ولكن يأبى الله سبحانه إلا أن يظهر صفاقة هذا العدو، ويعري كذبه الصُّراح، فالمقاومون أبداً، حتى من كان منهم خلف السجون من أمثال أخينا المجاهد القائد الأسير سليم حجة = يأبون إلا أن يقاوموا، ويُعلّموا الدنيا بأسرها بأن المقاومة لا تقتصر على حمل السلاح والوقوف في الجبهات، وأن الجسد إن كبله العدو، وقيد الأيدي والأرجل، فلن يملك أبداً أن يسجن الفكر المقاوم، ولا العقول الحرة.

إنهم يقدمون نوعاً من المقاومة يُسطّرونه بمداد أقلامهم، ومن خلالها ينقلون للأجيال تجاربهم وذكرياتهم في مرحلة هامة من مراحل الجهاد الذي لم ينقطع يوماً في أرض الإسلام، ينقلون ما حملته ذاكرتهم الأبية على الرغم من محاولات القتل للذكريات في السجون، ينقلون أحداثاً أثّروا فيها، وأثّرت فيهم، كالانتفاضة الثانية.

وبذلك تواجه تلك الأقلام الأبيّةُ عدوَّها، وتقاوم جلادَها، وتنتصر على حرب الوعي، أو ما يمكن أن يُسمى «كيّ الذاكرة»، التي يشنها «يعلون» وقادة العدو على فكر المقاومة، وعلى ذكريات الشهادة، يتحدون بأقلامهم المضيئة هذه الهجمة الشرسة، تماماً كما واجهوا وتحدوا الدبابات وطائرات العدو في ساحات الجهاد، في «شارع ١٠»، وفي جنين، والقدس، وسائر أنحاء فلسطين.

والأسر لا يمنع أصحاب النفوس الكبار عطاءها، لأنهم يتفوقون على ما يوضع أمامهم من عقبات، فيغيرون طريقة العطاء، ويعطون العالم دروساً متجددة في كيفية كسر القيود أياً كان الظالم الذي يفرضها، نبراسهم في ذلك قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وما يميز هذا الكتاب ليس ما تحتويه جمله من بلاغة لغوية، أو محسنات لفظية، بل ما يضمه من حقائق وأحداث واقعية جاءت من شاهد عيان لكثير منها، ومشارك أو قائد فاعل في كثير آخر، كان له وجوده الفاعل مع بقية إخوانه أبطال الكتاب الذين قضوا نحبهم دون أن يتهيأ لهم أن يرووا قصصهم، ويُسمِعوا العالم أخبار شموخهم وإبائهم.

لقد كان الكاتب مشاركاً في أحداث صنعت التاريخ المقاوم لشعبنا، وسطرت مواقف بطولية أنتجها الإسلام العظيم الذي ينتمي إليه أصحابها.

مواقف وأحداث أجبرت العدو الصهيوني على إعادة حساباته، وجعلته يفكر في عواقب جرائمه، حتى انتهى به المطاف إلى الانسحاب من جزء من وطننا دون قيد أو شرط، بل إنه وعد أن ينسحب من أماكن أخرى.

تلك الأحداث جعلت العالم المتخاذل يشهد أن عدونا لا يفهم إلا لغةً حروفُها الهجوم، وبأن المقاومة وحدها هي المجزية، وذلك حينما تستغل في الوقت والمكان المناسبين.

وسيلحظ القارئ كيف صنعت المساجد ـ بالدرجة الأولى ـ الروح الإيمانية والجهادية، وكيف خرجت رجالاً عاهدوا الله على النصر أو الشهادة، فلم يتلقوا أوامر عُلْيا، ولم ينتظروا قرار بشر، بل بادروا من تلقاء أنفسهم، واتخذوا قرارهم، وواصلوا جهادهم، وطوروا أنفسهم، حتى أذاقوا العدو بعضاً مما أذاقه لشعبنا من قتل وتجويع وتعذيب، فضربوا بذلك مثالاً على قدرة الإيمان والإرادة، وأثر المعنويات مع الإمكانات البسيطة على صناعة المعجزات، فما بالكم إذا ترافق ذلك مع إمكانات أكبر، وتخطيط، وإدارة أكثر خبرة، إذاً كنا حررنا فلسطين كلها، وما ذلك على الله بعزيز.

لم يأت توثيق تاريخ المقاومة والمجاهدين العظام أمثال الشهيد يوسف السُّرَكْجيّ، وأيمن حلاوة، ومرشود، وجاسر، ونسيم، ومفارجة، وأبو هنُّود، ومهند الطاهر، وقيس عدوان، وعلان، وغيرهم، لم يأت من حاجة هؤلاء الشهداء لهذه الذكرى، فهم ليسوا بحاجة إلى تخليد ذكراهم، لأنهم بإذن الله ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

لقد كان هذا التوثيق حاجة للأحياء في المقام الأول؛ لرفع المعنويات، وأخذ الدروس والعبر، والاستفادة من تجارب حية سطرها هؤلاء العظام.

فنصر الدين كان مدرسة في الكَرِّ والفَرّ، وأيمن حلاوة يُعَدّ هيئة أركان حرب كاملة، وعليّ علان مدرسة في الإخلاص، ومهند مثال في الشجاعة، وجمال قدوة في الإقدام.

وكل واحد من المذكورين نموذج عظيم في العمل والتضحية والفداء، وهم جزء من قافلة الشهداء الفلسطينيين العظام.

ومن الواجب أن يوثق ويكتب كل مجاهد شهادته عما جرى، وروايته عن

الحوادث التي شارك فيها ورآها، فهم الذين سطروا مواقف وبطولات في ساحات الوطن جميعها، في رام الله، والخليل، والقدس، وبيت لحم، وغزة، وجنين، وقلقيلية، وطولكرم، ونابلس، وفي كل قرية وحيٍّ من فلسطين الحبيبة.

رحم الله شـهداءنا، وفرج عن أسرانا، وحـفظ كلَّ مجاهدينا، وإنّا على دربهم لسائرون.

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلَهم
إنّ التشبُّه بالكرام فلاحُ

عبد الناصر عيسى

❊ ❊ ❊

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد،

فإن خواطري هذه صدىٰ لبعض تجارب الحياة، أردت أن أحملها إلى شعبي وأمتي الحبيبة، بعد هذا الانقطاع.

إنها خواطر ولدت في زمن المحنة، امتزجت كلماتها بالألم، واستنارت بالإيمان، وسارت علىٰ درب الجهاد بكل أساليبه ومعانيه.

إنها لحظاتٌ أبطالها شهداء، وسويعاتٌ قادتُها تخضّبوا بالدماء.

كثيرة هي الدوافع التي قادتني إلى كتابة هذه المذكرات، ذكريات تقودني إلى ذلك الـماضي الـمشرّف، وما يحـتوي عليه من تضحيات عظيمة سطّرها عددٌ كبير من الشهداء والمجاهدين والأسرىٰ من أبناء هذا الشعب المرابط، وهذه الحركة الربّانية المباركة.

ترددت عدة مرات قبل أن أخطَّ أول كلمة من هذه الصفحات الـمشرقة من تاريخ المقاومة في فلسطين، وعلىٰ الأخص في انتفاضة الأقصى المباركة، مرت السنة تلو الأخرىٰ، ودوافع الكتابة تزداد في نفسي، وتلح علىٰ خيالي، إلى أن حان الوقت واستجاب القلم، فقررت أن أسطر هذه البطولات وتلك التضحيات؛ لأرويَ تلك الذكريات والأحداث العظيمة التي عشتُها، وشاركتُ في صناعتها مع ثـلّة مؤمنة

مـجاهدة من الأطهار تكاتفتْ وتعاهدتْ وتعاونتْ، وعمِلَت بروح الفريق من أجل إنجاح العمل المقاوم في فلسطين.

كثيرة هي الصفات التي ميزت أولـئك الأبطال الذين تشـرفت بالعمل معهم، ولكن أهم ما يميزهم هو المبادرة، لم ينتظروا أن تأتيهم الأوامر، ولم يحتجوا بقلة ذات اليد فيتوقفوا على تحويل الأموال، ولا شعروا بالعجز فطالبوا بتسخير الإمكانات، بل تقدموا الصفوف، وقدّموا الأرواح والنفوس والأموال، وأرخصوا الأعمار في سبيل الله؛ لأنهم يملكون ما هو أهمّ من كلّ ذلك، يملكون الإيمانَ والعزيمة وقوة الإرادة.

لقد نادى الأقصـى عندما دنّس المجرمُ شارون ساحاته، ولبى هؤلاء الأبطال النداء، وبرهنوا بأنهم الرواد، والرواد دائماً مكانهم المقدمة.

لقد أردت من كتابتي لهذه المذكرات أن أرويَ بعض ما أعرف من صفحات مشـرقة من التضحية والبطولة والفداء، وأن تكون هذه السطور وفاءً للمجاهدين والشهداء والأسرى.

هذه المذكرات تحتوي على معلومات تُنشر لأول مرة، وقد أردت من خلال نشر هذه المعلومات أن أوثّق هذا التاريخ الناصع بهؤلاء الأبطال، وأن أُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقّه، فهنالك الكثير من الجنود المجهولين الذين كان لهم دور بارز لم يظهر للجماهير.

ولا أدّعي أن رواية الأحداث هنا مكتملة؛ لأن هناك أسباباً عديدة تحول دون اكتمالها، فالعمل ضخم، والجهود متعددة، ولا يستطيع أحد الإلمام بكل ما جرى، ثم إن هناك أسراراً دُفنت مع الشهداء، ومنها ما بقي في صدور المجاهدين، وعلى الرغم من ذلك أردت أن أحكي شهادتي حول هذه الأعمال البطولية، والأحداث الهامة التي كان لها تأثيرٌ كبير على المنطقة بأسرها؛ تذكيراً للأمة، ولأبناء هذا الشعب المرابط، انطلاقـاً من قول الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾.

إن هذه الذكريات من أيام الله، أيام ضمّت الكثير من التضحيات والأعمال البطولية، سالت فيها دماء الشهداء والجرحى، وكان فيها الكثير من عذابات الأسرى والمطاردين؛ لذا شعرت أن من الواجب عليَّ أن أكتب في هذا التاريخ المشرق، علّ هذه التضحيات توقظ القلوب، وتشحذ الهمم، وتقدم العبرة، فيستفيد الجيل الصاعد من التجارب المروية في هذا الكتاب.

في هذه السطور أروي قصة رحلة طويلة من البطولة والفداء التي بدأتُها مع ثلّة مجاهدة، لكن شاءت إرادت الله، أن نفترق في منتصف الطريق، فمنا من اختاره الله واصطفاه من الشهداء، ومنا من بقي في هذه الحياة يمتحنُ ويُختبر ثانية؛ ليرويَ الحكاية، ويُكمل الرحلة.

أروي في هذه الورقات قصة الأبطال الذين صنعوا بإمكانات بسيطة «نظريةَ توازن الرعب»، أقصُّ فيها عن أجسام شهداء تتفجّر، وعبوات ناسفة بسيطة خفيفة تُواجه مئتي قنبلة نووية ومئات الصواريخ.

في الفصول القادمة سنعيش مع روايتي لهذه البطولة، وقد تحدثتُ فيها عن ذكرياتي مع كل شهيد أو أسير، وما دار بيننا من أحداث، وما صنعناه سويةً من أعمال بطولية، وأعتذر لكل مَنْ كان جزءاً من هذه الأحداث ولم أذكر اسمه؛ سهواً أو لأمرٍ ما، راجياً من الله العليّ القدير أن يتقبّل هذا الجهد، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي يوم القيامة.

❊ ❊ ❊

توطئة تاريخية
عن الحقبة التي كتبت فيها هذه المذكرات[1]

العدوان والمقاومة

انتفاضة الأقصى

اندلعت انتفاضة الأقصى في **٢٩/ ٩/ ٢٠٠٠**، إثر زيارة أرئيل شارون Ariel Sharon زعيم حزب الليكود Likud الاستفزازية إلى حرم المسجد الأقصى في **٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠**.

وكان واضحاً أن ثمة مباركة وتأييداً من رئيس الحكومة الصهيونية إيهود باراك Ehud Barak للزيارة حيث زوده بـ (٦٠٠) جندي لمرافقته، واستنفر ثلاثة آلاف جندي وشرطي في القدس وأحيائها.

وصمم المسلمون على الدفاع عن الأقصى، حيث سقط في المواجهات الأولى خمسة شهداء، وجرح أكثر من مئة.

---

(١) من أفضل من كتب عن هذه الحقبة الدكتور محسن صالح في كتابه «القضية الفلسطينية ، خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة» ص**١٢٤-١٣٠**، وقد رأيت الاكتفاء بنقل كلامه هنا؛ لتكون بمثابة التمهيد لهذه المذكرات.

وكانت عناصر اشتعال الوضع جاهزة، فقد وصلت مفاوضات التسوية السلمية إلى طريق مسدود، وتأكدت الأطماع الصهيونية في القدس والمسجد الأقصى، واستمر الصهاينة في مصادرة الأراضي وتوسيع المستعمرات.

وبدا لباراك أن «الحل الوحيد الذي لاح في الأفق كان دفع الوضع إلى الانفجار»، كما قال بنفسه في اجتماع سري في **٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٠**[١].

ولعله أراد إظهار مزيد من التصلب، وتحقيق مزيد من الشعبية وسط المجتمع الصهيوني، واستثمار ذلك في وقف عملية التسوية أو إدخالها في أزمات متتالية، ليتسنى تحقيق مزيد من الضغط على السلطة الفلسطينية، التي أثبتت السنوات الماضية قابليتها للتنازل والتراجع، وتخفيض سقف مطالبها.

وأفرزت الانتفاضة عدداً من الحقائق والمؤشرات أهمها:

الأولى: أن الأمة الإسلامية ما تزال حية، بالرغم من الجراح التي أثخنتها، وأن روح المقاومة والصمود والاستعداد للبذل والتضحية لم تخمد. فقد خرجت المظاهرات بعشرات الآلاف بل بمئات الآلاف في بلدان العالم الإسلامي، من الرباط في أقصى المغرب وحتى جاكرتا في أقصى المشرق الإسلامي، كلها تهتف للأقصى والقدس وفلسطين، وتطالب بالجهاد، وتقدم ما لديها من تبرعات ودعم. فكانت لحظات رائعة من أخوة الإسلام ووحدة الأمة. وظهرت تجليات الإمكانات الكبرى لهذه الأمة لتحقيق النصر لو سلكت طريق الجهاد.

الثانية: أن قضية فلسطين قضية تجمع المسلمين وتوحِّدهم، بل وتكون سبباً في تجاوز خلافاتهم والتركيز على العدو الصهيوني المشترك. وأن هذه القضية غدت

---

(١) الخليج، ١٠/ ١١/ ٢٠٠٠.

القضية المركزية للعالم الإسلامي، فلا قضية تجمعهم كهذه القضية، ولا عدوَّ يجتمعون ضده كهذا العدو.

الثالثة: وجهت الانتفاضة ضربة قاسية لمشروع التسوية السلمية والتطبيع مع العدو، وبرز الخيار الجهادي كخيار أمثل.

الرابعة: أن هذه الانتفاضة انعكست على طريقة تفكير الناس وأسلوب حياتهم اليومي، فاشتد العداء للمشروع الصهيوني، واشتد العداء ضدّ أمريكا، وتكرست الروح الجهادية وروح التكافل، وتجاوبت الجماهير مع دعوات مقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية، حتى غيّر الملايين من أسلوب طعامهم وشرابهم اليومي، ومن لباسهم ووسائل تنقلهم واتصالاتهم وترفيههم، فكانت مدرسة تربوية اجتماعية شعبية، ربما احتاجت حركات الإصلاح سنوات للوصول إلى مثل نتائجها.

بل واضطرت الشركات الأجنبية الأمريكية لإنزال إعلانات عدم العلاقة بالكيان الصهيوني، بل والتبرع لضحايا الانتفاضة، كما حدث مع مطاعم مكدونالدز التي تبرعت بريال سعودي لكل وجبة طعام، لعلاج جرحى الانتفاضة[1].

الخامسة: برزت أهمية الإعلام ودوره في التعبئة، إذ تمكن المسلمون من كسر الطوق الإعلامي الغربي المتصهين، من خلال الفضائيات العربية، وخدمات الإنترنت والبريد الإلكتروني، وخصوصاً في المراحل الأولى من الانتفاضة.

ومن جهة أخرى، فقد تميزت هذه الانتفاضة بالمشاركة الشعبية الواسعة في كل أرجاء فلسطين المحتلة، وبمشاركة كافة التيارات الفلسطينية. كما تميزت في الوقت

---

(١) يمكن مراجعة التقارير المنشورة في الإنترنت في أشهر تشرين الأول/ أكتوبر، وكانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠ في المركز الفلسطيني للإعلام وموقع إسلام أون لاين، لقراءة العديد من النماذج والتقارير.

نفسه، بشدة القمع الصهيوني الذي تمادىٰ في قتل الأطفال والأبرياء واستخدام الأسلحة المحرمة دولياً، وانكشفت سوآت أدعياء السلام «الصهاينة» الذين تباروا في سحق الانتفاضة المباركة.

وقد شهدت سنة **٢٠٠٥** خُفوت موجة انتفاضة الأقصى، وكان ذلك نتيجة الأوضاع التي تلَت وفاة ياسر عرفات، وانتخاب محمود عباس رئيساً للسلطة، وبسبب انشغال الفلسطينيين في الضفة والقطاع في الانتخابات البلدية وفي التحضير للانتخابات التشريعية، فضلاً عن إعلان الفصائل الفلسطينية في **٢٢/ ١/ ٢٠٠٥** التهدئة من جانب واحد، ثمّ إعلان وقف إطلاق النار بين السلطة و«إسرائيل» في ٨ شباط / فبراير.

وخلال الفترة من **٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠** حتىٰ **٣١/ ١٢/ ٢٠٠٥** بلغ عدد الشهداء **٤٢٤٢** شهيداً، بينهم (**٧٩٣**) طفلاً، و(**٢٧٠**) شهيدة.

وقامت السلطات بعمليات اغتيال وتصفية جسدية ميدانية لـ (**٣٧٦**) مواطناً، واستشهد بسبب الإعاقة علىٰ الحواجز الإسرائيلية (**١٤٠**) مريضاً ما بين طفل وسيدة وشيخ مسنّ من مرضىٰ القلب والكلىٰ والسرطان. وبلغ عدد الجرحىٰ (**٤٦٠٦٨**) جريحاً[١].

وعلىٰ الرغم من إعلان التهدئة الفلسطينية وخُفوت الانتفاضة، إلا أن أعداد السجناء زادت، فبعد أن كانت هناك نحو (**٧٨٠٠**) في مطلع **٢٠٠٥** ارتفع عددهم إلىٰ نحو (**٩٢٠٠**) سجيناً في نهاية السنة نفسها. وتمّ اعتقال (**٣٤٩٥**) فلسطيني خلال سنة

---

(١) مركز الإحصاء الوطني الفلسطيني، **٩/ ٢/ ٢٠٠٥**، انظر:
http://www.pnic.gov.ps/arabic/quds/arabic/viol/quds_12-2005.html

٢٠٠٥ ظلّ منهم (١٦٠٠) محجوزين خلف القضبان[١].

وفي انتفاضة الأقصى وُضع ياسر عرفات تحت حصار قاسٍ في مقرّه في رام الله لنحو سنتين ونصف، وتوفي في ظروف مريبة في ١١/ ١١/ ٢٠٠٤.

كما استشهد عدد من قادة حماس الكبار أمثال جمال سليم وجمال منصور في ٣١/ ٧/ ٢٠٠١، وصلاح شحادة في ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٢، وإسماعيل أبو شنب في ٢١/ ٨/ ٢٠٠٣.

وتلقت حماس إحدىٰ أقسىٰ الضربات باستشهاد زعيمها الروحي ومؤسسها الشيخ أحمد ياسين في ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٤، ثم تبعه استشهاد عبد العزيز الرنتيسي في ١٧/ ٤/ ٢٠٠٤.

وبلغ عدد شهداء كتائب القسام (٦٠٤) شهداء خلال انتفاضة الأقصى (٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠ ـ نهاية ٢٠٠٥).

كما استشهد أبو عليّ مصطفىٰ الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في عملية اغتيال صهيونية في ٢٧/ ٨/ ٢٠٠١.

وبلغ عدد المنازل التي دمرت بشكل كلي وجزئي (٧١٤٧٠) منزلاً، وعدد مؤسسات التربية والتعليم التي تعرضت للقصف (٣١٦) مدرسة ومديرية ومكاتب

---

(١) تقرير وزارة شؤون الأسرىٰ والمحررين لسنة ٢٠٠٥، انظر:
http://www.pnic.gov.ps/arabic/prisoners/2005.html
وحسب مركز المعلومات الإسرائيلي لحقوق الإنسان في الأراضي المحتلة (بتسيلم) نقلًا عن مصادر الأمن والجيش الإسرائيلي فإن المعتقلين كانوا (٧٨٣٨) في مطلع سنة ٢٠٠٥، ووصل العدد إلىٰ (٨٢٣٨) معتقلاً في مطلع سنة ٢٠٠٦، انظر:
www.btselem.org/arabic/statistics/detainees

تربية وتعليم وجامعة، كما تمّ تحويل (٤٣) مدرسة إلى ثكنات عسكرية. وقام الإسرائيليون باقتلاع وتدمير مليون و(٣٥٥) ألف شجرة.

وبلغت نسبة العاطلين عن العمل (٤ ,٢٨ ٪) سنة ٢٠٠٥، أما نسبة الفقر في الأراضي الفلسطينية، جراء الإغلاق والحصار الإسرائيلي حتى نهاية سنة ٢٠٠٤، فبلغت (٤٢٪) بواقع (٢ ,٦٣٪) في قطاع غزة، و(٢ ,٣١٪) في الضفة الغربية. وتشير التقديرات إلى أن الاقتصاد الفلسطيني (الناشئ المنهك) قد خسر منذ اندلاع الانتفاضة وحتى ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٥ نحو (١٥) ملياراً و(٦٠٠) مليون دولار[١].

وقد شاركت الفصائل الفلسطينية كافة في العمليات العسكرية. وحسب التقديرات الإسرائيلية فقد نفذّت المقاومة الفلسطينية (٢٢٤٠٦) عمليات في الفترة من ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٠ وحتى ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٥[٢].

وتميزت حركة حماس بدورها البارز وبعملياتها الاستشهادية التي أحدثت دوياً هائلاً، وزعزعت الأمن في الكيان الإسرائيلي حيث نفذ معظمها في فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨. وحتى ١/ ١٢/ ٢٠٠٥ حدثت (١٣٥) عملية استشهادية، نفذت حماس منها (٦١) عملية، بالإضافة إلى عمليات كثيرة نفذتها كتائب شهداء الأقصى والجهاد الإسلامي...[٣].

---

(١) مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، انظر:
http://www.pnic.gov.ps/arabic/quds/arabic/losses/28-9-2005.html

(٢) موقع الجيش الإسرائيلي، انظر:
http://www1.idf.il/SIP_STORAGE/DOVER/files/9/21829.doc

(٣) موقع الجيش الإسرائيلي، انظر:
http://www1.idf.il/SIP_STORAGE/DOVER/files/6/31646.doc

وركزت كتائب شهداء الأقصى على عمليات إطلاق الرصاص ضدّ المستوطنين وقوات الاحتلال في الضفة والقطاع.

وكان لحركة الجهاد الإسلامي دورها المتميز من خلال مجموعة من العمليات القوية المؤثرة، كما نفذت الجبهتان الشعبية والديمقراطية عدداً من العمليات.

ومن العمليات التي تستحق الإشارة عملية اغتيال وزير السياحة الإسرائيلي رحبعام زئيفي في ١٧/ ١٠/ ٢٠٠١، وهو جنرال سابق في الجيش، ومن أشد الصهاينة تطرفاً. وقد نفذت الجبهة الشعبية هذه العملية انتقاماً لاغتيال أمينها العام أبو علي مصطفى.

لكن العمليات الاستشهادية على قلتها النسبية كانت الأكثر أثراً. وينبغي الإشارة إلى أن كثيراً من الإصابات في صفوف «المدنيين» الإسرائيليين هي في الحقيقة إصابات في جنود احتياط، إذ إن كل اليهود تقريباً في فلسطين المحتلة فوق سن الـ١٨ يخضعون للتدريب العسكري الإجباري، سواء كانوا من الرجال أم النساء. أما الأغلبية الكبرى للشهداء الفلسطينيين فهي من المدنيين.

ويشير تقرير جهاز الأمن العام الإسرائيلي (الشاباك) (المخابرات الإسرائيلية) إلى مقتل (١٥١٣) إسرائيلياً وجرح (٣٣٨٠) آخرين منذ بدء الانتفاضة وحتى تموز/ يوليو ٢٠٠٥[1].

وقد عانى الكيان الصهيوني من تدهور وضعه الاقتصادي، الذي كان يشهد ازدهاراً كبيراً قبل بدء الانتفاضة. فقد تعطّلت السياحة تقريباً في السنتين الأوليين للانتفاضة، وهي التي تمثل ثاني أكثر مصدر للدخل. وارتفع عدد الإسرائيليين تحت

(١) نشرت التقرير جريدة **معاريف** ونشرت ترجمته جريدة **السفير**، بيروت، ١٥/ ٧/ ٢٠٠٥.

خط الفقر إلى نحو (٢٢٪) في آخر سنة ٢٠٠٤، حسب تقرير نشرته مؤسسة التأمين الوطني الحكومية، ذكر أن عددهم بلغ مليوناً و(٥٣٤) ألفاً[١].

وحسب تقرير رسمي صادر عن دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية فإن سنة ٢٠٠٢ كانت الأسوأ من الناحية الاقتصادية في تاريخ الكيان الصهيوني منذ خمسين عاماً (سنة ١٩٥٣).

وذكر التقرير أن الناتج المحلي الإجمالي تراجع بنسبة (١٪) سنة ٢٠٠٢، استمراراً لانخفاض بنسبة (٠,٩٪) سنة ٢٠٠١ مقارنة بارتفاع (٧,٤٪) سنة ٢٠٠٠[٢]. وانخفض المعدل السنوي لمعدل ناتج الفرد بنحو ثلاثة آلاف دولار (من ١٨٦٠٠ دولار سنة ٢٠٠٠ إلى ١٥٦٠٠ دولار سنة ٢٠٠٢).

وحسب تقرير القسم الاقتصادي في اتحاد المستقلين «لاهاف» Lahav فقد أغلق في سنة ٢٠٠٢ نحو (٥٠) ألف متجر، كما يتوقع إغلاق عشرات الآلاف من المشاريع التجارية والمتوسطة سنة ٢٠٠٣[٣].

وحسب بعض التقديرات فإن مجموع الخسائر الاقتصادية الإسرائيلية خلال السنتين الأوليين للانتفاضة بلغت نحو ثمانية مليارات دولار، أي نحو (١١) مليون دولار يوميّاً.

---

(١) موقع عرب ٤٨، ٨/ ٨/ ٢٠٠٥، انظر:
http://www.arabs48.com/display.x?cid=16&sid=66&id=30295

(٢) دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية، انظر: www.cbs.gov.il ؛ وانظر: وكالة قدس برس إنترناشيونال للأنباء، نشرة بانوراما، ٢/ ١/ ٢٠٠٣.

(٣) قدس برس، نشرة بانوراما، ٣/ ١/ ٢٠٠٣.

وهكذا فإن الفرق الجوهري الذي أحدثته الانتفاضة هو أن الشعب الفلسطيني لم يعد الجهة الوحيدة التي تدفع ثمن الاحتلال والغطرسة الصهيونية من شهداء وجرحى ودمار، وإنما أصبح الكيان الإسرائيلي يدفع غالياً ثمن احتلاله وظلمه.

لقد أحدثت هذه الانتفاضة هزة عميقة في الكيان الصهيوني، وأصابته في صميم القاعدتين اللتَين بنى عليهما وجوده المادي، وهما الأمن والازدهار الاقتصادي. وأخذ عشرات الآلاف من اليهود يحزمون حقائبهم ويغادرون الكيان الصهيوني إلى أوروبا وأمريكا وأستراليا، وأظهرت استطلاعات الرأي العام أن أكثر من (٢٥٪) من اليهود في فلسطين يفكرون جدياً في المغادرة وترك البلاد.

وأظهر استطلاع أجرته جريدة «الجيروزاليم بوست» الإسرائيلية The Jerusalem Post يوم ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٢ أن (٦٩٪) من الإسرائيليين يعيشون حالة الخوف من التعرض لإصابات أو الموت بسبب العمليات الاستشهادية[١]. وفي المقابل، فإنه على الرغم من قسوة المعاناة الفلسطينية فقد أظهر استطلاع للرأي نشر في ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٢ أن (٨٠٪) من الفلسطينيين يؤيدون استمرار الانتفاضة، وأن (٦٣٪) يؤيدون العمليات الاستشهادية[٢].

* * *

(١) نقلًا عن: (British Broadcasting Corporation BBC)، ٣٠/ ١١/ ٢٠٠٢.
http: //news.bbc.co.uk

(٢) الخليج، ١٨/ ٢/ ٢٠٠٣.

مهندسو الحياة

نبدأ من النتيجة، من الأثر الذي تركه تصنيع المتفجرات في نفوس الصهاينة، من شهادة العدو حول ما وصلت إليه «كتائب القسّام» من تطور في مجال التصنيع على الرغم من قلة الإمكانات، شهادة جاءت في صحف العدو، وعلى لسان محلّلين أمنيّين وعسكريّين صرّحوا بأن عبوات «القسّام» في نابلس تتميز بالإتقان والقوة، ويدل تصنيعها على ذكاء أصحابها، بل إنهم تجاوزوا هذه الشهادة إلى تمنّي أن يكون عندهم أمثال هؤلاء المهندسين، وقد نشرت إحدى الصحف الاسرائيلية في تعليق لأحد المحللين بعد عدة عمليات زرعت فيها عبوات في محيط مدينة نابلس: «ونتمنى أن يكون عندنا مهندسون وخبراء مثل هؤلاء المهندسين يعملون في صفوف الجيش الإسرائيلي».

كان شهيدنا البطل أيمن حلاوة أحد أفراد المجموعة التي نفذّت عام **١٩٩٧م** عمليتي «بني يهودا»، و«محاني يهودا» التي تسببت بقتل سبعة وعشرين صهيونياً، وجرح مئتين وخمسين جريحاً من الصهاينة، وقد ضمت هذه المجموعة كلّاً من خليل الشريف[١]، وعمار الزبن، ومعاذ بلال، ومحمود أبو هنُّود.

---

(١) ولد في نابلس عام **١٩٧٣**، وأصله يرجع إلى يافا المحتلة، ترعرع في مسجد السلام، ودرس الابتدائية في مسجد الراهبات، والإعدادية في مدرسة المعري، والثانوية في مدرسة الملك طلال.
والتحق بـ«جامعة بيرزيت» في كلية الهندسة، ثم تحول إلى الاقتصاد. وكان المنسق العام لحركة الشبيبة الطلابية في الجامعة، وفي عام **١٩٩٣** أعلن انضمامه إلى «الكتلة الإسلامية» على الملأ مما جعله مطلوباً لـ«السلطة»، قام قبل استشهاده بعدة عمليات جهادية، وكان الاستشهادي الخامس في عمليات «محني يهودا».

وقد شاءت إرادة الله أن يُحكم أيمن حلاوة ثلاثين شهراً، وبعد خروجه من الأسر وانضمامنا إلى العمل العسكري كان يقول لي: إنه درس الهندسة الكهربائية في «جامعة بير زيت»، وانتسب إلى الكلية التي درس فيها المهندس يحيى عيّاش؛ كي يصبح مهندساً مثله، ويسير على دربه، وليُنكيَ بالعدو كما علّمته سيرة الشهيد يحيى عياش.

وقد نفّذ أمنيته، وكان له ما أراد؛ فتعلّم وتدرّب، ولم يقف أثناء دراسته عند حدود ما تعلّمه، فقد كان يبتكر كل جديد، ويجرب ويخترع كل ما يتوافق مع الإمكانات المتوافرة، وما تتيحه له الظروف التي يعيش فيها، ولم يرتض أن يبقى ما تعلّمه دفين صدره وعقله، فنشر ما تعلّمه، وعلّم ودرّب مهندسين جدداً، وأوجع العدوّ، وأقضّ مضجعه حتى لحظة اعتقاله عام **١٩٩٧م**.

وقد أمضى مدة أسره يُحدثني حول إمكاناته وما يحمله من أفكار في مجال التصنيع، وبعد خروجه من السجن حاول أن يطور الجانب التقني للتصنيع والتفجير عن بُعد، وذلك باستخدام جهاز التحكم عند بعد «الريموت»، بالأبواب والهواتف اللاسلكية، وكان يطلب مني البقاء معه؛ لأُساعده في إجراء بعض التجارب، غير أن التجارب لم تكن كلّها ناجحة؛ بسبب قلة التجربة، ونقص القطع الإلكترونية نتيجة الإجراءات التي يفرضها الاحتلال.

كنا نحاول تصنيع مادة «بروكسيد الأستون» التي عرفت بمادة «أم العبد»، وقد عملنا على إنتاج كميات قليلة منها، لنختبر التجربة ونرى نتائجها، وكنّا نُصاب أحياناً بصداع وأزمات صحية بسبب الغازات السامة التي تنتج عن التفاعل الكيماويّ.

وفي الوقت الذي كنّا نجري فيه تجاربنا كان مهنّد الطاهر وطاهر جرارعة يحاولان أيضاً، إذ إن خبرتهم في مجال التصنيع لم تكن كبيرة حتى ذلك الوقت، ثم فيما بعد قام

أيمن حلاوة بنقل خبرته وتجاربه في مجال الإلكترونيات والتصنيع إلى الآخرين، فتعلّما منه، واستفادا من خبرته، وحتى تلك اللحظة كان الفشل نصيب عدد من العمليات، ولم تنجح الكثير من عمليات زرع العبوات بسبب الضعف في مجال التصنيع.

بداية التفوق

في شهر نيسان لعام **٢٠٠١م** جاء مهندس من الخارج، فالتقى القائد أبا النور صلاح دروزة[١]، وأخذ منه رسائل أُرسِلت من القيادة في الخارج، ثم جمع بينه وبين القائد أيمن حلاوة، والتقيا في «غرفة عمليات القسّام» في «شارع ١٠»، ونقل خبرته لأيمن، وكانت مجالات خبراته متعددة بدءاً من صنع المتفجرات، وصنع العبوات الجانبية والتلفزيونية، إلى التفجير عن بُعْد، وأضاف إلى ذلك تعليمات وإرشادات لابد منها، ونشرات أمنية تفيد المجاهدين في توخي الحذر أثناء عملهم.

وكان من المواد المتفجرة التي تعلّمها أيمن من المهندس الذي أتى من الخارج مادة «نيتروجليكول» شديدة الانفجار، ومادة «بروكسيد الأستون» التي عُرفت باسم «أم العبد»، ومادة «الكلوروفورم»، وهي ما أُطلق عليه لاحقاً اسم «قسّام **١٩**».

وقد شكلت مادة «قسام **١٩**» نقلةً نوعيّة في التصنيع والعمل العسكري في محافظات الضفّة الغربية؛ إذ إن قوتها وتأثيرها فاق كلَّ المواد التي استُخدمت في

---

(١) من عائلة معروفة في مدينة نابلس، أنهى الثانوية والتحق بجامعة أبو ديس، وحصل على شهادة البكالوريوس في الأحياء. تزوج من مقدسية وله منها ستة أبناء. اعتقل عدة مرات في سجون الاحتلال في السنوات **١٩٨٩-١٩٩٠**، وأبعد عام **١٩٩٢** إلى مرج الزهور فكان أحد الناطقين الإعلاميين فيها، ثم أعيد اعتقاله عام **١٩٩٤**، وعمل ممثلاً للأسرى في السجون، وهو قيادي جمع بين السياسة والعسكرية، وكان ممثل حركة «حماس» في التنسيق الفصائلي. اغتيل بتاريخ **٢٥/ ٧/ ٢٠٠١** بعد أن قصفت سيارته بالصواريخ.

عمليات عديدة سابقة، ومع المادة الجديدة والشكل الجديد في هندسة العبوات بدأت أرقام القتلى من الصهاينة لا تقلّ عن العشرة.

تبادل الخبرات في خدمة الجهاد

لم يكن العمل الجهاديّ يسير على صعيد واحد، ولم يكن أحد ينتظر عملاً من غيره، بل كانت روح المبادرة هي المسيطرة، فقد كان فواز بدران[١] في الوقت نفسه يخطط لعمليتي «نتانيا» الأولى والثانية فكان هو المهندس لهما وكان تنفيذهما على يد الاستشهاديين أحمد عليان[٢] ومحمود مرمش[٣]، وقد أحدثتا نقلة نوعية في قوة التفجير، وارتفاعاً كبيراً في عدد القتلى، وتسببتا بإرباك العدو وغيرتا قواعد اللعبة،

---

(١) من مواليد طولكرم عام ١٩٧٤، درس فيها المرحلة الأساسية والثانوية، وتعلق بمساجدها، وحفظ فيها كتاب الله تعالى، والتحق بجامعة عمان الأهلية، ودرس علوم الحاسوب بين عامي ١٩٩١-١٩٩٢. بعدها انتقل إلى كلية الشريعة، وحصل على البكالوريوس بامتياز، والتحق بجامعة آل البيت عام ١٩٩٦-١٩٩٧، وحصل على شهادة الماجستير في علم الحديث. عمل أستاذاً في مدرسة العروبة بعمان، وكان يدرّس التجويد في مسجد عبد الرحمن بن عوف بضاحية صويلح بمدينة عمان. عاد إلى فلسطين عام ١٩٩٩، وعمل مدرساً في مدرسة الأقصى بطولكرم، وأدى مناسك العمرة مرتين. حصل على المركز الأول في مسابقة حفظ القرآن التي نظمتها وزارة الأوقاف. ويُعدّ ممن طوروا قسم الهندسة في «كتائب القسام». اغتيل بتاريخ ١٣/ ٧/ ٢٠٠١ بعد تفجير سيارة مفخخة بالقرب من منزله أثناء مروره بجانبها. وترك زوجَه وثلاثة أطفال.

(٢) من مواليد مخيم نور شمس بمدينة طولكرم، عرف بورعه وتدينه، عمل مؤذناً لمسجد أبي عبيدة، ويحفظ خمسة وعشرين جزءاً من كتاب الله تعالى. استشهد بتاريخ ٤/ ٣/ ٢٠٠١، وكان عمره حينها يناهز ٢٢ عاماً.

(٣) ولد في طولكرم عام ١٩٨٢، عرف بالتزامه وتعلقه بالمساجد، ربّته أمه يتمياً مع أربعة من إخوانه بعد وفاة والده ولم يكن قد تجاوز عمره ست سنوات. عرف بنشاطه في الحركة، استشهد بتاريخ ١٨/ ٥/ ٢٠٠١.

ولذلك قام العدو بالرد بطريقة مختلفة، فقد قصفت طائرات «F١٦» مبنىٰ «سجن المقاطعة» في نابلس، واستهدفت القائد محمود أبو هنُّود في «سجن السلطة»؛ رداً علىٰ تلك العمليات، ثم اغتالت فواز بدران في طولكرم، رحمه الله رحمة واسعة.

لقد أحدث استشهاد فواز بدران ثورة أخرىٰ ونقلة نوعية ثانية في مجال التصنيع، فجرىٰ التنسيق بين الجناح العسكري في طولكرم والقائد صلاح دروزة في نابلس، واستُقبل فيما بعد أحد مجاهدي مجموعته؛ لإخفائه في نابلس، والاستفادة من خبرته في تصنيع مادة «نيتروجليسرين»، وقد جاء في لائحة الاتهام في محاكم الاحتلال أن أحمد الجيوسي قَدِم إلىٰ نابلس، وقام بتدريب أيمن حلاوة علىٰ مادة «نيتروجليسرين» التي أُطلق عليها في «كتائب القسّام» مادة «أم يحيىٰ»، وبعد ذلك درّب أيمن عدداً كبيراً من أبناء «كتائب القسّام» المطاردين علىٰ هذه المادة القوية والنوعية.

ويبقىٰ السؤال الذي يفتح آفاقاً واسعة لتوحّد قوىٰ الجهاد في الأرض: من أين تعلّم الشهيد فواز بدران ؟

والجـواب فيـه الكثير من العبر والـدروس للمجاهدين من الشيشان.. إلىٰ الأردن.. إلىٰ طولكرم.

كان فواز بدران يدرس في الجامعة الأردنية، وفيها تعرف علىٰ أحد الشباب الأبطال الذين جاهدوا في الشيشان، وأتقنوا تصنيع المتفجرات، وبعد أن جمعت بينهما علاقة الدفاع عن أرض الإسلام ورفع راية «لا إله إلا الله» في الأرض، أراد هذا الشاب المجاهد أن يعلم فواز بدران، قائلاً له: أريد أن أُعلّمك تصنيع هذه المادة، فردّ عليه فواز: ماذا تفيد إذا تعلمتُها؟ فقال له: أنت من فلسطين، وسوف يأتي اليوم الذي تستفيد منها، وتستخدمها في فلسطين في جهادكم ضد الاحتلال.

وبعد أن تدرب فواز بدران على تصنيع هذه المادة أخذ من المجاهد الشاب دفتراً يحتوي على طرق لتصنيع عشرات المواد المتفجرة، وبعد استشهاد فواز وصل هذا الدفتر إلى «كتائب القسّام» في نابلس، فاستفادوا منه فائدة كبيرة، وكان هذا من بركة إخلاص هذا المجاهد الذي تعلم في الشيشان، وبركة دم الشهيد فواز بدران.

وكان من آثار ذلك أن العمل العسكري في الضفة الغربية انتقل نقلة نوعية، وانتشر تصنيع هذه المادة المتفجرة فوصل إلى عشرات من المجاهدين ومهندسي «القسّام» في الضفة الغربية، ولئن كنّا نجهل اسمَ هذا المجاهد الشاب الذي تعلم في الشيشان وعلّمَنا، لكن حسبه أن الله يعلَمُه .

تطور في طرق التصنيع

لقد كانت مواد التصنيع في بداية الانتفاضة محدودة ولكن جهود فواز بدران، وقدوم مهندس من الخارج، كان له أثره في تطور تصنيع المواد المتفجرة، بالإضافة إلى عوامل أخرى ساعدت في هذا التطوير، منها:

أولاً: وصول منشورات أمنية وعسكرية، ومنشورات حول تصنيع المتفجرات، والعبوات المخروطية، أو الخارقة للدروع، وقد استُفيد منها كثيراً في التصنيع.

ثانياً: إفراج «السلطة» عن نسيم أبو الروس وجاسرسمارو في شهر أيار عام **٢٠٠١م** من «سجن أريحا»، وقد وصلا إلى نابلس بصعوبة، واستفاد المجاهدون مما لديهما من خبرات ومهارات في التصنيع؛ حيث إنهما كانا قد تدربا على يد المهندس الثاني في «كتائب القسّام» محيي الدين شريف رحمه الله، وهما اللّذان أعدّا العبوات الناسفة التي استعملت في عمليتي «محنيه يهودا» و«بني يهودا» وقتل فيما سبعة وعشرون صهيونيًّا عام **١٩٩٧م**، ثم عمل أيمن حلاوة على تدريب جاسر ونسيم على

بعض الخبرات الجديدة في مجالات الإلكترونيات، والمواد المتفجرة، وصناعة العبوات، مما أضاف خبرات جديدة لطرق التصنيع استفيد منها في المستقبل.

ثالثاً: تدريب جميع المطاردين في محافظة نابلس على التصنيع، وكان عددهم في نابلس وحدها يزيد عن عشرين مطارداً، وكان من بينهم القائد الشيخ يوسف السُّرَكْجيّ.

رابعاً: نقل الخبرة إلى مدن أخرى، ففي بيت لحم تدرب علي علان، ثم نقل خبرته إلى المجاهدين فيها، وفي الخليل تدرب مجدي عمر، وهو الذي صنع بالمشاركة مع علي علان عبوة لعملية استشهادية قتل فيها سبعة عشر صهيونيّاً، وفي رام الله تدرب المهندس عبد الله البرغوثي، وكريم مفارجة، وفي جنين تدرب المهندس قيس عدوان ومحمد جرار.

خامساً: كان لما قام به أيمن حلاوة ـ المهندس الثالث في «كتائب القسام» ـ، ومهند الطاهر ـ المهندس الرابع ـ من تصوير جميع مراحل تصنيع المتفجرات والإلكترونيات بالفيديو، وإعدادها في أقراص مدمجة (ديسك)، ونشرها في مدن الضفة وعلى الإنترنت، أثرُه الكبير في نشر ثقافة التصنيع، والاستفادة منها على نطاق واسع يتجاوز كل القيود المفروضة التي تعيق اللقاء بالمجاهدين، ونقل الخبرات إليهم، وتدريبهم عملياً على التصنيع.

سادساً: استطاع قيس عدوان الاتصال بغزّة، وإحضار تقنيات تصنيع الصواريخ منها، وكنّا نعد العدة سويّاً للبدء بالتصنيع، وذلك قبل اعتقالنا بأسابيع، لكن إرادة الله شاءت أن أُعتقل، ثم واصل قيس عدوان الطريق، واستطاع تصنيع الصواريخ، ومن بعده ناصر الدين عصيدة، ومحمد الحنبلي، غير أن هذا المشروع لم يستمرّ بسبب الضربات القوية التي تعرّضت لها «كتائب القسّام» في الضفة الغربية، والاعتقالات المتواصلة في عام ٢٠٠٢م.

صعوبات ومعوقات

كثيرة هي الصعوبات التي واجهتنا في بدايات عملنا، فمن ذلك:

ضعفُ الخبرة في التصنيع، وهذه المشكلة تغلّبنا عليها تدريجياً بفضل الله تعالى، وقد أوضحت ذلك في فصل خاص تحدثت فيه عن تطور التصنيع، وعن الجهد الجماعي المبذول الذي أوصلنا إلى تخطّي هذه العقبة.

كما أننا عانينا من مشكلة التدريب، وضعف الاطلاع على العلوم الأمنية والعسكرية، فعدمُ وجود كوادر مؤهّلة بشكل مهنيّ، وقلة عدد من يعرف استخدام السلاح بشكل جيد بين أبناء «القسّام» كان عقبة في وجه العمل العسكري في الضفة الغربية .

وكان لضعف الخبرة والثقافة الأمنية، وعدم الاستفادة من التجارب العسكرية والأمنية السابقة أثره في معاناتنا، فمثلاً قضية استخدام الهواتف الجوالة كانت خطأ قاتلاً، وأغلب المعلومات التي حصل عليها العدو كانت من خلال التنصّت على الهواتف النقالة، على الرغم من أننا كنا نستبدل الأجهزة و«الشرائح» كلّ شهر، إلا أن تفوّق العدو تقنياً، وما يمتلكه من وسائل علمية حديثة، كتقنية بصمة الصوت التي كان يستخدمها العدو، وكانت السبب في تعثّر عدد من العمليات، أو عدم وصولها إلى المرجوّ منها.

كما أن استخدام الحواسيب والإنترنت بطريقة غير آمنة كان له أثره السيّئ على العمل، فقد استطاع العدو استعادة معلومات أمنية من الحواسيب أثناء اجتياحات جيش الاحتلال ومداهماته لشقق كنّا نستخدمها، وعلى الرغم من مسح هذه المعلومات من الذاكرة، إلا أن التقنيات المتقدمة التي يمتلكها العدو أتاحت له استرجاع المعلومات المحذوفة.

ومن ذلك أيضاً: عدمُ كفاية الإمكانات المادية، إذ لا يوجد تمويل كافٍ، والسلاح كذلك غير كافٍ، وغير مناسب لمواجهة قدرة الاحتلال العسكرية، والبنية التنظيمية لـ«كتائب القسّام» التي نستند عليها غير كافية، فقد وجهّت «أجهزة السلطة الفلسطينية» ضربات كبيرة لـ«كتائب القسّام» في عاميّ **١٩٩٨**م، و**١٩٩٩**م على مستوى الضفة الغربية.

ومن ذلك: اعتقال «أجهزة السلطة» للقائد محمود أبو هنُّود، ومصادرتها لآلاف اللترات من المواد الكيماوية، ولعدد من قطع السلاح من مجموعات كانت تعمل تحت قيادته في جنين ونابلس.

وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات إلا أننا كنا نمتلك ما هو أهمّ من كل ذلك.. كنا نمتلك الإنسان صاحب العزيمة والإرادة، والاستعداد الكبير للتضحية والفداء، فالإنسان هو الذي يأتي بالإمكانات، ليست الإمكانات أبداً هي من يجمع الأنصار، أو ينظم الصفوف ويبني الأمم، أويُعلي من شأن الحركات الجهادية أو المقاوِمة.

ومن أهم التحديات التي واجهناها: هو الاصطدام مع «الأجهزة الأمنية للسلطة» التي تقوم عقيدتها على ضرب المقاومة، وتفكيكها، وقد كانت الأسباب التي تدعوهم إلى ذلك كثيرة:

فالسبب الأول: هو الاتفاقات الموقعة مع العدو، وهي تنصّ على محاربة المقاومة، وضرب البنية التحتية المسانِدة لها.

والسبب الثاني الذي يدفع «أجهزة السلطة» لملاحقة المقاومة: هو المنافسة السياسية بين حركة «فتح» وحركة «حماس» وحلفائها؛ فنجاح حركات المقاومة يجعلها البديل عن مشروع حركة «فتح»، ومن ثَمّ فإن أيّ نجاح لمشروع المقاومة يعدّ بالنسبة إليهم تهديداً لمشروعهم ومستقبلهم السياسي.

وقد كانت ملاحقة «أجهزة أمن السلطة» تسبب لنا هاجساً مقلقاً، إضافة إلى ملاحقة «أمن الاحتلال»، وهذا الأمر حمَّل «كوادر المقاومة» عبئاً إضافياً، فكان يتوجب عليهم أخذ احتياطات أمنية إضافية؛ حذراً من «السلطة» التي تنسّق أمنياً مع الاحتلال لمنع عمليات المقاومة، وضرب أجهزتها، واعتقال كوادرها .

❊ ❊ ❊

مقرات قسامية
«شقة شارع ١٠»

«شقة شارع ١٠» وما أدراك ما «شقة شارع ١٠».. إنها الجامعة.. والمخبأ.. وغرفة العمليات.. وغرفة الاجتماعات..

هنا كان أبناء «القسّام».. هنا فكروا ودبّروا.. هنا تدرّب الذين أصبحوا قادة.. وشهداء.. وأسرىٰ..

في هذا المكان بدأنا العمل العسكريّ في «انتفاضة الأقصى» في نابلس..

ومنه انطلق أبناء «القسّام»؛ ليذيقوا العدوّ الويلات جزاء جرائمه..

في هذا المكان وقع الشهداء أسماءهم بالدماء.. أيمن حلاوة.. وصلاح دروزة.. وأحمد مرشود[1].. وهاشم النجار.. وضياء الطويل.. وطاهر جرارعة.. ومهند الطاهر.. ونصر الدين عصيدة.. وغيرهم من القادة.

---

(١) ولد بمخيم بلاطة عام **١٩٧٢م** ، وأصله من منطقة نهر العوجا قضاء يافا، ارتاد المساجد منذ نعومة أظفاره، وتلقىٰ تعليمه الابتدائي والإعدادي في مدارس «وكالة الغوث» في مخيم بلاطة، ودرس الثانوية في مدارس حوارة، ثم انتقل ليكمل الثانوية في المدرسة الإسلامية الثانوية بنابلس. التحق بكلية الدعوة وأصول الدين في «جامعة القدس» ـ أبو ديس، ثم أكمل دراسته في «جامعة النجاح». برز في الانتفاضة الأولىٰ، واعتقل عام **١٩٩٣م**، وحكم عليه بالسجن سبع سنوات بسبب نشاطه العسكري، وكان يمثل صوت الحركة الأسيرة في السجون. عمل بعد تحرره في وزارة الأسرىٰ. تزوج قبل استشهاده بأربع شهور بشقيقة القائد عبد الناصر عيسىٰ. اتهمه الاحتلال بقيادة الجناح العسكري، واغتاله في صباح **١٥/ ١٠/ ٢٠٠١م**.

هنا جرىٰ تصوير أوائل الاستشهاديين..

ومن هنا خرج هاشم النجار وضياء الطويل..

ومن هنا عاد «القسّام».. وفي هذا المكان أُعيد البناء.. وبدأت عمليات الردّ والانتقام.

من هنا تغيّرت المعادلة.. فلم نعُدْ نستقبل شهداءنا، بل قتيل بقتيل، والأشلاء زيادة.

لو تكلمت هذه الشقة لقالت كلمة واحدة: «القسّام».. «القسّام».. «القسّام»..

لو قُدّر لها أن تقول لقالت: أنا شقة الشهداء والأسرىٰ.. وعلىٰ أرضي نسجت قصص الشهادة والشهداء..

أنا شقة «أم العبد».. و«أم يحيىٰ».. و«القسّام ١٩»..

بين جنباتي تعلّم الأبطال صنع الأحزمة الناسفة.. وبين أحضاني تعلّم من أعدّ العبوات الناسفة في «سبارو»، و«الدلفناريوم»، و«البارك»، و«تل أبيب»، و«ميحولا».

بداية الطريق

تقع «شقة شارع ١٠» في منطقة رأس العين، قرب مسجد طارق بن زياد، وتستحوذ علىٰ مساحة الطابق الأرضي لإحدىٰ العمارات التي لم يخطر ببال صاحبها عند بنائها أنها ستصبح يوماً ما من أشهر بيوت فلسطين.

كان موقع الشقة متميزاً من الناحية الأمنية؛ لاحتوائها علىٰ مدخل مستقل، بالإضافة إلىٰ المدخل الرئيس للعمارة، وهذا ما جعل أبناء «القسّام» يختارونها، وكان حسن اختيارنا لهذه الشقة بتوفيق من الله سبحانه وتعالىٰ أولاً، ثم نتيجة الدقة في التخطيط والإعداد.

فهذه أصوات المؤذنين تُجلجل بين جدرانها صباح مساء، والنسمات العليلة تداعب أوراق الأشجار التي حفّت مدخل هذه الشقة المباركة، وكأنها جنود تحرسنا من عيون الغادرين، وتربّص المتربّصين، وقد كان المجاهدون يشعرون بالأحجار والجدران كأنها جنود من جنود الله تعالى، ترقب المجاهدين، وتبثّ السكينة في قلوبهم.

كان المدخل الثاني للشقة يجعل حركة المجاهدين سهلة في الدخول والخروج، فاللقاءات كانت تعقد فيها، ثم أضحت بديلاً عن أماكن الاجتماعات الأخرى التي كانت تعقد سابقاً في الشارع، أو المتنزّهات، أو المقاهي.

كانت الغاية من وجود هذه الشقة أول الأمر هي إجراء تجارب التفجير عن بُعد، وتجارب تركيب مواد كيماوية بكميات محدودة، بالإضافة إلى اللقاءات والاجتماعات الجهادية، ثم تطور الأمر فأصبحت فيما بعد تُستخدم لتحضير عبوات أرسلت إلى بعض الأهداف الصهيونية موقّعة باسم «شقة شارع ١٠»، وعليها بصماتُ أيمن حلاوة، فقد كان لقنابله طعم وحلاوة خاصة.

تمويه الأهداف

استأجرتُ هذه الشقة بحجّة أنني طالب في «جامعة النجاح»، ولا تتيسّر لي العودة إلى بلدتي برقة؛ بسبب إغلاق الاحتلال للشوارع والطرقات، وكنت أحياناً أُظهر أنني أسكن فيها مع عدد من الطلاب، غير أنهم في الحقيقة شبان معرّضون للملاحقة من الاحتلال، مثل مهند الطاهر، وطاهر جرارعة.

مسيرة الشقة الجهادية

في الأيام الأولى كنا نلتقي مع أيمن حلاوة ومهند الطاهر، وكان ينام فيها أحياناً عدد من المطاردين، وفيما بعد وقّع الاستشهادي ضياء الطويل اسمَهُ في قائمة الشرف، وفيها صوّر، وكتب وصيته، ونام ليلته الأخيرة.

وفيها صنع أيمن العبوة التي فجّرها زيد الكيلاني، وكان ثمرتها قتلَ صهيونيّ، وجرح تسعة آخرين في وادي عارة، وصُنعت عبوات أخرىٰ لم يكن لها نتائج، ولم تحقق الإصابات المرجوّة؛ إذ إنها كانت حينئذ في طور التجريب.

ثم إن مهندساً جاء من الخارج، فاستقبله صلاح دروزة، وأوصله لأيمن حلاوة، وكان ذلك المهندس يحمل معه رسائلَ من الخارج، ونشرات أمنية، ودوائر كهربائية، فعمل علىٰ تدريب أيمن علىٰ تصنيع مادة «نيتروجلايكول»، و«أم العبد» المذابة في مادة مخدر «الكلوروفورم» من أجل زيادة قوتها إلىٰ «١,٣٥» من قوة «TNT».

وقام كذلك بتدريبه علىٰ العبوات الجانبية المضادّة للمركبات، والعبوات التلفزيونية، وتفخيخ السيارات، ودرّبه أيضاً علىٰ صناعة دائرة «٧» المختصة بالتفجير عن بُعْد باستخدام الهاتف الجوال.

وقد أمضىٰ أيمن حلاوة ثلاثة أشهر وهو يجري تجاربه علىٰ الدوائر الكهربائية؛ لأن التصاميم التي أُحضرت من الخارج لا يتوفر بين أيدينا كثير من القطع الإلكترونية التي تكوّنها؛ فالاحتلال يمنع بيعها في أسواق فلسطين؛ لأسباب أمنية، وكان ذلك عائقاً في تنفيذها كما جاءت، وعلىٰ الرغم من ذلك فقد استطاع أيمن ابتكار دائرة كهربائية للتفجير عن بُعْد عن طريق ريموت الأبواب.

في هذا المكان تدرّب وتخرّج مهندسو «القسّام»، ومنه انطلق خبراء التصنيع، ومنهم:

١- القائد ناصر نزال من قلقيلية، وقد تدرّب في هذه الشقة علىٰ تصنيع «أم العبد»، والعبوات الجانبية والتلفزيونية علىٰ يد المهندس أيمن حلاوة.

٢- القائد عبد الله البرغوثي من بيت ريما «رام الله»، الذي وقف خلف الكثير من العمليات التي أوجعت الكيان الصهيوني، وانتقم منه العدو فحكم عليه بأعلى حكم في تاريخ السجون الصهيونية، وهو (٦٧) مؤبَّداً، ورفض الإفراج عنه في صفقة وفاء الأحرار.

وقد تدرّب عبد الله كذلك على يد المهندس أيمن على تصنيع مادة «أم العبد» المذابة بـ«الكلوروفورم»، وقد ظلَّ عبد الله يستخدمها حتى اعتقاله، ونقل ما تعلّمه من أيمن إلى عدد من أبناء مهندسي «القسّام» في رام الله.

وإلى هذا المكان المبارك أيضاً حضر القائد بلال البرغوثيّ، وعقد لقاءات واجتماعات مع القائد أيمن حلاوة بعد تنظيمه لمجموعه «سبارو»، وهنا تسلّم مواد كيماوية، ومادة «أم العبد» التي استخدمها في تنفيذ عملية «سبارو» فيما بَعْد، ونقلها إلى رام الله.

وهنا تدرب أيضاً مهند الطاهر وطاهر جرارعة، وقد استمرّ العمل في هذه الشقة قرابةَ المئتي يوم، وقد كانت أياماً حافلة بالعمل والجهاد والتضحيات.

الانفجار المدوّي

كان أيمن حلاوة يصنع مادة «أم العبد» مذابة بـ«الكلوروفورم»، وبعد إفراغ هذه المادة في عبوة بقي جزء منها في وعاء بلاستيكي كبير، وبعد جفافها صارت حسّاسة لأي حركة، وعندما حرّكها انفجرت انفجاراً قوياً أدىٰ إلىٰ ارتفاعه في الهواء، وارتطامه بسقف الغرفة، فأصيب إصابات بالغة، وتطايرت الأبواب والجدران والنوافذ، وكان ذلك بعد مغادرتي الشقة بدقائق، وابتعادي عن المكان قرابة ٣٠٠ متر.

اتصلت هاتفياً بأيمن حلاوة، فلم يُجِبْ علىٰ الاتصال، ولم أستطيع العودة حينها، فتوجهت إلىٰ أحمد مرشود، وأبلغته بالحادثة، فتوجّه مع صلاح دروزة مباشرة إلىٰ المكان لمتابعة الحادثة، وطلب منّي الاختفاء عن الأنظار أياماً عدة حتىٰ تسوّىٰ الأمور مع «أجهزة السلطة» التي كانت تبحث عني بغية اعتقالي بعد أن عثرت علىٰ مواد متفجّرة، ودوائر كهربائية، وقطعة سلاح.

وبسبب هذا الانفجار وضعَنا الاحتلال ـ أنا وأيمن ـ علىٰ رأس قائمة المطلوبين في نابلس، فازدادت ملاحقتنا، وكثرت متابعة العيون لنا بعد هذه الحادثة، وكان من الإيجابيات أننا أصبحنا بعد هذا الانفجار عناوين للمقاومة ويتوجه إلينا من يريد العمل.

بعد تهدئة صلاح دروزة وأحمد مرشود للأمور مع «أجهزة أمن السلطة» طلب أحمد لقائي، وقال لي: إن عليّ أن أقابل كلّاً من جمال منصور[1] وصلاح دروزة، وأنه

(١) من مؤسسي حركة حماس وأحد كبار رجالاتها. ولد بمخيم بلاطة عام ١٩٦٠م. أُبعد عام ١٩٩٢م إلىٰ مرج الزهور. اعتقلته «السلطة» عدة مرات، أطلق سراحه من آخرها عام ٢٠٠٠م بسبب انطلاق انتفاضة الأقصى. من إنجازاته: تأسيس «الكتلة الإسلامية» بجامعة النجاح، وتأسيس عدد من المؤسسات الخيرية والعلمية. وله مؤلفاتٌ منها: «التحول الديمقراطي الفلسطيني في وجهة نظر إسلامية»، و«أجنحة المكر الثلاثة». كان صاحب رؤية سياسية عميقة، وبعدٍ في التفكير. اغتيل في ٣١/ ٧/ ٢٠٠١م إثر قصف طائرات الاحتلال الصهيوني للمركز الفلسطيني للدراسات والإعلام.

يجب عليّ كتابة تقرير أوضح فيه ملابسات ما جرىٰ، وما وصل إليه العمل العسكري.

ذهبت معه إلىٰ وادي التفاح في نابلس حيث كان يسكنُ القائد صلاح دروزة، والتقينا به هناك، غير أن جمال منصور قد تغيّب عن اللقاء، وقصصتُ علىٰ صلاح دروزة كيف حدث الانفجار، وبيّنتُ له أن ما جرىٰ لا يعدو كونه حادث عمل، وليس في الأمر حادثة مدبّرة لاغتيالنا، ثم قدمت له تقريراً عن العمل العسكريّ الذي أشرف عليه مع أيمن.

لم تفُتّ هذه الحادثة في عزيمة أيمن حلاوة، ولم تَنَلْ من إصراره علىٰ متابعة الطريق أياً كانت العقبات التي تعترضه، فأرسل علىٰ إثر هذه الواقعة رسالة إلىٰ كل مجاهد من أبناء «القسّام» فحواها: إننا سنحمي هذة الدعوة و«الحركة» بأرواحنا ودمائنا علىٰ الرغم من كل الظروف والصعاب.

وأصرّ رحمه الله علىٰ أن يأخذ بعض الأوراق والأقراص المدمجة «الدسكات» الخاصة بالعمل، متحاملاً علىٰ جراحه، متناسياً إصابته البليغة في الحادثة، ويعطيها لأحد شباب «الحركة»، وكأنه لا يريد أن يدخل في غيبوبة قبل أن يطمئن علىٰ سير العمل بشكل يضمن المتابعة من بعده، فما إن نفذ ما يريده، واطمأن إلىٰ إيصال المعلومات إلىٰ أهلها حتىٰ فقد وعيه، وأغمي عليه.

وأثناء وجوده في المستشفىٰ أدرك بعض الأطباء والممرضين أنهم أمام رجلٍ ليس كبقية الرجال، أحسّوا أنهم يقفون أمام رجلٍ يمكن وصفه بأنه من أهل الله، روحُه كأنها متصلة بالملأ الأعلىٰ، فذكر الله تعالىٰ لم يكن يفارقه طيلة مدة فقدانه للوعي، لدرجة أن الذّهول أصاب كلّ مَنْ حضر إلىٰ جانبه.

أمّا تلكم الشقة المباركة فقد أُغلق بابُها، وأُصلحت جدرانُها، ولكنها باتت تخفي بين جنباتها الكثير من أسرار المجاهدين، وذكريات الشهداء الذين فارقوا هذه الدنيا، وانتقلوا منها إلىٰ ما أعد الله لهم في مستقرّ رحمته.

فمنها انطلق روّاد الاستشهاديّين في انتفاضة الأقصى؛ هاشم النجار وضياء الطويل، وبين أحضانها تربى استشهاديّون كثر، منهم زياد الخليلي منفّذ عملية «الحمرا»، وإبراهيم هواش «رجل المهمات الصعبة»، وتحت سقفها تعلموا قراءة القرآن، وتلقّوا النصائح التربوية، وحضروا إفطارات رمضان التي جمعتهم بإخوانهم ممن ساروا معهم على درب الشهادة، وفيها وقفوا بين يدي ربهم قائمين قانتين يحيون الليالي المظلمة؛ لينشروا نور الجهاد والحق في ربوع أرض الإسلام فلسطين.

فيها كان أول مركز لتدريب «مهندسي الموت» من أبناء «القسّام» في نابلس، الذين أوصلوا أسباب الموت إلى العدو في انتفاضة الأقصى بنابلس.

ولو أن العدو عرف شيئاً من أسرار هذه الشقة لأعلن حالة النفير العام بين «أجهزته الأمنية» كلما فتح بابها أو أُغلق، وقد فعلوا بعد أن علموا فدمّروا واغتالوا.

يقول الشاعر:

أمـرُّ علـى الـديـار ديـارِ ليلى   أُقبّـلُ ذا الجـدارَ وذا الجـدارا
وما حـبُّ الديـار شـغفْنَ قلبي   ولكـن حبُّ مَـنْ سـكَنَ الديارا

هذه الشقة لا تختلف عن غيرها من الشقق إذا ما نظرنا إلى البناء والجدران، ولكن الذكريات التي احتضنتها جعلتها ليست كبقية الشقق، فالحوادث التي جرت فيها، والشهداء والأسرى الذين عاشوا بين جنباتها جعلوا بين أيدينا قوة تردع العدوّ الصهيوني، وتكبح جماح شهوته للقتل المجاني، فأضحى يحسب للمقاومة ألف حساب بعد أن كان لا يكترث بما يفعله بأبناء شعبنا المستضعف.

هذه الحوادث التي سردتُها أردتُ أن أُخلد من خلالها جزءاً من ذكريات أبناء «القسّام» في هذا المكان، فالناس ترتفع هممهم، وتسمو نفوسهم بالحديث عن العظماء.

الشهيد عبد الرحمن حمّاد
وعملية «الدلفناريوم»

التحق القائد عبد الرحمن حمّاد الملقب «الكرز» بركب الدعوة وهو في سن السادسة عشر، واعتقلته قوات الاحتلال، وأبعد إلى مرج الزهور، وبعد عودته إلى الوطن وزواجه اعتقل ثانية، وأمضى في سجونهم ست سنوات.

شاءت إرادة الله أن أعتقل عام **١٩٩٤م**، وأن ألتقي به في السجن ، وقد عشت معه في الغرفة نفسها في «سجن مجدو»، ثم التقينا مرة أخرى في «سجن عسقلان» عام **١٩٩٩م**.

هذا الشهيد القسّامي لم يكن شخصاً عادياً، فقد كان يتمتع بشخصية قوية جداً، و«كاريزما» قيادية، وقدرة على التأثير في الآخرين، ذا شجاعة وشدة وبأس وصلابة،

يجمع في شخصيته إضافة إلى ذلك خفّة الظل، وروح المرح والدعابة، ومع ذلك كان قوّاماً، دائم الاستغفار والتسبيح، يعشق الجهاد في سبيل الله، ويحب الشباب المتعطّش للجهاد، والمندفع نحو المقاومة.

وقد توطّدت علاقتي به مع مرور الوقت، فكان يُحدّثني عن تجربة جهاده في قلقيلية أثناء الانتفاضة الأولى، ويروي لي ذكرياته مع الشهيد صالح صوي[1] منفّذ عملية «ديزنكوف سنتر».

كنّا نتبادل الحديث حول العمل الجهادي، وضرورة العمل لتحرير الأسرى إذا ما أُفرج عنّا، وقد شاءت إرادة الله أن أخرج من سجون الاحتلال قبل أن يُفرَج عنه بشهور.

ومع بداية انتفاضة الأقصى بدأت العمل مع أيمن حلاوة، وبعد انضمامي للعمل أُفرج عن عبد الرحمن حمّاد، وكان قد مضى عدة أشهر على خروجي من السجن، وحين علمتُ بالإفراج عنه اتصلت به، وذهبت لزيارته، فوجدت عنده اندفاعاً وتحمّساً للجهاد، ورغبة قوية في العمل لتحرير الأسرى، حينها أعلمتُه أنني أعمل في صفوف «كتائب القسّام»، وبإمكاننا أن نوحّد الجهود المبذولة، خاصة فيما يتعلق بالتخطيط والعمل على خطف جنود من الصهاينة، ذلك أن موقع قلقيلية القريب من الأراضي المحتلة عام **١٩٤٨م** يساعدنا على تنفيذ ذلك، ويُيسّر لنا ما نَصْبو إليه.

---

(١) ولد في قلقيلية عام **١٩٦٧**، وعاش بين عشرة من الإخوة والاخوات، أنهى دراسته الثانوية عام **١٩٨٧**، والتحق بمعهد قلقيلية الشرعي، وارتاد المساجد منذ صغره وخاصة مسجد ابن تيمية الذي ترعرع فيه، وكان يداوم على حفظ القرآن والمطالعة. ثم ترك الدراسة، وعمل في الزراعة، وفي أحد المخابز. انضم إلى «الإخوان المسلمين» في منتصف الثمانينات، والتحق بصفوف «حماس» منذ انطلاقتها، اعتقل أكثر من سبع مرات تعرض خلالها للتحقيق، واستشهد بتاريخ **١٩/ ٤/ ١٩٩٤**، وذلك بعد تفجير جسده الطاهر في حافلة ركاب بإشراف المهندس يحيى عياش، وقد أسفرت عمليته عن مقتل اثنين وعشرين صهيونياً، وجرح العشرات.

ومن تيسير الله سبحانه لنا أن عبد الرحمن حمّاد كانت له علاقات واسعة مع مجموعة من الشبان من أبناء قلقيلية كانوا يخطفون سيارات من العدوّ داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨م، وخبرتهم هذه ستنفعنا كثيراً، وتُمكّننا من توصيل الاستشهاديين، وخطف الجنود.

وبعد أن وافق رحمه الله على التعاون وتنسيق العمل بيننا في هذا المجال عدتُ إلى نابلس، والتقيت بالقائد أيمن حلاوة، شرحت الفكرة، فوافق عليها، وزوّدني بالمال، والمخدّر، والمسدّس، ثم اشتريت مسدّسين آخَرَين، وسلّمتهما لعبد الرحمن ليبدأ العمل على خطف الجنود.

ثم توالت اللقاءات بيننا، وطلب مني أن نُدرّب له أحد الإخوة ممن يعملون معه في قلقيلية على تصنيع المتفجرات، والإلكترونيات، والعبوات الناسفة، ووقع الاختيار على ناصر نزال ليتدرب واتفقت مع أيمن حلاوة على أن ألتقي به مع ناصر نزّال، وكان اللقاء في شقة في «شارع ١٠»، فدربه أيمن على بعض المواد، ما أضاف إلى خبرته السابقة في التصنيع وتجهيز العبوات أشياء جديدة، ثم إنّنا زوّدناهم بالمال والمواد الكيماوية لتصنيع المتفجرات.

أخطاء قارنت النجاح

شأننا شأن أي إنسان يعمل ويخطئ، اقترن بعملنا عدة أخطاء، كان من ضمنها إقحامُ هؤلاء الإخوة في التجهيز للعمليات الاستشهادية، على الرغم من أنّ الهدف من تنسيق العمل معهم هو أن يتخصّصوا بالخطف لتحرير الأسرى، خاصة وأنّ عبد الرحمن حمّاد كان يتوق إلى هذا العمل، وأذكر أنه قال لي في إحدى زياراتي له: إنه وضع صورة الأسير أبو السكر ـ وهو أقدم أسير في ذلك الوقت ـ في مكان ظاهر من البيت؛ كي لا ينسى قضية تحرير الأسرى.

إن تسارع الأحداث، واندفاع النفوس المتوثبة للانتقام من الأعداء، ودخولنا في دائرة ردة الفعل على عمليات اغتيال القادة والجرائم الصهيونية ضد شعبنا، كان سبباً في الانشغال بعمليات أقل أهمية مما ينبغي التخطيط له، لذلك كان لابد من التركيز على تنفيذ العمليات الاستشهادية القوية، وضرب العدو في العمق.

وعلى الرغم من أنّ عبد الرحمن حمّاد كان متردداً بادئ الأمر في تغيير مسار العمل من خطف جنود إلى تنفيذ عمليات استشهادية، إلا أنني تحدثت معه حول ضرورة ذلك، فأخبرني أنه يفكر في إرسال سعيد الحوتري لتنفيذ عملية استشهادية؛ لأنه يحمل الهوية الأردنية، وبعد أيام قليلة، وبتاريخ ١/ ٦/ ٢٠٠١م تم تنفيذ هذه العملية الاستشهادية وعرفت بعملية «الدلفناريوم» وكانت من أقوى العمليات منذ بداية انتفاضة الأقصى حتى تاريخ تنفيذها؛ فقد زلزلت العدو، وهزت كيانه، ونالت من هيبته.

غير أن هذه العملية ذاتها كانت إحدى الأسباب في انكشاف أمرنا، بالإضافة إلى اعتقال مجاهد في الطريق بين نابلس وقلقيلية كان يحمل رسالة موجّهة إليّ من عبد الرحمن حمّاد، وكان فيها بعض التفاصيل عن العملية، وقد ضبطت هذه الرسالة على يد المخابرات الصهيونية.

ومن الأسباب التي أدت إلى كشف أمرنا أيضاً: استخدامنا للهواتف الجوّالة، وقد قام سائق السيارة التي أوصلت الاستشهادي سعيد الحوتري إلى موقع التنفيذ بتسليم نفسه لقوات الاحتلال، وعندئذ اعترف بأنس أبو عبلة الذي استأجره لتوصيل سعيد، وجرى التنسيق الأمنيّ بين «السلطة» والعدو، واعتقل أنس من قِبل «الأمن الوقائي» في قلقيلية، ومن بعده اعتقل عبد الرحمن حمّاد أيضاً.

وقد فوجئنا في شهر ٨ بنشر الصهاينة لأسمائنا وصورنا في صحيفتي «يديعوت أحرونوت»، و«معاريف» الصهيونيتين، وحديثهم فيهما عن مسؤوليتنا عن عمليات عدة من ضمنها عملية «الدلفناريوم»، ولم يكتفوا بذلك، بل رسموا بنية تنظيمية لـ«كتائب القسّام» على مستوى شمال الضفة الغربية، ونشروا صوراً لعدد من الكوادر والقيادات لـ«كتائب القسّام» في الشمال، أذكر منهم: أيمن حلاوة، وإلى جانبه اسمي وصورتي، وعبد الرحمن حمّاد، وناصر نزّال، ونسيم أبو الروس، وجاسر سمارو، وقيس عدوان، وبلال البرغوثي، وعبد الله البرغوثي، ومهند الطاهر، وغيرهم من الأسماء، وقد كان جزء من تقديرهم لهذه البنية صحيحاً، والجزء الآخر خطأً، وجُلُّ من ذكرتُ أسماءهم كانوا من المطلوبين.

المخطط التنظيمي الذي نشرته صحيفة معاريف

أما عملية «الدلفناريوم»، فقد كانت المسؤولية الأولى فيها تقع على عاتق عبد الرحمن حمّاد، إذ إن دوره فيها كان مركزياً، وجاء في ملف القضايا ولائحة الاتهام أن أيمن حلاوة وعبد الرحمن حمّاد جرت بينهما مراسلات تتعلق بالحزام الناسف، وأنه أُرسل من نابلس إلى قلقيلية.

وهنالك رواية أخرى: هي أن ناصر نزّال هو من صنع الحزام الناسف، إلا أنه نفى هذه التهمة أثناء تحقيق المخابرات الصهيونية معه.

اغتيال القائد

بعد هذه العملية البطولية بشهرين، وبعد كشف من قام بهذه العملية، اغتيل عبد الرحمن حمّاد يوم ١٤/ ١٠/ ٢٠٠١ وهو جالس على سطح منزله بعد صلاة الفجر برصاص قناص صهيونيّ، وقد كان رحمه الله يذكر الله سبحانه وتعالى يومياً على سطح المنزل بعد الصلاة مباشرة، فرصدته قوات الاحتلال عن طريق أحد العملاء، وحدد مكانه، ثم أبلغ المخابرات عنه، وقد اعتقلت أجهزة «السلطة» هذا العميل، ثم هرب ولجأ إلى العدو الصهيونيّ في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨م.

وبعد استشهاد القائد عبد الرحمن حمّاد تسلّم نائبه ناصر نزّال قيادة «كتائب القسّام» في قلقيلية.

وبتاريخ ١٠/ ٤/ ٢٠٠٢م نفّذ محمود الشولي، وهو من أبناء قرية عصيرة الشمالية عملية استشهادية في حاجز عسكريٍّ على مدخل مدينة قلقيلية رداً على اجتياح مدن الضفة ومخيم جنين، وانتقاماً للمجازر التي ارتُكبت فيها، وقد أسفرت هذه العملية عن جرح سبعة عشر جندياً صهيونياً.

وبتاريخ ١٠/ ١٠/ ٢٠٠٢م نفّذ رفيق حمّـاد[١] من مدينة قلقيلية عملية استشهادية أخرىٰ في «تل أبيب» بالقرب من «جامعة بار إيلان» رداً علىٰ اغتيال القائد العام لـ«كتائب القسّام» صلاح شحادة، وكان من ثمارها قتل صهيونية، وجرح العشرات معظمهم في حالة خطرة.

وبعد مطاردة طويلة للقائد ناصر نزّال استمرت سنتين جرت مداهمة أحد المنازل في مدينة قلقيلية، وعلىٰ إثرها اعتقل كل من ناصر نزّال، قائد «كتائب القسّام» في قلقيلية، والقائد طلال شريم الباز، وحُكم علىٰ ناصر نزّال بمؤبدَين إضافة إلىٰ ثلاثين عاماً، وحُكم علىٰ طلال شريم الباز بالسجن لمدة عشرين عاماً.

وبعد اعتقال ناصر نزال تولىٰ رائد الحوتري القيادةَ في قلقيلية، وبناء علىٰ لوائح الاتهام وُجّهت له تهمة تجنيد سعيد الحوتري، وقد أنكر هذا الاتهام الموجّه له، ومع ذلك حكم عليه بواحد وعشرين مؤبداً.

وقد أُفرج عن ناصر وطلال بحمد الله في صفقة وفاء الأحرار، وذلك بعد قضاء تسع سنوات في سجون الاحتلال الصهيوني، ولكن رائد مازال في الاعتقال.

❊ ❊ ❊

(١) ولد عام ١٩٧١م، والتحق بركب الانتفاضة الأولىٰ، واعتقل في سجون الاحتلال ثلاثين شهراً، أدىٰ العمرة في عام ١٩٨٨م. كان أحد الدعاة في منطقته، تزوّج ورُزق بأربعة أطفال.

بلال البرغوثي

قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجلَ يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان»[1].

إنها بداية الحكاية مع مجاهدنا بلال البرغوثيّ المولود بمدينة الكويت في شهر كانون الأول من عام **١٩٧٦**م، وفي مساجدها لقي التربية والعناية، واستقىٰ من معين القرآن في «مسجد عبد الله القويان» بمدينة الجهراء، وهناك صُقلت شخصيتُه، وكان لوالده الفاضل الدور الرئيسيّ في ذلك؛ ومنذ نعومة أظفاره تعلّق قلبه بالمساجد، وتربىٰ علىٰ حبِّ الدين، وعشق فلسطين والأقصى.

وبعد غزو صدام حسين للكويت عام **١٩٩٠**م، تركت عائلته الكويت، ليستقر بهم المقام في فلسطين، ويتحقق بذلك حلم هذا المجاهد بالعودة إلىٰ أرض الوطن.

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (**٣٠٩٣**) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: هذا حديث غريب حسن.

كانت فلسطين مستقرة في أعماق قلبه، فعلىٰ حبها تربّىٰ، وعلىٰ التضحيات من أجلها نشأ، ولذلك لم يستطع هذا المجاهد صاحب النفس الأبية إلا أن يشارك أطفال الحجارة انتفاضتهم.

وعلىٰ الرغم من حداثة سنه إلا أنه التحق بصفوف حركة المقاومة الإسلامية «حماس» عام **١٩٩٢**م؛ ليكون واحداً من سواعدها الرامية، وليشارك في وضع المتاريس، ونصب الكمائن للدوريات العسكرية، والكتابة علىٰ الجدران، وإلقاء البيانات الخاصة بحركة «حماس».

وفي ذكرىٰ إحراق المسجد الأقصى عام **١٩٩٤**م، قاد المجاهد مع جماعة من إخوانه مواجهات عنيفة مع قوات الاحتلال في مدينة رام الله، وبعد ثلاث ساعات من المواجهات العنيفة، استطاعت وحدة خاصة من قوات الاحتلال إصابتَه بثلاث أعيرة نارية، فأُصيبت معدته، وتسبب ذلك باستئصال الكلية، واستئصال جزء من الكبد، ولولا لطفُ الله سبحانه وتعالىٰ، وتيسيرُه سبحانه لنقله بسرعة إلىٰ المستشفىٰ لارتقىٰ هذا المجاهد شهيداً.

مكث بلال في المستشفىٰ شهراً ونصف الشهر تقريباً، وبعد خروجه بأسبوعين اعتقلته قوات الاحتلال؛ ليخوض معركة جديدة مع «أجهزة الشاباك» الصهيونية، وعلىٰ الرغم من وضعه الصحي الصعب، وحداثة سنه في ذلك الوقت، إلا أن «أجهزة الشاباك» في «سجن الفارعة» لم تتردّد في تعذيبه أشد أنواع التعذيب، من شَبْح، وضرب، وتقييد.

ولم تُفلح كلُّ تلك الأفعال الإجرامية في النَّيل من عزيمته، فكان كالجبل صامداً أثناء التحقيق معه، ولم يستطع المحققون انتزاع أيّ اعتراف منه، وبعد شهر من الاعتقال، وبفضل الله أولاً، ثم بصبره وإيمانه وإرادته الصلبة، أُفرج عنه مرفوعَ

الرأس؛ ليحقق بذلك انتصاراً آخر على هذا الكيان الصهيوني الغاصب، لقد كان بحقٍّ مثالاً للمجاهد الصابر المحتسب، فإرادة الله الغالبة هي التي أبقته على قيد الحياة على الرغم من إصابته الشديدة، وما لاقاه من قساوة وعنف طيلة مدة الاعتقال.

وبعد خروجه من السجن أعدّ مجاهدنا نفسَه لمرحله جهادية أخرى تختلف عما سبقها من المراحل، وانطلاقاً من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن على ثغرة من ثغور الإسلام» بدأ مجاهدنا يُعدّ نفسه للمرحلة الجهادية القادمة.

وأثناء دراسته في «جامعة بير زيت» منذ عام **١٩٩٦** م، وطيلة السنوات الدراسية الأربع، استطاع أن يُكوِّن علاقات اجتماعية واسعة، وأن يطّلع على الكثير من التجارب الجهادية، ويتعرف على أهم الأخطاء التي كانت تقع فيها المجموعات العسكرية، وقد ساعدته التجربة الأمنية التي خاضها، وما وقع فيه من أسر الاعتقال، ساعده ذلك كله على التمويه، وتضليل أجهزة «السلطة» و«الشاباك».

هذه الخبرة جعلته ينتقي العاملين معه من خارج الدوائر المعروفة في حركة «حماس»، وأصبح لديه قدرة عالية على تجنيد المجاهدين، وتشكيل الخلايا وفق المواصفات الأمنية المطلوبة.

عبد الله البرغوثيّ وانضواؤه تحت لواء الحركة:

في شهر كانون الأول من عام **٢٠٠٠** م توجّه عبد الله البرغوثيّ إلى بلال، وطلب منه العمل في صفوف حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، وعلى وجه الخصوص ضمن «كتائب الشهيد عز الدين القسّام»، فقد كان بلال من النشطاء البارزين في الحركة، فأجابه بأنه لا علاقة له بهذا العمل، وعلم عبد الله بأن هذا الجواب هو احتياط أمنيٌّ، فأجابه بقوله: «إني مدرّب على استعمال السلاح الرشاش، ولديّ خبرة في عمل دوائر

إلكترونية، وما أُريده منك هو أن تُرسل إليّ مواد متفجرة»، ولكن بلالاً أوهَمَ عبد الله بأنه ليس له علاقة بالعمل العسكري، ثم وافق على انضمامه إلى «كتائب القسّام»، ومما جعله يوافق أن عبد الله البرغوثي كان بعيداً عن الشبهات، ولا أحد يعلم بأنه له أيّة صلة بـ«حماس» أو غيرها من التنظيمات.

تشكيل «مجموعة سبارو» وعلاقتي ببلال

لم يكن تشكيل هذه المجموعة المتميزة مخطّطاً له سابقاً، وإنّما جاء بتقدير الله تعالى، ففي أحد اللّقاءات مع القائد أيمن حلاوة ذكر لي أنّه بصدد تنفيذ عملية في القدس، وأنّه بحاجة لاستشهاديٍّ من نابلس، فاقترحتُ عليه أن يكون الاستشهاديُّ من رام الله؛ لاعتباراتٍ أمنية، وذلك لصرف نظر العدو بعيداً عن نابلس، فوافق على هذا الرأي، وبدأتُ مهمّة البحث عن الاستشهاديّ.

في وسط مدينة رام الله، وعند محل حلويات «إيفل» كان اللّقاء الأول مع بلال البرغوثيّ، فعرضتُ عليه الأمر، فأبدى استعداده لتنفيذ العملية، وأثناء الحوار قال لي: إنّه يعرف شخصاً عنده رغبة واستعداد للعمل، هو عبد الله البرغوثيّ، وهو يمتلك قدرات جيدة، فقد درس الإلكترونيات، وتدرَّب في الخارج على أنواع مختلفة من الأسلحة، ولا توجد شكوك حول انتمائه لحركة «حماس»، وصفحته الأمنية عند «أجهزة أمن العدو» خالية من المشاكل، إضافة إلى أنه لا يحمل الجنسيّة الفلسطينية، ويعيش في الضفة الغربية مستفيداً من بطاقة شخص آخر، كما يمكن الاستفادة منه في العمل الجهاديّ.

وأخبرني بلال كذلك أنّ بإمكانه تجنيد استشهاديّ لتنفيذ العملية، وتجنيد آخرين للعمل في المجموعة.

اقتنعت حينئذٍ بفكرته، وعُدتُ شمالاً إلى نابلس لألتقي مجدداً بالقائد أيمن حلاوة، فطرحتُ عليه أفكار بلال، فوافق، وباشرنا العمل.

عملية التلة الفرنسية

قام بلال بتجنيد الاستشهاديّ البطل ضياء الطويل[١]، وأحضره إلى نابلس، وجمعني به، لأوصله إلى القائد أيمن حلاوة، فنقلته إلى «شقة شارع عشرة» بنابلس.

وأثناء وجودنا في الشّقة دار بيني وبين ضياء الطويل حديث امتدّ لساعات طويلة، شعرتُ خلاله بأنّني أمام شخصيةٍ ملائكيةٍ، فقد كان شاباً ملتزماً، عنده روحانيةٌ عاليةٌ، ونفسيّة صافيةٌ نقية شفّافة، وكان محور تفكيره رضا الله تعالى، ودخول الجنّة، ولأن أمر الشهادة كان يشغل حيزاً كبيراً من تفكيره، فقد تحدث طويلاً عن الشهادة والشهداء، وقلتُ له أثناء حوارنا: «أنتم الشهداء ـ أو الاستشهاديّون ـ الحلقة الأهم، والعنصر الأهم في العمل الجهادي»، فقال لي رحمه الله: «لا، بل أنتم الأهم؛ لأنكم أنتم من تصنعون الشهداء».

ذهبنا سوية إلى سوق نابلس، وتجولنا بين شوارعها وأزقتها؛ لنشتري أغراضاً وملابس مناسبة له؛ لاستخدامها في تنفيذ العملية، وقلتُ له: «ماذا تحبُّ أنْ أشتريَ لكَ من طعامٍ أو فواكه؟»، ومررنا برجل يبيع التّوت، فقلتُ له: «ما رأيك أنْ أشتريَ لك توتاً، أو أيّ شيءٍ تشتهيهِ نفسُك؟»، فقال لي: «أريدُ أنْ آكلَ من توتِ الجنّة»، فتأثّرتُ كثيراً من روحه العالية التي لا تفكرُ إلّا برضا الله وبجنّاتِ النّعيم .

---

(١) ولد بمدينة البيرة عام ١٩٨١، ودرس في مدرسة المغتربين، وأنهى دراسته الثانوية بتفوق عام ١٩٩٩م، ثم التحق بـ«جامعة بيرزيت»، ودرس الهندسة الكهربائية، وعرف بنشاطه في «الكتلة الإسلامية»، وشارك في انتفاضه الأقصى من بدايتها، وأصيب عدة مرات برصاص الاحتلال. استشهد بتاريخ ٢٧/ ٣/ ٢٠٠١م.

وكان بلال قد ذكر لي صفة من صفات هذا الشهيد البطل: هي فهمه العميق للدين الإسلامي، إذ إنه رآه قبل تنفيذ العملية بيومين يحمل بيده مبلغ خمس مئة دينار أردني، وكان يسير مسرعاً باتجاه مبنى المالية في «جامعة بير زيت»، ليدفع قسط الفصل الثاني من العام الدراسيّ، وعندما سأله بلال: لماذا تريد أن تدفع قسط هذا الفصل وأنت بعد يومين إن شاء الله ذاهب لتقوم بعملية استشهادية؟ فكان جواب هذا الفارس المقدام قول سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «احرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»(١).

وبعد ذلك أكملَ القائد أيمن حلاوة الإعداد والتجهيز للعمليّة، وتمّ إعداد العبوة النّاسفة، وأوصل الإخوةُ الاستشهاديَّ إلى الهدف، وهو حافلة ركابٍ تمرُّ بحيّ «التلّة الفرنسيّة» في مدينة القدس وهناكَ فجّر العبوة أمام مدخل الحافلة، فأُصيب سبعة وعشرون صهيونياً بجروح.

ولم تكن النتائج مَرْضيّة كما كان مخططاً لها؛ وذلك بسبب يقظة بعض ركاب الحافلة، مما أعاق صعود الاستشهاديّ، كما أن شكل العبوة المستخدمة، وعمليات التمويه لم تكنْ بالشّكل المطلوب، وعلى الرغم من ذلك فقد أحدثت العملية صدىً إعلامياً واسعاً.

ثم إن سلسلة اللِّقاءات مع بلال وعبد الله البرغوثي، تواصلت بعد تنفيذ تلك العملية .

وكنت أنا وأيمن حلاوة نتعاون على التخطيط لخطف الجنود بهدف تحرير الأسرى؛ وكانت مهمّة الخطف موكلة إلى مجموعة بقيادة القائد عبد الرحمن حمّاد،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» برقم (٤٩).

وكانت الخطة تقتضي أن يقوم عبد الرحمن بتسليمنا الجنديَّ المختطف، على أن نرسله نحن إلى مخبأ في «بيت ريما» شمال غرب رام الله؛ وذلك لما لموقعها من أهمية، ولقربها من رام الله.

وقد طلبنا من بلال وعبد الله إعداد مخبأ سريٍّ لإخفاء الجنديّ، فأُعدّ هذا المخبأ في بيت عبد الله البرغوثي، لأنه كان غير معروف بانتمائه لحركة «حماس»، ولا تدور حوله أية شكوك أمنيّة.

غيرَ أنّ عملية الخطف لم تنجح؛ بسبب الخلل في ترتيب الأولويات، والاندفاع نحوَ العمل دون تخطيط كبير؛ وذلك لدخولنا في دائرة ردّة الفعل على أفعال العدو الإجرامية.

وحصل حينئذ أن اعترف أحد الأسرى على بلال البرغوثيّ، فكان رأيُ أيمن حلاوة أن يتمَّ الاتصال بالخلية عن طريق عبد الله البرغوثيّ؛ لاعتباراتٍ أمنيّة معينة، ولسهولة تحركه، وعدم وجود إشكاليات أمنيّة تعيق العمل، أضف إلى ذلك أنَّ بلالاً ناشطٌ بارزٌ في «الحركة»، وله شهرة واسعة في منطقته، وكثرة تنقلاته ستثير الانتباه.

كان أيمن قد طلبَ منّي معرفة مدى خبرة وقدرات عبد الله البرغوثيّ في مجال الإلكترونيات والتصنيع، فطلبتُ من بلال أنْ يطلبَ من عبد الله كتابة تقريرٍ عمّا يعرفه، وما يتمتع به من قدرات وتقنيات في هذا المجال، وأوصلتُ هذا التقرير إلى أيمن حلاوة، وبعد الاطلاع عليه قال لي: لا بُدَّ من إحضار عبد الله البرغوثي وتدريبه على الإلكترونيات والتصنيع؛ لأن ما بحوزتنا من تقنياتٍ أكثر تطوّراً، لا سيّما وأنّ مهندساً من أبناء رام الله قد جاء من الخارج، ونقلَ إلى أيمن الكثير من التقنيات المتطورة في الإلكترونيات، والتفجير عن بُعد، وتصنيع المتفجرات، وعمل على تدريبه على عِدّة مراحل.

وتمَّ ترتيب اللقاء، وحَضرَ عبد الله البرغوثيّ، فاستقبلتُه وأوصلتُه إلى «شقّة شارع عشرة»، وقام القائد أيمن حلاوة بتدريبه على تصنيع مادة «أُم العبد»: «بيروكسيد الأسِتون»، وعلى إذابتها في مخدّر من نوع «كلوروفورم»، وأَطلقت «كتائبُ القسّام» على المادة الناتجة اسمَ «قسام ١٩» كما درّبَه على تصنيع العبوات النّاسفة الجانبية، والتلفزيونية، والتفجير عن بُعد، وعلى بعض الدّوائر الإلكترونيّة.

أنهينا إمداد المجموعةِ بالمالِ والمتفجرات، وكلّفني القائد أيمن حلاوة بنقل مواد جاهزة من نوع «أم العبد» إلى بلال البرغوثيّ، ثمَّ أرسلتُ إلى عبد الله البرغوثيّ مخدر «الكلوروفورم»، وبعدها سلّمتُه أيضاً مواد كيماويّة أخرى: «أسِتون»، و«ماء ثقيل».

وقد عمل بلال البرغوثيّ على تجنيد محمد دغلس، من بلدتي برقة بنابلس إلى «الحركة»، وكان محمد يدرس مع بلال في «جامعة بيرزيت»، وعلى الرغم من إصابته البليغة برصاص الاحتلال فقد كان متحمساً مندفعاً للعمل.

وكان محمد رآني مع بلال أكثر من مرّة، فشكَّ بوجود علاقة عمل بيننا، لذلك توجّه إلى بلال وطلبَ منه أن يُشركه في العمل العسكريّ، وبعد إلحاح وافق بلال على تنظيمه، وضَمَّه للمجموعة.

ثم قام بلال البرغوثي ومحمّد دغلس بتنظيم الأخت المجاهدة أحلام التميميّ، وكان لديها استعدادٌ عالٍ للتضحية، وتتمتع بقدرات متميّزة، ومما شجع على تنظيمها أنَّ النساء كنَّ يتميّزن بسهولة الحركة والتنقل، ويمكن توظيفهنّ أحياناً بطريقة أفضل من الرِّجال.

كان لأحلام التميميّ دور متميِّز في «عملية سبارو»، ووضع عبوة مفخّخة على شكل عُلبة بيرة في «سوبرماركت الكينج جورج» في شارع يافا بالقدس.

كان المهندس أيمن حلاوة قد اتفق مع بلال البرغوثيّ على تركيز العمل في مدينة القدس المحتلة؛ لأنها تعدُّ قلب فلسطين، وجوهر الصراع، ولذلك سُمّيت المجموعة العاملة التي يقودها بلال «مجموعة القدس»، وتنفيذاً لهذه الرؤيا من العمل قام بلال البرغوثيّ ومحمد دغلس بتجنيد رواد الكسوانيّ من بلدة بيت إكسا القريبة من القدس.

كانت هذه المجموعة المتميزة على أهبة الاستعداد للردّ على جريمة اغتيال القائدين جمال منصور وجمال سليم[1] رحمها الله، وقد أعدّت العُدّة للردِّ الحاسم بعمليّة استشهاديّة بطوليّة في قلب القدس المحتلّة بعد أيامٍ قليلةٍ من جريمة اغتيال القائدين الجمالَين وغيرِهما من أبناء «الحركة» في مدينة نابلس.

كان بلال، ومحمّد، ورواد، يحضِّرون لعمليّة اغتيالِ شخصيّة حكومية صهيونية هي «المستشار القضائي لرئيس الوزراء الصهيونيّ أرائيل شارون»، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى تحقيق توازن في الرَّدع، فالردّ يجب أن يكون موازياً لحجم الجريمة، فاغتيال قائد سياسيّ يجب أن يقابله اغتيال قائد سياسيّ من العدو، غيرَ أنَّ اعتقال «الأمن الوقائيّ» لقائد المجموعة بلال البرغوثيّ ، ووجودَ عقباتٍ فنيّة، حال دون تنفيذ العمليّة.

---

(١) من قيادات حركة حماس. مولده عام **١٩٥٨**م، درس الشريعة وحصل على الماجستير فيها عام **١٩٩٦**م. تتلمذ على يد مجموعة من العلماء منهم الشيخ عبد الله عزام ود. فضل عباس ود. محمد المبارك. عمل في الإمامة والخطابة في نابلس والقرى المجاورة، وشارك بالعديد من الندوات السياسية والفكرية والدينية، وله مؤلفاتٌ منها: «هدى الإسلام» و«من توجيهات الإسلام».
تعرض للاعتقال من قبل السلطات الصهيونية عدة مرات، وكان من مبعدي مرج الزهور عام **١٩٩٢**م. اغتيل بتاريخ **٣١/ ٧/ ٢٠٠١**م إثر قصف الطائرات للمركز الفلسطيني للدراسات والإعلام بنابلس.

عملية «سبارو»

بدأت التحضيرات لتنفيذ «عمليّة مطعم سبارو» البطولية مباشرةً بعد اغتيال القائدين جمال منصور وجمال سليم رحمهما الله، وتوجهت المجاهدة أحلام التميمي مرّات عديدة لرصدِ الموقع، وتحديد الشكل الأنسب للعبوة بتوجيهات من أيمن، ولتسهيل دخول الاستشهاديّ إلى المطعم، وأُنجزت هذه المرحلة، وحُدّدت كيفية ذلك، وتم الاتفاق على أن العُبوة يجب أن تكون داخل آلة موسيقية «جيتار»؛ إذ إن مجموعة من العازفين على آلة «الجيتار» كانت تقف أمام ذلك المطعم، وذلك يبعد أيَّ شكٍّ حول منفّذ العملية.

توجّه عبد الله البرغوثيّ إلى نابلس حيث يوجد القائد أيمن حلاوة، وعرض عليه الفكرة، فزوّده بالمال اللازم لتمويل العملية وشراء «الجيتار»، وأرشده كذلك إلى كيفية وضع العبوة داخل «الجيتار»، وتوزيع الشّظايا.

كنتُ قد تواصلت مع «الجناح العسكري» في جنين للتنسيق فيما بيننا، وطلب منّي الإخوة في جنين أن يكون الاستشهاديّ القادم لتنفيذ أي عملية قادمة من أبناء جنين ، واتّفقت معهم على إرسال نسيم أبو الرّوس وجاسر سمارو؛ للاستفادة من خبرتهما في العمل الجهادي والتصنيع، وفتحِ خطٍّ للتواصل معهما عن طريق نسيم أبو الرّوس، الذي كان قد انتقل إلى جنين، والقائد أيمن حلاوة.

وبعد التشاور حول تجنيد الاستشهاديّ وقع الاختيار على البطل عزّ الدين المصريّ[1]، من جنين عن طريق الجناح العسكريّ هناك، وكان قد جرى الاتّفاق سابقاً على أن يكون مكان تسلّمه في رام الله، فزوّدوه بالعنوان الذي سيطلب منه الذهاب إليه

(١) ولد بقرية عقابا قضاء جنين عام **١٩٧٩م** لأسرة محافظة، وتعلق بالمساجد من صغره، وترك الدراسة في سن مبكرة، وعمل في «مطعم العائلة» بمدينة نابلس. كان موعده مع الشهادة في **٩/ ٨/ ٢٠٠١**.

في رام الله، وبعد أن ذهب إلى مدينة رام الله استقبله بلال البرغوثيّ ومحمّد دغلس في مسجد البيرة الكبير، وقام الإخوة على تهيئته بما يلزم من إعداد وإرشاد أمنيّ، وتعليمه على كيفيّة استخدام العبوة النّاسفة.

ثم إن خللاً أمنيّاً وقع بعد إجراء بعض الاتصالات، مما جعل «أجهزة أمن العدو» تشعر باحتمالية حدوث عملية في مدينة القدس، ونتيجة لذلك كثّف «أمن العدو» من إجراءاته، وأغلق الطرق المؤدّية للقدس.

وحينها أبلغَت المجاهدةُ أحلام التميميّ كلاً من بلال البرغوثي ومحمّد دغلس بهذه التطورات، وأخبرتهما بأنَّ ثمّة شيئاً غير طبيعي في إجراءات العدو المفاجئة، فاتّخذ بلال قراراً بقطع الاتصالات، وكان لهذا الإجراء ـ بعد توفيق الله عزّ وجل ـ الدّور الحاسم في نجاح العملية.

ونجح الإخوة ـ بفضل الله تعالى، ثم بجهود الأخت المجاهدة أحلام التميميّ ـ في نقل العبوة والاستشهاديّ عزّ الدين المصري عن طريق سيّارة مليئة بالنِّساء والفتيات، ووصلا إلى الهدف برعاية الله، وتمّت العملية بنجاح، ولاقَتْ صدىً إعلامياً، وترحيباً واسعاً من أبناء الشعب الفلسطينيّ عامةً.

ولكن بعد عملية «مطعم سبارو» بساعة اعتُقل بلال وعبد الله البرغوثيّ على يد أفراد «جهاز الأمن الوقائيّ»، وذلك بسبب خلل في الاتصالات، وانقطع اتصالُـهم بالقائد أيمن حلاوة منذ تلك اللحظة أيضاً، واعتقلت قوات الاحتلال محمّد دغلس والمجاهدة أحلام التميميّ، وانكشف أمر المجموعة كلها.

وبعد تصاعد الضّغط على «السُّلطة الفلسطينية» من فئات الشّعب والفصائل الفلسطينية للإفراج عن المعتقلين السِّياسيّين أُفرج عن بلال وعبد الله البرغوثيّ،

واستقبلهما الجناح العسكري في مدينة رام الله، وقام الإخوة باحتضانهما، ورعايتهما ودمجهما في العمل من جديد، والاستفادة من خبرتيهما، وقد كان في استقبالهما القائد الشيخ إبراهيم حامد الذي وجّهت إليه تهمة المسؤولية عن مدينة رام الله، ولكنه أنكر هذه التهمة، ولم يعترف بها، وكذلك استقبلهما القائد الشيخ صالح التلاحمة[١]، والقائد حسنين رمانة[٢]، والقائد الميدانّي سيد الشيخ قاسم[٣].

---

(١) ولد بتاريخ **٢٤/ ٤/ ١٩٦٦** في مدينة دورا، وعاش مع عائلته بقرية البرج، وكان وحيد والديه. عُرف بتفوقه الدراسي، حيث أنهى دراسته الثانوية بمعدل **٩٢**، ودرس الهندسة الكهربائية في «جامعة بيرزيت»، ودرس المحاسبة في «جامعة القدس المفتوحة»، وانتمى إلى «جماعة الإخوان المسلمين» في سن مبكرة، ثم التحق بصفوف حركة «حماس» مع انطلاقتها. اعتقل في سجون «السلطة الفلسطينية» منذ عام **١٩٩٦** وحتى العام **٢٠٠٠**. كان أحد قادة العمل العسكري، واستشهد بتاريخ **١/ ١٢/ ٢٠٠٣م**، وترك أبناءه الخمسة مع أمهم.

(٢) من مواليد اللد، عاش مع عائلته المحافظة في مخيم الأمعري، واعتلى المنابر منذ الصغر، انضم إلى حركة «حماس» مع انطلاقتها في بداية الانتفاضة الأولى، تعرض إلى الاعتقال إحدى عشرة مرة، ما بين الأعوام **١٩٨٧-١٩٩٣**، واعتقلته «السلطة» عام **١٩٩٧م**، وأفرج عنه عام **٢٠٠٠م**، وعاد بعدها لنشاطه في الجناح العسكري، وصار من أخطر المطلوبين في منطقة رام الله، حيث شارك في عمليات قتل بها عشرات الصهاينة. استشهد في **١/ ١٢/ ٢٠٠٣**.

(٣) ولد عام **١٩٧٤** لأسرة محافظة، وأصله من مدينة اللدّ، عاش مع عائلته في رام الله وتربى في مسجد العمري. ودرس في القدس بمدرسة «اليتيم العربي» في قسم التبريد والتكييف، واعتقل أربعين يوماً عام **١٩٩٣م** تعرض فيها للتحقيق في مركز المسكوبية، ثم اعتقل عدة أشهر بعد عامين، واعتقل عام **١٩٩٨م** في سجون «السلطة» في رام الله وأريحا، وأمضى حوالي سنتين فيها، وأفرج عنه مع اندلاع انتفاضة الأقصى فعاود نشاطه في الجناح العسكري، ثم أصبح من أبرز المطاردين حيث كان القائد الميداني لـ«القسام» في رام الله عام **٢٠٠٢**. أتم حفظ القرآن الكريم وهو مطارد، ومن أبرز أعماله التخطيط لـ«عملية الجامعة العبرية». وهو أحد خبراء المتفجرات، وخاصة مادة «أم العبد». وكان حلقة الوصل بين عبد الله البرغوثي وإبراهيم حامد بعد انقطاع اتصال البرغوثي بخليته الأم في نابلس. استشهد عام **٢٠٠٣** مع صالح التلاحمة وحسنين رمانة بعد محاصرتهم من قوة صهيونية واشتباكهم معها ورفضهم الاستسلام.

وفي مدينة رام الله قام عبد الله البرغوثيّ بتدريب عددٍ من المجاهدين الذين كان لهم أدوار هامة في عمليات جهادية أخرىٰ، مثل سيّد الشيخ قاسم من مدينة البيرة، ومحمّد عرمان[١] ومحمود شريتح[٢]، وبهيج بدر[٣] الذي تدرَّبَ علىٰ يد سيّد الشيخ قاسم.

وهناك آخرون جرىٰ تدريبهم، ولكنهم اعتُقِلوا وحوكموا لسنوات، وقد كان لفضل الله أولاً، ثمَّ لكلّ من قام بتنظيم «مجموعة سبارو»، دور كبير في نشرِ التصنيع، وإعطاء دفعة إضافية للعمل بشكلٍ أفضل في وسط الضفَّة الغربيّة، مما أذاق الاحتلال ويلات جعلته يتجرّع بعضاً مما تجرّعه شعبنا.

هذه شهادة أردتُ أنْ أسجّلها للتّاريخ، وفاءً لهؤلاء المجاهدين شهداء وأسرىٰ.

❊ ❊ ❊

(١) ولد في ١٩٧٥\١١\٢٢ في قرية خربثا برام الله، وكبر في مساجدها، ولم يكمل تعليمه الجامعي بسبب منع الاحتلال له، اعتقل ثلاث مرات وتنقل بين عدة سجون، التحق محمد بكتائب الشهيد عز الدين القسام في أواخر عام ٢٠٠١م، ثم اعتقل، وحكم بـ٣٦ مؤبدًا.

(٢) يعد أحد مهندسي القسام، وأمير الكتلة الإسلامية ، ورئيس مجلس اتحاد الطلبة في جامعة بيرزيت في رام الله، وهو حافظ للقرآن الكريم، ويتقن اللغتين الإنجليزية والعبرية، ويعد من الشعراء المرموقين داخل سجون الاحتلال، وهو خطيب مفوه، وكان أحد قيادات الإضراب الأخير، ممثلاً عن حركة حماس، وهو أحد قيادات الحركة الأسيرة المنتخبة لمحاورة إدارات السجون الصهيونية.

(٣) من بلدة (بيت لقيا) غرب محافظة رام الله ويبلغ من العمر (٣١ عاماً) ، حكم عليه الاحتلال بالسجن ١٨ مؤبداً، وقد كان قائداً لخلية قسّامية أبدعت في قتل المحتل وملاحقته ، وشقيقه باهر بدر محكوم أيضاً بـ (١٢ مؤبداً).

قبساتٌ من حياة القائد الشهيد
محمود أبو هنُّود

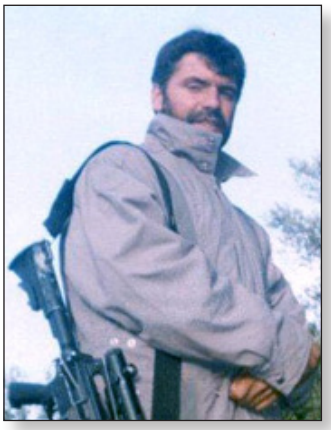

ولد أبو هنُّود في ١/ يوليو/ ١٩٦٧م ببلدة عصيرة الشمالية، وفيها درس الثانوية، وهي تبعد عن بلدتي برقة مسافة خمسة كيلو مترات، فنحن نعدّ من أبناء منطقة واحدة، وقد ساعد ذلك في تعارفنا وتواصلنا.

أكمل دراسة البكالوريوس في الشريعة في جامعة «أبو ديس»، وأنهى دراسته عام ١٩٩٢م، وفي هذه السنة أُبعِد إلى مرج الزهور، وكان قد أُصيب عام ١٩٨٨م بطلق ناري على إثر مواجهة مع جنود الاحتلال.

وقد بدأت علاقتي به منذ مطلع التسعينيات، وذلك من خلال الأنشطة

الدعوية والرياضية التي كانت تقام حينها، ونشاطات شباب المساجد، ثم بعد ذلك توطّدت علاقتي به من خلال بعض أنشطة «الحركة»، كالمشاركة في جنازات الشهداء أو المهرجانات والاحتفالات.

كانت شخصية محمود رحمه الله جذّابة ومميزة، فهو صاحب خلق رفيع، لبقٌ في تعامله، لا يخرج من فمه إلا الكلام الطيب، ويتمتّع بالإضافة إلى ذلك بجسم رياضيّ، وجمال في الصورة والخَلْق، وقد كان لإبعاده إلى مرج الزهور، وعودته بعدها إلى فلسطين، أثر في اتساع نطاق شهرته، فأصبحت شخصيته معروفة أكثر على مستوى المنطقة.

وبعد خروجي من السجن عام **١٩٩٩**م كان محمود أبو هنُّود مطارداً من قوات الاحتلال، وفي مطلع عام **٢٠٠٠**م حصل اشتباك بينه وبين القوات الخاصة، من «وحدة الدوفدوفان»، سأفصل الحديث عنه لاحقاً، حينها كنت أشاهد من البيت الذي أسكن فيه الطائراتِ وهي تجوب منطقة الاشتباك، وقد كنت قبل هذه الحادثة أتوق إلى لقائه، والعمل معه، خاصة وأني كنت على معرفة سابقة به.

في بداية الشهر السابع من عام **٢٠٠١**م، وأثناء انتفاضة الأقصى المباركة، قصفت قوات الاحتلال سجن نابلس بعد عملية الاستشهاديّ محمود مرمش، حيث كان يُحتجَز القائد محمود أبو هنُّود، وكان يهدفون من هذا القصف إلى اغتياله.

بعد هذه الحادثة توجه القائد صلاح دروزة إلى «أجهزة السلطة»، وقام بتهديدها وبالضغط عليها، وتحميلها كامل المسؤولية عن حياته، وأنه من غير المعقول أن يستمرّ اعتقاله بعد قصفه واستهدافه وهو في سجن نابلس، ولا يوجد ما يضمن سلامته، وبعد أيام من الضغط على «السلطة» نجح في إقناعهم بالإفراج عنه، وتسلّمه بنفسه

منهم، وجرىٰ تجهيز البيوت الآمنة لاستقباله، وقد كان رحمه الله يعاني من آثار الإصابة في كتفه بسبب الاشتباك، مما تسبب بعجز في إحدىٰ يديه.

وبعد أسابيع من الإفراج عنه كان أول لقاء لنا بحضور أيمن حلاوة، فاجتمعنا وتحدثنا في شؤون العمل العسكريّ وتطويره، وكنت عندئذ أُعد العدّة، وأخطط للخروج إلىٰ منطقة شرق جنين؛ لإعداد بنية للعمل العسكري هناك، ورصد بعض الأهداف.

عرضت هذا المشروع علىٰ أبو هنُّود، وطلبت منه ومن أيمن توفير الإمكانات اللازمة، وفرز أحد الإخوة المطاردين للخروج معي إلىٰ هذه المنطقة؛ ليتولىٰ شؤون التصنيع، ويقوم بتدريب إخوة آخرين من هذه المنطقة علىٰ التصنيع، فاختارا جاسر سمارو، فخرج معي إلىٰ هذه المنطقة، ومكث فيها لأشهر عدة.

أثناء تلك المدة من شهر ٨ وحتىٰ شهر ١٢ من عام ٢٠٠١م جمعتني بمحمود أبو هنُّود لقاءات عديدة وعمل مشترك، وتجوّلنا في جبال عصيرة وطلوزة وجبال شرق جنين لعدة أيام، وعشنا معاً أياماً في مدينة نابلس.

شخصية آسِرَة

في هذه الأثناء تعرفت علىٰ شخصيته أكثر فأكثر، واقتربت منه، وسمعت منه قصصاً عن عمله وجهاده، ومعاناته أثناء المطاردة.

وكان يتّصف بالحذر الأمنيّ الشديد أثناء تنقّلاته، وفي حديثه ولقاءاته، وكان لشدة حذره لا يقبل أن يستخدم الهاتف الجوال بأيِّ شكل من الأشكال، غير أن صعوبة التواصل، وحاجته إلىٰ تسريع العمل الجهادي جعلته يغير رأيه في ذلك، وكان ذلك خطأً أمنياً كبيراً وقع فيه كثير من المجاهدين.

كان رحمه الله لا يحب الحديث عن نفسه وجهاده، وكنت أتعمّد الحديث معه حول ذلك، وأحاول التعرف عليه وعلىٰ تاريخه الجهاديّ، وعلىٰ شخصيّته وأفكاره، وتطلعاته وأمانيه.

وكان رحمه الله يحب الحياة في الجبال، ويميل إلىٰ الخشونة، ويحب الحياة الريفية، وما فيها من البساطة والصفاء، وكانت الشهادة أمنية من أمانيه، ولكنه يحب مع ذلك أن يعيش أطول مدة؛ لينزل بالاحتلال الويلات، ويكبّدهم خسائر فادحة في أرواحهم قبل أموالهم، حتىٰ إن فكرة الزواج وتكوين أسرة كانت تراوده كثيراً، فما كان يفكر كالشباب الذين يريدون الشهادة سريعاً، وإنما يطلب الشهادة مع رغبته في قضاء وقت طويل في الدنيا مجاهداً.

وقد عانىٰ محمود أبو هنُّود من ملاحقة «السلطة» والاحتلال له بعد عملية «محانيه يهودا» و«بني يهودا» عام **١٩٩٧**م، وقد بلغت به هذه المعاناة إلىٰ درجة أنه فكّر بتسليم نفسه لـ«أجهزة السلطة الأمنية»، فلما علم والده بالخبر هدّده بأنه سيعلم الناس جميعاً بأنه براء منه، وسيشهر به علىٰ مكبرات الصوت في المسجد، وفي الصحف.

وكان لوالديه مكانة كبيرة في قلبه، وتأثير كبير علىٰ شخصيته، وبالأخص والده، فقد كان رجلاً مؤمناً ومتديناً، يحب الجهاد والمجاهدين، وكثيراً ما شجّعه علىٰ الجهاد والمقاومة، وكان يشحذ همّته، ويشدّ من أزره.

وكان مثال الأب الناصح لولده، الحريص علىٰ إدخاله في مسالك الخير، فكان يدعو له بالشهادة، ويتمنّىٰ لو أنه كان شاباً قادراً علىٰ حمل السلاح للمشاركة في الجهاد في سبيل الله.

كان القائد محمود أبو هنُّود يحدّثني عن معاناته الكبيرة أيام المطاردة، وكيف أن

ملاحقة «أجهزة السلطة» له كانت تضطره أن يبقى أياماً عديدة طاوي البطن لا يأكل شيئاً يقيم صلبه، وأنه لطالما نام أيام المطر والبرد في كهف لم تكتف معاناته فيه باحتمال البرد الذي لا يستطيع دفعه بإشعال نار؛ خوفاً من أن يكشف نورُها مكانه، بل إن الكهف نفسه كان يتسرب منه الماء، لتزداد معاناته، وتشتدّ آلامه.

ومما قاساه أن أهله ذهبوا في نزهة إلى إحدى البساتين التي تملكها عائلته، وجاء منهم إلى ذلك المكان عدد كبير، منهم والداه، وإخوته وأخواته وأبناؤهم، وهو يقف في مكان قريب جداً منهم، يراقبهم بالمنظار وهم يشوون اللَّحم، ويستمتعون وهو قريب منهم، مشتاق للجلوس معهم، ومعدته تؤلمه من شدة الجوع، ولكنه لا يستطيع أن يقترب منهم خشية أن يصل الخبر إلى «أمن السلطة» فتعلم بمكانه، غير أنه من شدة جوعه لم يستطع إلا أن يذهب بعد مغادرتهم إلى ذلك المكان، فيأكل ما فضل عنهم من الخبز وغيره من أنواع الطعام؛ ليسد ما نزل به من الجوع.

لكن تلك الآلام كلها لم تكن لتجعله كئيباً، وما كان له أن يترك الحزن أو اليأس يسيطران عليه، فالسعادة ليس مصدرها طعام أو شراب، وليست راحة النفس فقط في الجلوس في البيوت، والبقاء بين الأهل والأحباب.. نعم لقد كان رحمه سعيداً جداً على الرغم من كل تلك المعاناة، وقد عبر لي عن سعادته تلك ونحن نسير سوية في إحدى الجبال الواقعة شرق جنين، وأخبرني أنه يَعُدُّ نفسَه من أسعد الناس، وأن ما يعيشه من سعادة لو علم بها الملوك والأغنياء لحسدوه عليها.

كانت نفسه الطامحة لم تتعب جسمه وحسب، بل إنها لم تترك لعقله وقتاً للراحة، فكان منشغل البال دائماً يفكر في كيفية إدخال وسائل قتالية جديدة إلى الضفة الغربية، كمضادات الدروع التي يتوقع أن تغير المعادلة، وتقلب الموازين، وتنقل العمل العسكري في الضفة نقلة نوعية فيما إذا وصلت إلى أيدينا.

بعد عام **١٩٩٧**م أمضىٰ سنوات من حياته مطارداً في الجبال، وحدّثني أن مما ساعده في حياته تلك أنه كان علىٰ معرفة جيدة بالأراضي المحيطة بقريته عصيرة الشمالية، التي تُقدّر بحوالي خمسين ألف دونم، يعرف كل جبل ووادٍ فيها، وكهوفها كانت معروفة عنده كأنها أماكن مكشوفة، وهو خبير بكل تل، وكل قطعة أرض، حتىٰ إنه يعرف أصحاب تلك الأماكن ومالكيها، أما ينابيعها وآبارها فهي محفورة في ذاكرته، وأما أشجارها فكأنها مزروعة في بيته.

وخلال المدة التي عشتها معه تعرفت منه علىٰ صفات كثير من أصحاب تلك الأراضي، فحينما كنا نمر بأرض ما ـ ونحن ننتقل بين الجبال ـ كان يقول لي: صاحبُ هذه الأرض جاسوس، وهذه الأرض صاحبُها صفته كذا وكذا، وهذه الأرض صاحبُها يستحق الاحترام والتقدير.

من طرائف أيام الملاحقة

ومن القصص الطريفة التي وقعت له أنه ذات مرة كان يتجول في أحد البساتين وإذا برجل من أصحاب الأرض قد صار علىٰ مقربة منه، فما كان منه رحمه الله إلا أن أنزل بنطاله متظاهراً بأنه يريد قضاء حاجته؛ خوفاً من أن يتعرّف عليه صاحب تلك الأرض، فوضع الرجل يده علىٰ عينيه، وأصابه الخجل والارتباك، وابتعد عنه، فأسرع محمود، ولبس ثيابه، وولىٰ مسرعاً ولم يُعقّب.

كان رحمه الله يحفر بنفسه المغارات والكهوف الصغيرة، ويجعل باب الحفرة صغيراً، ثم يغلقه بنوع من النبات يسمّىٰ «النتش»، ومن طريف ما وقع له أنه جاء مرةً رجل من أصحاب الأرض، وأخذ ينظفها من النباتات الضارّة و«النتش»، فأمسك بهذه النبتة «النتشة»، وجعل يجذبها يريد اقتلاعَها وتنظيفَ المكان منها، وجعل محمودٌ

رحمه الله يجرُّها كذلك ويجذبها إليه؛ خيفة أن ينكشف أمره، فأُصيب ذلك الرجل بالذعر؛ ظناً منه أن بداخل الكهف جنياً يفعل ذلك، فتركها وهرب من المكان كله.

ذهب رحمه الله ذات مرة إلى الخليل، والتقى بالشهيد إياد البطاط، ومكث هناك لشهور عدة تنقل خلالها بين جبال الخليل، ومن طريف ما وقع له في تنقّله ذاك أنه انتقل من الخليل إلى نابلس، وقطع جُلّ تلك المسافة مشياً على القدمين، وعند مروره بحاجز عسكريّ كان حريصاً أن لا يثير شكوك الجنود حوله، وأراد إشغالهم بما يلهيهم عن التدقيق في شخصيته، فركب حماراً بطريقة عكسية، وأخذ يضرب الحمار وهو مارٌّ بجانب الجنود، فأشغلهم هذا المظهر، وصاروا يضحكون من تصرّفه هذا، وبذلك أبعد تفكيرهم عن الشك به، وأنه هو أبو الهنُّود الذي يسعى الاحتلال بكل ما يستطيع للقبض عليه، والإيقاع به، وهذا يدل على سرعة البديهة التي يتمتع بها رحمه الله تعالى، وعلى عقليته الأمنية الفذة.

ومما يدل على عظمة النفس التي بين جنبيه، وعلوّ همّته رحمه الله أنه كان لا يرضى أن يعيش في الحياة البرية إلا بما يتوافق مع شرع الله تعالى، فكان حريصاً على معرفة الحكم الفقهي لكيفية الحياة فيها والأكل من أشجارها، إلى غير ذلك مما يحتاجه من يحيا حياته تلك، وكثيراً ما كان يسأل الشيخ يوسف السُّرَكْجيّ عن أحكام تلك الأمور.

إنه مثال لما يجب أن يكون عليه المجاهد المطارد؛ إذ إنه لا يستغني عن الثقافة الدينية الشرعية، والثقافة الأمنية، بالإضافة إلى معرفته بالجغرافيا وما يحيط بالمكان الذي يسكنه، كالجبال، والسهول، والكهوف، والغابات، فلربما جاء اليوم الذي يحتاج فيه إلى هذه المعارف.

ولأن هذا الأمر لا يحسن إغفاله فعلينا أن نعتني بنشر هذه الثقافة، وعلى الأخص كيفية عيش المجاهد في الجبال والمناطق الزراعية، بما في ذلك كيفية تخزين الطعام والماء،

وطرق التنقل في أمثال تلك الأماكن، وما هي المعدات التي يحتاج إليها في حياته تلك، وكيف يحمي نفسه من الحيوانات المفترسة، والأفاعي، وغيرها.

وقد كان شهيدنا عليه رحمة الله ملماً بكل هذه الأمور، فكان يخزن الخبز بطريقة تحميه من التلف، فيجفّفه، ثم يعلقه على الأشجار في أكياس، وكان يضع المعلبات، وزيت الزيتون والزعتر في أماكن معينة تبقى فيها سليمة من التلف، ويضع كميات من الماء في أوانٍ، ثم يُخفيها في أماكن مختلفة.

حدَثَ مرة ونحن نسير بين الأشجار أن ضرب برجله جذعَ شجرة، فخرجت منه عبوة ماء، فقال مازحاً: «اخص عليكِ، صرتِ خربانة»، فسألته: كم من الوقت مضى على هذه العبوة وهي مخبأة هنا؟ فقال لي مازحاً وهو يبتسم: «فقط حوالي عشرة شهور».

وذات مرة حضر وقتُ الطعام، فأتى لنا بالخبز المجفف المخبّأ على أحد الأشجار، وبلّله بالماء، ثم وضعه على النار؛ ليسخن، ثم أحضر لنا من تلك المعلبات المخبأة، فأكلنا، ثم لبس ثياباً تشبه ما يلبسه كبار السن من المزارعين، وانطلقنا حيث نريد، وكان رحمه الله يستكشف المنطقة بالمنظار قبل أن نصل إليها؛ كي لا نصطدم بقوات خاصّة، أو عملاء، أو أناس مجهولين لا نعلم عنهم شيئاً، ربما كانوا جواسيس لأعدائنا.

ومما كان يعينه في حياة المطارَدة أنه اعتمد على شبكة من المساعدين في المنطقة، أذكر منهم أيمن حشايكة، وإياد حمادنة رحمهما الله تعالى، وإضافة لذلك كان حريصاً على متابعة الأخبار عن طريق المذياع؛ لئلّا يُفاجأ بأيّ حدث أو اجتياح للمنطقة.

اتسع أفق العلاقة بيننا، فتجاوزت حدود الصداقة، وصار له في نفسي منزلة عظيمة، ولاقى حبه شَغافَ قلبي، فكنت أحب الحديث معه، وأشعر براحة كبيرة طيلة

بقائي إلى جانبه، وكان رحمه الله يُبادلني الشعور نفسه، وقد صرح لي بذلك، فكان يقول حين أتصل به: «عندما أسمع صوتكَ أشعر بالراحة النفسية». أسأل الله أن يجمعنا به في جنات النعيم.

محاولة فاشلة لاغتياله

سألته ذات مرة عن الاشتباك الذي خاضه مع القوات الخاصة عام ٢٠٠٠م وقتل فيه ثلاثة من وحدة «الدوفدوفان»، وجُرح سبعة آخرون، فأخبرني باختصار عن السبب الذي أدىٰ إلى كشف المكان، ومن ثم حصول ذلك الاشتباك.

وكان سبب معرفة الصهاينة مكانه ـ فيما ترجّح عنده ـ هو شراؤه لمنظار ليليّ، فقد كان يختبئ في بيت أحد الإخوة الأفاضل، وقد اشترىٰ صاحب البيت من فلسطينيّي الـ ٤٨ عن طريق الهاتف منظاراً ليلياً كان الصهاينة قد وضعوا بداخله جهاز تتبُّع، ثم إن الشهيد رحمه استخدم ذلك المنظار، مما مكّن «المخابرات الإسرائيلية» من تحديد مكانه بدقة.

وعندها بدأ «الجيش الإسرائيلي» يحاصر المنزل، وكان لطف الله سبحانه ورحمته تحيط بنا، فاتصلت امرأة من جيران البيت، وحذرت نضال دغلس صاحبَ البيت، فانتبه محمود قبل أن يُحكم الجيش حصارَ البيت، وأخذ يُتابع ويُراقب تحركّات الجنود، ثم خرج من إحدىٰ زاويا البيت وهو يحمل رشاش «M١٦» ومسدساً.

وعند خروجه رأىٰ ما يقارب العشرة جنود قابعين علىٰ أحد أسطح المنازل المجاورة المنخفضة عن مستوىٰ الأرض التي كان هو فيها، وبعد أن خرج من المنزل بدأ بإطلاق النار عليهم مباشرة، وكان يبعُد عنهم عدة أمتار، فأصابهم إصابات مباشرة، وأفرغ مخزنين من الذخيرة في أجسادهم، وانسحب من المكان مسرعاً، وخلال انسحابه

بدأ الجنود الآخرون المتمركزون حول المنزل بإطلاق النار على بعضهم بشكل جنوني؛ لما أصابهم من الخوف والارتباك، ثم إنهم انتبهوا لمكان أبو هنُّود فأطلقوا النار عليه، فأُصيب برصاصتين، استقرت الأولى في ظهره، والأخرى في كتفه، وظل رحمه الله يُعاني من هذه الإصابة إلى وقت استشهاده.

وقع بعدها على الأرض مغمىً عليه، وبقي على هذه الحال مدة من الزمن، ثم نهض، وبدأ يمشي ببطء من شجرة إلى شجرة حتى وصل إلى أحد البيوت، وطلب منهم المساعدة، فلم يستجيبوا له، ثم مرَّ على بيوت أخرى والتقى بامرأة تعرفه من قبل، فقال لها: «أنا محمود، ساعديني»، فأنكرت معرفتها به، ثم إنه رأى رجلاً يتصل بالهاتف الجوال، وكان هذا الشخص متهماً بتعامله مع الاحتلال، فارتاب منه، ولم تمض عدة دقائق حتى حضر الجيش إلى ذلك المكان، ولكن الشهيد رحمه الله كان قد انتقل إلى منطقة أخرى، وصار ينتقل من مكان إلى آخر وجروحه تنزف، والطائرات الحوامة «الهيليكوبتر» لا تفتأ تبحث عنه.

أيُّ عزيمة هذه يا رفيق الدرب، أيُّ إرادة تلك التي أعانتك على احتمال الآلام، والانتقال من مكان إلى آخر، ورفض الاستسلام، غير ملتفتٍ إلى جسدك المثخن بالجراح!

ثم إن الله سبحانه يسّر له من يساعده، وينقله بسيارة تريحه من شقاء السير بجراح تسيل دماً، وفي طريقه مرّ بعجوز ، فطلب منه أن يضع عنده الرشاش «M١٦» الذي كان يحمله أمانة إلى حين يتيسر له أخذه، وطلب منه أن يخفيه في بئر، فوافق العجوز وأخفاه في بئر كانت عنده، وبعد خروج محمود من «سجن السلطة» ذهب إلى ذلك الرجل وأخذ منه السلاح المخبّأ.

وصل البطل إلى نابلس، وعُرض على أحد الأطباء المشهود لهم بالخبرة، فقدم له

الإسعافات الأولية، وتبين له أن حالته سيئة، وأن صحّته لا تحتمل التأخير، ويجب نقله إلى المستشفى، فبادر مسرعاً إلى جمال سليم، وأبلغه بوجود أبو هنُّود عنده، وأنه يجب أن يُنقل إلى المستشفى بأسرع وقت.

اتّصل القائد جمال سليم بـ«أجهزة السلطة»، وشَرَطَ عليهم ألا يسلّموه إلى قوات الاحتلال، ونقل على إثر ذلك إلى المستشفى بحماية «أجهزة السلطة الأمنية»، وبعد أن بدأ يتماثل للشفاء قامت لجنة مؤلفة من كبار ضباط «الأجهزة الأمنية» بالتحقيق معه، وأخبرني أنهم لم يقدّروا صعوبة حالته الصحية، ولم يُراعوا خروجه من معركة طويلة، فتعرض للإهانات من قبل أحد الضباط أصحاب الرتب العالية في «الأمن الوقائيّ».

ثم إنه طلب أن لا يُحتَجَز لدى جهازي «الأمن الوقائي» و«المخابرات»، فاحتجزوه في سجن نابلس بحماية من الشرطة الخاصة، وعلى الرغم من المعاملة الجيدة من الشرطة الخاصة، إلا أنه جرت محاولاتٌ من بعض عناصر الأمن لاستدراجه، والحصول منه على معلومات بطريقة غير مباشرة.

وبعد عملية «نتانيا» الاستشهادية التي نفذها محمود مرمش في أحد المراكز التجارية، وقتل فيها سبعة صهاينة، وجُرح مئة وعشرون آخرون، ردَّ الصهاينة باستهداف محمود أبو هنُّود في مكان احتجازه في سجن نابلس، حيث أطلقت طائرات «F١٦» صاروخين على السجن، مما أدّى إلى تهدّم الجزء الذي كان يقيم فيه، وقد تداركته رعاية الله سبحانه وتعالى فقد سقط عليه جزء من جدار كان حاجزاً بينه وبين الشظايا المتطايرة، وبقي ملقىً تحت الركام حتى حضرت المساعدة، فرفعوه وأخرجوه من المكان.

ومما يَـحُـزُّ في النفس أن عدداً كبيراً من الشرطة الخاصة وجهوا أسلحتهم نحوه، واعتقلوه مرة أخرى، ولم يُراعوا ما وقع له أثناء هجوم طائرة الصهاينة، وما

نزل بجسده من رضوض وكدمات بسبب ذلك، ولم يوقظ إنسانيتَهم ونخوةَ نفوسهم استشهادُ ثلاثةَ عشرَ شرطياً من زملائهم.

وبعد أن اعتقل محمود وَجّهت «أجهزة السلطة» ضربة موجعة للعمل العسكريّ الذي كان يقوم به، فكانت مصيبتُنا باعتقاله مصيبتين.

ومما يُؤسَف له أن من أسباب هذه الضربة أن أحد مساعديه كان له شقيق يعمل في «جهاز المخابرات الفلسطينية»، وعلى طريقة مخابرات الظَّلَمة التي لا تُراعي أخوّة ولا قرابة في خدمتها للظالمين، فتَّش عنصر المخابرات هذا ملابس أخيه كما يفتش ملابس متّهم أو مطلوب، فوجد رسالة من محمود أبو هنُّود يتحدّث فيها عن بعض تفاصيل العمل العسكريّ، فسارع إلى الإبلاغ عن أخيه، وتسليم الرسالة إلى جهاز المخابرات، فوضعت مساعد محمود هذا تحت المراقبة، واعتقلته عندما كان ينقل السلاح في طريق ترابيّة بين نابلس وعصيرة الشمالية، فكانت هذه الرسالة وهذا الاعتقال تمهيداً لـما تلاه من ضربة كبيرة وُجّهت للعمل.

وفي هذه الحادثة أكبر دليل على أن انتماء أفراد هذه «الأجهزة الأمنية» يتجاوز انتماء القرابة والأخوة والعائلة، حتى إن الواحد منهم يجيز لنفسه أن يَشِـيَ بشقيقه الذي تربّى معه في بيت واحد، ورضع معه من ثدي واحد، وأكلا سوية على مائدة واحدة، ولربما ناما صغاراً في فراش واحد، تحت لحاف واحد.

العودة إلى العمل العسكريّ

ثم إن الله سبحانه يسّر بفضله وكرمه الإفراج عنه بعد هذه الحادثة بأيام عدة، وتسلّمه القائد صلاح دروزة، وكان هذا الإفراج بداية لمسيرة جهادية متجددة سارها معنا محمود رحمه الله تعالى.

وبعد أن أفرجت عنه «أجهزة السلطة» عام ٢٠٠١م، التقىٰ بأيمن حلاوة وصلاح دروزة، وأُعجب بسرعة إعادة بناء الجناح العسكريّ بعد أن وجّهت «أجهزة السلطة الأمنية» وقت أن كان في الاعتقال ضربات كبيرة للخلايا التي كان يقودها.

وبإرادة لا تلين أعاد محمود أبو هنُّود تفعيل المجموعة السابقة التي كانت تعمل معه قبل الاعتقال، وأعاد جمع أفرادها، وهم أيمن حشايكة، وإياد حمادنة، وهاني رواجبة[١]، وعماد جناجرة[٢]، وقد كان لهذه الخلية مساهمة في تنفيذ عمليات عدة، زرعوا فيها عبوات في شمال غرب نابلس، قتل بحمد الله فيها مستوطن وجُرح عدد آخر من الجنود، وقد تمكّن المجاهدون بفضل الله من تصوير جزء من هذه العمليات، كتفجير ناقلة وقود وسيارة «جيب» عسكريّ علىٰ الطريق الالتفافيّ قرب «معسكر عيبال»، وتفجير سيارة لمستوطنين قرب «مستوطنة شافي شمرون»، إلىٰ غير ذلك من عمليات أثلجت صدور المؤمنين.

---

(١) ولد في بلدة عصيرة الشمالية عام ١٩٧٨ بين سبعة من الإخوة والأخوات، درس في مدارس القرية، وارتاد المساجد في سن مبكرة وحفظ اثني عشر جزءاً من القرآن. والتحق بالعمل مع والده بالزراعة. ارتبط اسمه بالشهيد محمود أبو هنُّود، واعتقل بتهمة مساعدة محمود أبو هنود، وأفرج عنه، ثم اعتقل مرة أخرىٰ وأمضىٰ سنة كاملة في «سجن بيتونيا»، وأفرج عنه بعد قصف الاحتلال لمقرات «السلطة»، والتحق مرة أخرىٰ بصفوف «القسام»، وشارك في العديد من الاشتباكات وزرع العبوات. استشهد بتاريخ ١٠/ ١٠/ ٢٠٠١ أثناء قيامه بمهمة جهادية في منطقة صرة، حيث انفجرت به إحدىٰ العبوتين الناسفتين نتيجة خلل فنيٍّ حين كان يزرعها.

(٢) ولد عام ١٩٧٢ في بلدة طلوزة قضاء نابلس بين ثمانية من الإخوة وخمسة من الأخوات، ووالده أحد أفراد الجيش العربي. كان أحد نشطاء الانتفاضة الأولىٰ، وتدرب علىٰ حمل السلاح في سن مبكرة، شارك في الاشتباكات، وزرع العبوات الناسفة. اغتيل بتاريخ ٥/ ٥/ ٢٠٠٤ بعد محاصرته من قوات خاصة واشتباكه معهم بالسلاح قرب منزله.

عاد شهيدنا البطل إلى العمل الجهاديّ مجدّداً بعزيمة وهمة لا تقل عما كانت عليه قبل الاعتقال إن لم تكن أقوى، واستأنف مسيرته الجهادية كأنه ما أمضى بسببها أوقاتاً طويلة بين جدران السجن، يصعد إلى الجبال كما كان يفعل قبل اعتقاله، وأحياناً كثيرة يرصد الأهداف بنفسه، ولربما نام في منطقة مشرفة على هدف عسكريّ، أو مطلة على طريق مستوطنة أياماً عديدة، وهذا دليل على الشجاعة التي كان يتحلى بها رحمه الله.

ولم يكن مكتفياً برصد الأهداف ومتابعة النقاط التي يفكر في تنفيذ عمل فيها، بل أشرف على تشكيل الخلايا العسكرية في مناطق الأرياف، وكان يُوجّه المجموعات العاملة فيها إلى الأهداف المناسبة لتنفيذ عمليات موجعة للعدو.

أذكر أنه طلب مني ذات مرة رصد «مستوطنة ألون موريه» التي تقع على جبل شرق نابلس، والاستفادة من المجاهدين في ذلك، لكني لم أتمكّن من تنفيذ ذلك، وبعد أن اعتقلني «جهاز الوقائي» تمكّن المجاهدون في شهر آذار من عام **٢٠٠٢**م من تنفيذ عملية في هذه المستوطنة قُتل فيها عدد من المستوطنين.

ولم يكن أبو هنُّود غائباً كذلك عن أحداث تشكيل إياد الخطيب[١] مجموعة عسكرية، فكان على تواصل مباشر مع نصر الدين عصيدة الذي أشرف على تشكيلها.

---

(١) ولد ببلدة ديرستيا قضاء سلفيت، عام **١٩٧٣**. التحق بحركة «حماس» عام **١٩٨٧**، واعتقل عام **١٩٨٨**، وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات، وأفرج عنه عام **١٩٩٤**، واعتقل ثانية في العام نفسه، وأمضى سنة ونصف السنة في سجون الاحتلال بتهمة نشاطه العسكري، ثم اعتقل أيضاً وأمضى **٣** أشهر في السجن الإداري. تزوج عام **١٩٩٩**، وأعاد نشاطه في انتفاضة الأقصى، وأصبح مطارداً للاحتلال بعد نجاته من عدة محاولات اعتقال. وفي يوم ٦/ ١١/ **٢٠٠١** حينما كان ذاهباً إلى نابلس للاجتماع بالقائد نصر الدين مع أفراد مجموعته اشتبك مع قوات الاحتلال قرب قرية تلّ، فاستشهد بعد أن قتل جنديًّا صهيونيًّا.

ولم يفت القائد أبو هنُّود متابعة الإعداد لعملية «عمانوئيل» البطولية من رصد وتخطيط، وقد نُفّذت تلك العملية في ١٢/ ١٢/ ٢٠٠١م بعد استشهاده بأيام ـ وكان استشهاده رحمه الله في ٢٤/ ١١/ ٢٠٠١م ـ ضمن عمليات الردّ على اغتياله رحمه الله.

كان رحمه الله يخطط قبل استشهاده لعملية «الجفتلك»، ولم يخيّب إخوانه الظنّ بهم، فقاموا بتنفيذها بعد استشهاده بأيام، وتلقى بها العدوّ ضربة قوية، وقد اعترف بجرح سبعة من جنوده فيها.

رحمك الله يا محمود.. وكأنك كنت تبغي الانتقام بيدك من عدوّك حتى بعد موتك، فأشرفت على عملية كانت رداً على اغتيالك.

وكنا قد اتفقنا قبل استشهادة بأيام على أن يحضر إلى منطقة شرق جنين؛ لنخرج في رحله جبلية تستمر لأيام نقوم فيها برصد مجموعة من الأهداف في جبال جلبوع حيث كانت تستقر فيها ثلاث مستوطنات.

اغتيال القائد

ذهبت إلى جبال عصيرة الشمالية وأخذت معي رداء عسكرياً «بدلة»، لنلتقط صوراً لنا، فالتقيت بالقائد مهند الطاهر والقائد إياد حمادنة، وبعد أن التقطنا صوراً تجمعنا، تكلمنا حول العمل، وكيف تجري الأمور، واتفقنا على الذهاب إلى جنين بعد يومين، وأن يكون لقاؤنا في الفارعة، ثم نذهب إلى شرق جنين.

وأثناء سيري في الطريق وأنا ذاهب لإحضار محمود سمعت صوت الطائرات تطلق الصواريخ على منطقة ياصيد، ولم يكن يفصلني عنه سوى مسافة خمس دقائق، ولو أنهم علموا بلقائنا لانتظروا وصولي لينالوا منا جميعاً.

وتبين لي من خلال ما جرى، واستناداً إلى معلومات من مصادر مقربة أن أيمن ومأمون حشايكة[١] كانت حركتهما مكشوفة، وأن الاختراق حصل من خلال مراقبة تحركاتهما.

أوقفنا السيارة وحاولنا الاتصال بمحمود للاطمئنان عليه، فلم يستجيب، فعرفتُ حينها أن الصواريخ كانت تستهدفه فعدت أدراجي ورجعت والألم يعصر قلبي حزناً على فَقْد هذا القائد العظيم.

لقد جنّ جنون العدوّ، فلم يستطيعوا أن يصلوا إليه بطلقات سلاح عادي حتى استخدموا الطائرات لتقتل فرداً واحداً، لكنه فرد يعلمون أنه يساوي المئات بل الآلاف من غيره ممن لم يعرفوا من هذه الحياة غير الطعام والشراب والمتع.

قصفت الطائرات سيارته بالصواريخ، فلم تصب منه مقتلاً، وخرج منها هارباً باتجاه الوادي، فهاجمته طائرتا «أباتشي» بالرشاشات الثقيلة موجّهة لهيبها إلى الوادي، حتى نالت منه إلى حدٍّ فاق مجرد القتل، فتفتّت جسده الطاهر قطعاً صغيرة، واستشهد معه نتيجة استهداف السيارة صاحب سيارة الأجرة نفسه مأمون حشايكة، وشقيقه أيمن حشايكة، الذي كان مساعداً للقائد أبو هنُّود.

هُرِعت سيارات الإسعاف إلى المكان، وأخذت تلملم قطع اللحم الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، ولم يعلموا بعدُ أن هذه الأشلاء هي جسد محمود أبو هنُّود، ووصل والده إلى ذلك المكان، ولكنه لم يستطع التعرف على جثة ولده، وذهب إلى مستشفى جنين، وبدأ يقلب قطع اللحم حتى استطاع أن يتعرف عليه من إصابة سابقة تركت

(١) ولد في قرية طلوزة قضاء نابلس، متزوج وأب لطفلين، كان من نشطاء الانتفاضة الأولى. أمضى ستة شهور في الاعتقال، وكان يعمل سائق تكسي، استشهد بتاريخ ٢٤/ ١١/ ٢٠٠١، وكان حينها يبلغ من العمر ٢٨ عاماً.

آثارها على جلده، وعلى الرغم من شدة المصاب، كان والده رحمه الله صابراً محتسباً، وقد تلقى هذه المصيبة بذكر الله وقراءة القرآن الكريم على أشلاء ابنه رحمه الله رحمة واسعة، وجمعنا به في عِلّيّين.

أخطاء مكّنت العدو من اغتياله

كانت تحركاتنا تحت مراقبة العدو الصهيونيّ، فعندما التقينا في الجبل قرب عصيرة الشمالية، شاهدت طائرة استطلاع تُحلق فوقنا حينما كنا بين الأشجار، فاعتقدت أن هذه الطائرة تلاحقني أنا، فسألت محمود أبو هنُّود ومهند الطاهر عنها، وهل تحركها في هذا المكان أمر حادث أم قديم معتاد؟ فقال لي أبو هنُّود: إن هذه الطائرة تُحلّق في هذا المكان منذ ثلاثة أيام، فاستغربت من عدم اكتراثه بذلك، وقلت له: لِـمَ لَـمْ تنسحب من المكان إلى الآن؟ فقال: إنه لا يحسب حساباً للقوات الجوية ولا للقوات الخاصة أثناء وجوده في الجبال.

ثم إني تركته وعدت إلى منطقة جنين، وفي الطريق أثناء عودتي راكباً السيارة، إذا بأربع طائرات مروحية «هليكوبتر» تلاحق سيارتي، تابعتِ اثنتان منهما طريق طوباس عقابا، والاثنتان الأخريان تابعتا طريق الفارعة سيريس، وممّا أكدّ ظنوني بأن هذه الطائرات تلاحقني أنّني عندما وصلت قرية عقابا شمال طوباس نزلت من السيارة لأُضلّل الطائرات، ودخلت تحت إحدى البنايات، وتابع السائق طريقه وكأنني بداخلها، وتوجه نحو بيته في طوباس زيادة في تضليل العدو، وبقيت طائرتان تلاحقانه حتى وصل إلى بيته، فثبتت الطائرتان على ارتفاع منخفض في وضع قتاليّ فوق منزله لمدة عشر دقائق تقريباً، ثم انسحبتا وعادتا بعد أن تيقنتا أن الهدف الذي يريدونه غير موجود في البيت الذي وصلت إليه السيارة.

لم يكترث محمود رحمه الله تعالى لتلك الطائرة، وكان ذلك خطأً أمنياً، فالانسحاب من المكان بعد هذه التحركات كان ضرورياً، وقد كنت متخوّفاً من تحركات طائرة الاستطلاع تلك، فعزمت على أن أعود إلى محمود لآخذه إلى مكان أكثر أمناً لأبعده عن أنظار العدو، ولكن الله سبحانه أراد أن يصطفيه إلى جواره، واستشهد قبل وصولي إليه.

ومن الأخطاء التي أوصلت إلى استشهاده رحمه الله هو عودته إلى اللقاءات المستمرة مع مساعديه السابقين، كأيمن حشايكة الذي استشهد معه؛ فقد كان أيمن مطلوباً كذلك لقوات الاحتلال و«أجهزة السلطة» معاً، ولربما كانت تحركاته مكشوفة؛ إذ إنه لم يكن يخفي تحركاته كما ينبغي.

وكثيراً ما كان أيمن يُحضر له الطعام، ويلتقي به في الأماكن التي كان يختفي فيها، وقد كان محمود من أخطر المطلوبين بالنسبة للاحتلال؛ فقد قال عنه شمعون بيرس: «من العار على دولة إسرائيل أن يبقى أبو هنُّود حياً»، وكذلك كان أيمن حشايكة مطلوباً للعدوّ، ومن بدهيات العمل الجهاديّ في مثل الظروف التي نعمل فيها أن لا يلتقي أخطر المطلوبين للاحتلال مع مطلوب آخر، فضلاً عن توالي اللّقاءات، واستخدام سيارة شقيق أيمن، بل إننا انتقلنا في إحدى المهام مستخدمين سيارة أيمن نفسه، وهذا بلا شك خطأ فادح؛ لأنه من المعروف أن كل ذلك يخضع لمراقبة الاحتلال، وأن أي خطأ في جهة سيقود من ثَمّ إلى وصول العدوّ إلى الهدف الذي يرمي إليه.

ولعل عيش محمود في الجبال متخفياً كان بحدّ ذاته خطأً؛ وذلك من خلال تجربتي الشخصية في العيش مطارداً.

وأنا أنصح الملاحقين الخطرين في نظر العدو أن لا يستخدموا الجبال ملجأً ومـأوىً؛ وذلك لضيق المساحة الجغرافية التي يتحركون فيها، ولقلة الغابات

والأشجار، وكثرة الطرق التي يمكن أن توصل إليهم، وتطور سلاح الجوّ عند «دولة الاحتلال»، وأعتقد أن الحياة في البيوت الآمنة خير من حياة المطاردة، إلا حينما يكون العيش في الجبال ضرورة لا بدّ منها، وهذا أمر يقدره المجاهد الملاحَقُ نفسُه.

وقبل أن أختم الحديث عن ذكرياتي مع أبو هنُّود لا بد أن أذكر أنه رحمه الله شارك في التخطيط لعمليتين باءتا بالفشل قبل إتمام الوصول إلى مكان التنفيذ.

إحداهما: عملية الاستشهاديّ ياسر عصيدة الذي قصف أثناء عودته من طولكرم بعد فشله في الدخول إلى الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨م.

والعملية الثانية: هي التي اعتقل فيها الاستشهاديّ فراس أبو شخيدم وهو في طريقه لتنفيذ عملية استشهاديّة في القدس، وقد جرى التحضير لها مع مجموعة من «كتائب القسّام» كانت قد نُظِمَت على يد أيمن حلاوة وجميل جاد الله[1] في مدينة الخليل.

لقد كان العدو الصهيوني محقّاً في عدّه للقائد محمود أبو هنُّود من أخطر الشخصيات على كيانه، فدوره أساسي بارز في العمل الجهادي، شارك قبل اعتقال

(١) ولد عام ١٩٧٦ في قرية الوجلة قضاء بيت لحم، وتوفيت والدته أثناء ولادته، فتربى في بيت خاله عوض عبد الفتاح قواسمة من مدينة الخليل، وأثناء المواجهات التي كانت تحدث في مدينة الخليل أصيب في ساقه برصاص قوات الاحتلال، فاعتقل على إثرها ولم يكن عمره يتجاوز سبعة عشر عاماً وأفرج عنه بعد عشرين يوماً. كان أحد نشطاء الانتفاضة، وفي عام ١٩٩٨ قتل «داني فارغاز» أحدَ حراس مستوطنة «كريات أربع» بعد أن استولى على سلاحه فاعتقلته «أجهزة السلطة» بعد ساعات عدة، ولكنه نجح في الهروب من السجن. ثم اعتقل مرة أخرى في الخليل بعد أن سلم نفسه، ثم نقل إلى «سجن بيتونيا» ونجح في الهروب منه للمرة الرابعة، وبعدها انضم إلى الجناح العسكري في جنين، وتعرف على أيمن حلاوة حيث درّبه على التصنيع، وعمل في منطقة شمال الضفة، وبعد عودته إلى بيت خاله حيث كان يعيش حاصرته قوة خاصة من الاحتلال، وقصفته طائراته، فاستشهد على إثر ذلك رحمه الله رحمة واسعة.

«السلطة» له في عدة عمليات، كان أهمها عمليات «محنيه يهودا»، و«بني يهودا» عام **١٩٩٧**م التي قُتل فيها خمسة وعشرون صهيونياً، وجرح مئتان آخرون.

وعلىٰ الرغم من قصر المدة التي أمضاها بعد خروجه من المعتقل وهي ما بين شهر ٨ وشهر ١١ من عام **٢٠٠١**م، وهي المدة التي دارت فيها الأحداث التي سردتها سابقاً، إلا أن هذه المدة القصيرة كانت مليئة بالبركة والخير، مثمرة ثماراً جليلة في العمل العكسري الذي أقضّ مضاجع العدو الصهيوني، مما حمله علىٰ استخدام طائراته للتخلص من هذا الجبل العظيم.

وقد شرّفني الله تعالىٰ بالردّ علىٰ اغتيال هذا القائد في «عملية حيفا» البطولية التي سيأتي الحديث عنها.

رحم الله شهيدنا البطل، وجمعنا به في جنات النعيم مع ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾.

* * *

عملية حيفا

بداية الحكاية

كنت أسعى دائباً لدراسة جغرافية الأماكن المحيطة بنابلس وجنين، وأحاول ضمَّ مجاهدين إلى الحركة في مواقع مهمة تجعل لنا أهدافاً عسكرية نستفيد منها في هاتين

المنطقتين لتنفيذ عمليات جهادية نرد بها على جرائم العدوّ الصهيونيّ الذي احتلّ الأرض والمقدّسات، ولم يراعِ حرمة، فقتل الشيوخ والنساء والأطفال، واستهدف القادة السياسيين.

ونتيجة لتجوالي في منطقة جنين تبين لي أن منطقة شرق جنين مناسبة لتكون قاعدة للعمل، منطلقاً لتنفيذ أعمال جهادية؛ فهي ذات مساحة واسعة نسبياً، ثم هي قريبة من المستوطنات ومعسكرات الاحتلال.

وكنت قد تعرفت على محمد الكرم من قرية جلقموس قضاء جنين، وذلك أثناء دراستي في «جامعة النجاح الوطنية» في نابلس، وعرضت عليه الانضمام إلى «كتائب القسّام»، تشاورنا حول إمكانية العمل الجهاديّ في منطقته، فوافق على الانضمام إلى «القسّام»، فزرته في بيته، ثم استطلعنا المنطقة، ودرسنا إمكانية العمل فيها، ثم بعد مدة استأجرنا بيتاً نستخدمُه قاعدة ننطلق منها للعمل، ومكاناً للاختفاء.

ولم يُفتْني أن أُطْلع القائد محمود أبو هنُّود والقائد أيمن حلاوة على هذا المشروع الجهاديّ، فحضرا إلى المكان، وكان بصحبتهما كل من القائد قيس عدوان، والقائد جاسر سمارو، ودرسنا المنطقة، وتجوّلنا فيها، واستكشفنا جبالها أياماً عدة كانت من أجمل أيام العمر بصحبة هؤلاء الأبطال. وكان لا بدّ من معاودة استطلاع هذه الأماكن، فاتفقت مع محمود أبو هنُّود على أن يعود مرة أخرى إلى المنطقة.

ثم توالت اللّقاءات بيني وبين محمد الكرم؛ فقد كنا نبحث حينئذ عن مجاهد مستعدٍّ لرصد الأهداف داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨م، وتوصيل استشهاديّين ينفذّون عمليات الرد على جرائم العدوّ ضد شعبنا الجريح والمحاصر.

ومن الأعمال التي قمت بها معه في شهر آب من عام ٢٠٠١م تنسيق العمل

لتنظيم خلية من منطقته تتولى تنفيذ بعض العمليات فيها، وقد وفق الله تعالى تلك الخلية فساهمت في زرع العديد من العبوات في الآليات الإسرائيلية الموجودة في المنطقة، واعترف العدو بإصابة آلياته، وأنكر الخسائر البشرية فلم يعترف بها.

كان يوسف شقيق محمد الكرم يعمل في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨م، فعرض عليّ محمد بأن يقنع شقيقه بالعمل معنا، فالتقينا بيوسف، وعرضنا عليه الفكرة، فوافق عليه، وعمل على رصد الهدف شهراً، يراقب تحركات من فيه، ليكون التنفيذ مبنياً على خطة محكمة ترفع درجة خسائر العدوّ إلى أعلى رقم ممكن.

وفي تلك الأثناء اغتالت قوات الاحتلال القائد محمود أبو هنُّود، فآلمنا فراقه، وحزنّا عليه كثيراً، وقررنا أن نردّ على هذه الجريمة بما يشفي صدور محبّيه، وبدأنا بالإعداد للهجوم.

الإعداد للعملية

بعد الإعداد والتخطيط مع يوسف الكرم توجهت إلى مدينة نابلس، واثقاً بالله سبحانه، مطمئناً إلى رعاية وتأييده، متخطياً الحواجز المتناثرة هنا وهناك، والتقيت بالقائد مهند الطاهر، وجمعني لقاء آخر القائد نسيم أبو الروس، وطلبت منه أن يُجهز حزاماً ناسفاً، وعلى الرغم من أن كل واحد منّا يعمل في دائرة خاصة به، إلا أنه كان بيننا تنسيق وتعاون، وتوزيع للمهام والأدوار، كلٌّ له دوره ومهمته .

خطة التنفيذ

لم يتوقف ذهني عن التفكير بردّ قويّ مُزَلزِلٍ منذ بدأت الانتفاضة التي سقط فيها عدد كبير من أبناء شعبنا على يد قوات الاحتلال، فكّرت ملياً في عملية كبيرة تتناسب

مع حجم جرائم العدو، وتذيقه من ويلات أذاق كثيراً منها لشعبنا المستضعف، وخطر في بالي استهداف حافلة للعدو تحوّل الراحة فيها إلى جحيم يحيط براكبيها قبل أن يصلوا إلى جحيم جهنم.

تجنيد الاستشهاديّ

التضحية بالروح ليس أمراً سهلاً على الإنسان؛ فهي أغلى ما يملك، وإذا فقدت لا يعوضها شيء من متاع الدنيا وزخرفها، غير أن هذا الأمر الشاق على الأنفس يهون عند شباب مؤمن بربه، مقتنع بحقه في أرضه ومقدساته، يرى جرائم الاحتلال فيستشيط غضباً، ويجعل منها وقوداً يشعل لهيب النخوة في نفوس أبناء الشعب الفلسطيني، ويدفعهم إلى التضحية بأنفسهم، وبذلها رخيصة في سبيل تحرير وطنهم السليب، فالشهداء والاستشهاديّون هم الأبطال من هذا الشعب الجريح، الذين باعوا أرواحهم من أجل صناعة حياة عزيزة كريمة للمسلمين من أبناء هذا الوطن، فهم يموتون ليحيا غيرهم على هذه الأرض، وليحيوا هم حياة خيراً من هذه الحياة في جنة الله سبحانه وتعالى.

بعد أن اتفقت مع القائد مهند الطاهر على تجنيد الاستشهاديّ طلب من محمد الحنبلي ـ وكان مساعداً له ـ أن يبحث عن شاب مستعدّ لهذه المهمة، قادر على تنفيذ العملية الاستشهادية، فطلب محمد من أيمن الشخشير أن يجنّد ماهر حبيشة[1] من مدينة نابلس، وجلس الاستشهاديّ مع مهند الطاهر، وجهّز البيان العسكري للعملية، وصوّر الاستشهاديّ بالفيديو وهو يقرأ وصيّته، وكنت قد اتفقت مع مهند الطاهر على آلية العملية، ومكان استقبال الاستشهاديّ في مدينة جنين.

---

(١) ولد ماهر محيي الدين كامل حبيشة بتاريخ ٢٦/ ١/ ١٩٨١م بمدينة نابلس، وتلقى دراسته الثانوية في المدرسة الصناعية، وكان أمير الكتلة الإسلامية فيها، وهو صديق أحمد عبد الجوّاد وعماد زبيدي.

كان القائد نسيم أبو الروس يدير مختبراً لصناعة المتفجرات، وكان يعمل معه في هذا المختبر مهندسان من مجاهدي «القسّام» هما كريم مفارجة، وعلي الحضيري[١]، فالتقيت به، وخلال ساعات تسلّمت منه الحزام الناسف.

في اليوم التالي توجهت إلى جنين على الرغم من الحصار وإغلاق المداخل، واستطعت بتوفيق من الله تعالى أن أصل بسلام، فذهبت إلى جلقموس بلدة الأخوين محمد ويوسف الكرم وكانت هادئة وادعة، وبعثت محمد الكرم إلى المكان المتفق عليه لاستقبال الاستشهاديّ ماهر حبيشه بناء على اتفاق مع مهند الطاهر، فالتقى به في جنين، ويسر الله سبحانه وصولهما إلى البيت الذي كنا نختفي فيه.

وفي منتصف ليلة السبت ١/ ١٢/ ٢٠٠١م هزت ثلاثة انفجارات مدينة القدس المحتلة، حيث إن استشهاديين وسيارة ثالثة مفخخة انفجروا بشكل متوالٍ الواحد تلو الآخر ، مما أوقع اثني عشر قتيلاً وما يزيد عن مئة وسبعين جريحاً بينهم عشرة في حالة خطيرة جداً.

وبعد ساعات قليلة من وصولهم أُعلن عن فرض طوق أمنيّ شديد جداً على منطقة جنين، وأغلقت الطرق الرئيسة المؤدية إلى المنطقة كافّة.

وفي الصباح تشاورنا في تأجيل موعد العملية بسبب هذا التطور المفاجئ، فاتفقنا على أن ننظر في إمكانية سلوك الطرق الفرعية لتنفيذ العملية، فاستطلع لنا

---

(١) ولد بمدينة طولكرم بتاريخ ٢٨/ ٤/ ١٩٧٧م، وأصله من مدينة يافا. درس في مدارس طولكرم، وعُرف بنشاطه المسجدي. التحق بكلية الهندسة في جامعة النجاح، وكان أحد الناشطين في الجامعة. استشهد بتاريخ ٣/ ٥/ ٢٠٠٢م بعد معركة بطولية قتل فيها ضابطين إسرائيليين وجرح العشرات. وهو شقيق الشهيد عامر الحضيري الذي اغتالته القوات الصهيونية بقصف سيارته بالصواريخ في طولكرم أثناء تحضيرية للقيام بعملية جهادية بتاريخ ٥/ ٨/ ٢٠٠١م.

يوسف الكرم الطرق الموصلة، وعاد ليخبرنا بأنه يمكن الوصول عبر طرق فرعية.

وكان لا بد من الإسراع بالعملية قبل أن تحدث تطورات أخرى تحول بيننا وبين ما كنا نخطط له، ولم يمضِ نصف ساعة حتى اتُّخذ القرار.

في الليلة التي سبقت تنفيذ العملية جلسنا معاً، فأكلنا وشربنا، ودارت بيننا أحاديث كثيرة، وقد أدهشني إصراره على تنفيذ العملية، وعزمه الذي لم يخالطه أدنى تردّد، فعندما سألته إن كان يفكر بالتراجع عن التنفيذ بسبب الأوضاع الأمنية أجابني إجابة الواثق التي لا مكان عنده للقلق قائلاً: أياً كانت الظروف، وفي كل الأحوال سأذهب للتنفيذ، وسأنال من العدو.

وفي يوم الأحد ٢/ ١٢/ ٢٠٠١م ألبست الاستشهاديّ الحزام الناسف، وأرشدته إلى كيفية استخدامه، وكيفية تنفيذ الهجوم، وشرحت له كيف يتصرف، وكيف يقطع تذكرة الركوب، وبيّنت له بأن المكان المناسب لتفجير نفسه أن يكون في الثلث الأول من حافلة، موجهاً ظهره إلى الركاب، وعندها يفجر نفسه؛ إذ إن قوة الانفجار عندئذ مؤثرة تأثيراً قوياً، والشظايا تكون مندفعة موجهة إلى أكثر من ثلثي الركاب، وكان ما خططنا له ونفذ ما أرشدته إليه، وما وصفته حول الوضعية التي يكون عليها الحزام.

وحرصت أن لا يثير مظهر الاستشهادي شكوك «قوات أمن الاحتلال»، فوضعت الحزام بطريقة غير تقليدية، وجعلت نصفه على خصره من الجانبين، والنصف الآخر على ظهره؛ وبذلك يكون رداؤه الجاكيت مفتوحاً، فلا يخطر على بال العدو أنه يخفي شيئاً تحته، وإتماماً للتمويه وإبعاد الشكوك حلق الأخ المجاهد محمد الكرم لحية الاستشهاديّ البطل، واستأجرنا سيارة نقل عامة تاكسي، وودعناه، وطلبنا منه الشفاعة لنا عند الله سبحانه وتعالى.

لقد أذهلني ما رأيته من صفاء نفسه، وهدوء مشاعره، ورسوخ قناعته بالقضية التي يضحي بنفسه لأجلها، وأيقنت حينها أنني أمام شخصية ملائكية، كأنها ليست من عالمنا، وإنما أتت إلينا من عالم آخر، شخصية هادئة راسخة، ونفس شامخة شموخ الجبال الراسيات، ذهب إلى تنفيذ العملية وكأنه ذاهب في نزهة، فركب السيارة، وأشار لي ملوحاً بيده والابتسامة لا تفارق محياه.

لقد نال شهيدنا مراده، وزف عروساً إلى عروس الشمال حيفا، وبفضل الله وتوفيقه استطاع الوصول إلى الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨م عبر الطرق الفرعية، فعلى الرغم من التشديد الأمني الذي فرضه الاحتلال ليمنع وصول المجاهدين فقد وجد الأبطال لهم حيلاً يستطيعون الوصول من خلالها إلى أهدافهم، وحينما صعد يوسف الكرم وماهر حبيشة إلى سيارة التاكسي تظاهرا بأنهما ذاهبان إلى قرية «عانين» للتدريس فيها، فكان ذلك غطاء أمنياً أبعد الشبهة عنهما، وبعد دخولهما إلى الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨م وصعودهما إلى السيارة تظاهرا بأنهما من العمال.

غير أنه وقعت هفوة أمنية في رحلتهما هذه؛ فقد كان الاتفاق بينهما على التظاهر بأنه لا معرفة سابقة بينهما، غير أن الاستشهاديّ أخذته غفوة من نوم وهو راكب في السيارة، ولم يستيقظ حتى وصلا إلى الهدف، فاضطر يوسف إلى إيقاظه، وإعلامه بأنهما وصلا، فأثار ذلك شكوك صاحب «التاكسي»، وكان رجلاً جباناً، فبادر إلى إبلاغ الاحتلال بأنه نقل اثنين في سيارته متظاهرين بأنهما من العمال، وأخبر بما راوده من شكوك حول التخطيط لتنفيذ عملية ما.

ونتيجة لوصف صاحب السيارة لشخصيهما تعرفت «أجهزة أمن الاحتلال» بعد تنفيذ العملية على شخصية يوسف الكرم، ودخلت قوات الاحتلال في عملية خاصة إلى بلدة جلقموس المصنفة (أ)، واختطفت محمداً ويوسف الكرم، وخضعا لتحقيق

وحشي قاسٍ، ثم أخضعا لتحقيق عسكري، وأدينا نتيجة لذلك التحقيق، وحكم عليهما بخمسة عشر مؤبداً، ثم يسر الله سبحانه الإفراج عنهما في صفقة وفاء الأحرار.

لقد نجحت العملية بفضل الله تعالى، وآتت أكلها كما كان مخططاً لها، فقد أنزلت الرعب في قلوب الصهاينة، حتى إن أحدهم شهد عبر إذاعة العدو ـ وكان ممن شاهد الانفجار ـ بأنه رأى الحافلة ترتفع في الهواء من قوة الانفجار، وتسقط في مسار آخر من الشارع، وتصطدم بحافلة وسيارات أخرى.

وبعد تنفيذ العملية أعطيت إشارة الموافقة على نشر الشريط المصور للشهيد ماهر حبيشة رحمه الله تعالى وهو يقرأ وصيته قبل تنفيذ العملية.

هستيريا ردود الأفعال

ما من شك في أن العملية كانت صفعة قوية وُجّهت إلى كيان العدو، ولذلك أُصيب بحالة أشبه ما تكون بالهستيريا، فقد قامت قوات الاحتلال بفرض حصار خانق على مدن الضفة، وقصفت طائرات العدو «مقرات الأمن للسلطة الفلسطينية»، وقصفت الأماكن والمخازن الخاصة بطائرات الرئيس ياسر عرفات.

ومما أصابني نتيجة العملية أن اقتحمت قوات الاحتلال بيت أهلي، وكسرت بعض المحتويات، وروّعت الأهل وهددتهم.

ما تميزت به «عملية حيفا»

لقد كانت هذه العملية رداً سريعاً على جرائم الاحتلال؛ حيث إنها نُفّذت بعد أسبوع من اغتيال القائد محمود أبو هنُّود، ووصفت بأنها أقوى عملية تحدث داخل حافلة منذ بداية «انتفاضة الأقصى»، وتحدث هذه الخسائر في صفوف الصهاينة حتى ذلك التاريخ.

الشهيد أيمن حلاوة
ومواقف مع الشهيد علي علان

أيمن حلاوة

علي علان

ولد أيمن حلاوة بتاريخ ١٧/ ١٠/ ١٩٧٤م، والتحق بجامعة «بيرزيت»، ودرس فيها الهندسة، وكان من المتفوقين.

واعتقل بتاريخ ١٨/ ١/ ١٩٩٨م عند حاجز زعترة وهو عائد إلى نابلس، واتّهم بأنه على علاقة مع خلية عمليات «بني يهودا» و«محنيه يهودا».

وأفرج عنه بتاريخ ٦/ ٦/ ٢٠٠٠م، وتزوج بتاريخ ٢/ ٧/ ٢٠٠٠م بابنة عمه، ورزقه الله منها بابنه عدنان.

لا تخلو السجون على الرغم مما فيها من صعاب ومحن من بعض المنافع في باب الجهاد والنضال، فقد كان «سجن شطة» و«سجن عسقلان» مكاناً أنست فيه

بالاجتماع مع أيمن حلاوة رحمه الله، وفيه تعرفنا على علي علان رحمه الله ـ الذي وصفته جريدة يديعوت أحرنوت بأنه أخطر شخصية مطلوبة في الجنوب منذ العام ١٩٧٦ـ، وكان قد اعتقل عام ١٩٩٤م، وأمضى في السجن أربع سنوات ونصف، وقد توطّدت العلاقة بين أيمن وعليّ، ودارت بينهما أحاديث عن العمل الجهاديّ الممكن تنفيذه إذا ما أُفرج عنهما.

وفي «سجن شطة» التقينا برجل من محافظات الجنوب يدعى (ع.ب)، كان من عناصر «حركة حماس» في بلدة زعترة.

كان (ع.ب) يعيش مع أيمن حلاوة في الغرفة نفسها، وفيها بدأ بالتقرب منه، وصار يُمتّن علاقته به، وحاول بعد أسابيع التقرب مني كذلك، غير أنه كان يولي اهتماماً أكثر للعلاقة مع أيمن رحمه الله، ثم إنه عرض خدماته في حال الإفراج عنه، وأخذ يشجعه على طلب مساعدته قائلاً له: «إنه يرغب أن يساهم في العمل العسكريّ، وتاريخ الإفراج عنه قريب، وهو يحمل هوية القدس، مما يتيح له التنقل بحرية، إضافة إلى أنه يملك سيارة»، وبهذا الأسلوب استطاع إقناع أيمن بالعمل معه، واتفقا على أشياء يعملونها بعد الإفراج عنه.

تحدثت مع أيمن ونحن نمشي معاً في ذلك السجن، وقد حذرته من (ع.ب)، ونصحته أن لا يخوض معه في أحاديث تتعلّق بالعمل الجهادي، إلا أنه كان يخالفني الرأي، بل إنه أثنى عليه، وكان يظنّ فيه خيراً من خلال عيشه معه في نفس الغرفة، وبقي يخوض معه في الأمور العسكرية، واستمرّت العلاقة بينهما على ما هي عليه، دون أن يعكّرها أيّ حذر.

لم تمض سوى أشهر قليلة حتى أُفرج عن كل من أيمن حلاوة وعلي علان و(ع.ب) وذلك عام ٢٠٠٠م، وفي الشهر الخامس من عام ٢٠٠١م اتصل علي

علان و(ع.ب) بأيمن، وحضرا لزيارته، إلا أنه كان مشغولاً ببعض المهام التنظيمية الضرورية، فأراد مني أن أستقبلهما وأعقد معهما اتفاقاً على لقاء في وقت آخر؛ لأنه لا يستطيع اللقاء بهما هذه المرة.

تجولت معهما في مدينة نابلس، وحرصت على القيام بواجب ضيافتهما، غير أنني لم اتجرّأ على الخوض في أيّ حديث يتعلق بالعمل العسكري؛ ذلك أنني كنت مرتاباً من (ع.ب) منذ كنا معاً في «سجن شطة»، وأُضيف إلى ذلك كله أن معلومة أمنية ـ غير مؤكَّدة ـ تشكك فيه قد وصلت مسامعي، ولم تكن هذه الشكوك قوية أستطيع بها الجزم بحاله، ولذلك توجّست منه خيفة.

في نهاية الشهر الخامس من عام ٢٠٠١م وقع انفجار في «شارع ١٠» بمدينة نابلس في الشقة التي استأجرتها، وأُصيب في ذلك الانفجار أيمن، وكانت إصابته بالغة، واكتشفت بسببه علاقتنا بالعمل العسكري.

في ذلك الوقت اتصل بي علي علان بغية ترتيب موعد جديد للالتقاء بنا في نابلس، فقلت له: إن الوضع الأمنيّ غيرُ مناسب، وأرى أن تُؤجّل اللقاء، ولم يعاود الاتصال بي ثانية تقديراً منه لخطورة الوضع الذي كنا فيه.

وأثناء وجود أيمن في المستشفى كان (ع.ب) يتصل ببيت أيمن باستمرار، ويسأل عنه ويطلب لقاءه، وكان أهل أيمن يحاولون صرفه بحجة أنه أصيب بحروق في جسمه نتيجة اشتعال الغاز في المطبخ، لكنه كان يلح في الاتصال، ويكرر السؤال عنه.

بعد أن بدأت صحة أيمن تتحسن أخذ يرتاب من حركات بعض الأشخاص المشبوهين الذين كانوا يترددون إلى غرفته في المستشفى، فطلب مني أن أسارع بالاتصال بأحمد مرشود وصلاح دروزة؛ ليعملا على إخراجه من المستشفى بأية

طريقة، فاستجبت لطلبه واتصلت بأحمد مرشود، وطلبت منه أن يحضر معه صلاح دروزة، وبعد حضورهما تكلمنا عن ضرورة إخراج أيمن من المستشفى؛ لأن الوضع فيها غير آمن، فتحركات بعض المشبوهين تقلقه، ونجحنا بفضل الله تعالى في إخراجه من المستشفى بطريقة آمنة.

وعلى الرغم من عدم شفاء أيمن شفاء تاماً، وحاجته إلى الرعاية الصحية، إلا أنه واصل جهاده وعمله، غير ملتفت إلى ما يعانيه جسمه من آلام.

وفي تلك الأثناء كنت أهيّئ مع أيمن للخروج إلى منطقة شرق جنين والعمل على إقامة بنية عسكرية هناك، وسأعود للحديث عن ذلك حديثاً مفصلاً.

وحينما كنت في جنين اتصل بي أيمن حلاوة، وكان ذلك قبل استشهاد بثلاثة أيام، وأخبرني أنه يريد الحضور إلى شرق جنين مع القائد محمود أبو هنُّود؛ لبحث بعض الأمور، ودراسة مدى إمكانية الاستفادة من هذه المنطقة، وبغية دراسة بعض الأهداف هناك، وكان لقاؤنا ذاك في جبال عصيرة الشمالية.

ثم توجّهت مع أيمن إلى طوباس وقرية جلقاموس، وتجولنا في المنطقة، وحينها أخبرني أنه التقى بعلي علان، و(ع.ب) ، وأنهما أرسلا لي تحية، وأنه قام بترتيبات معهما تتعلق بالعمل العسكريّ، وبالتخطيط لعمليات جهادية، وأخبرني عن لقاء مرتقب بينهم بعد يومين لبحث طريقة شحن الأحزمة الناسفة، وذلك بعد رصدهم مجموعه أهداف، وقد أخبرني أيمن أن (ع.ب) كان يواصل اللقاء بأهله، ويكرر طلب اللقاء به بحجته أنه صديقه، ويريد شراء أثاث من المحل التجاريّ الذي تملكه عائلة أيمن، وبعد ذلك تشجع أيمن وعقد معه موعداً للذهاب مع علي علان إلى نابلس ولقائه هناك، وجرى بينهم اتفاق على آلية العمل، وكان ذلك اللقاء في منزل كنت قد استأجرته قبل أن أذهب إلى جنين.

مكثنا سوية يوماً آخر، ثم أوصلته بسيارة إلى جبال عصيرة حيث كان القائد محمود أبو هنُّود.

تولى محمود أبو هنُّود مهمة نقله إلى نابلس، وبعد وصوله اتصلت به؛ لأطمئن على وصوله سالماً، وبعدها بيوم حين كنت جالساً مع قيس عدوان وجاسر سمارو رحمهم الله في بيت في قرية جلقاموس شرق جنين، نستمع إلى مذياع يبث «صوت فلسطين»، فوجئنا بخبر عن انفجار سيارة في نابلس نتج عنه استشهاد الشاب عزمي المصري، وكان أيمن رحمه قد أراني هوية مزوّرة تحمل الاسم ذاته، فعرفت أن أيمن قد استشهد، وأنه هو ذاته عزمي المصري الذي تحدث عنه الخبر، وكان ذلك ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠١م.

وبعد استشهاد أيمن رحمه الله اتصل بي محمود أبو هنُّود، وطلب مني توضيحاً لما حصل، وما هي المعلومات التي أملكها عن ذلك، وذكر لي أن الانفجار وقع في سيارة تحمل لوحة تسجيل صفراء (سيارة إسرائيلية) من نوع «سوبارو موديل ٨٦»، وأن شاباً اسمه علي علان أصيب مع أيمن بجراح خطيرة، فأوضحت له الأمر، وأخبرته بما لدي من معلومات، وأن السيارة للمدعو (ع.ب) ، وأنني كنت أشك فيه، وأن علي علان المجاهد المصاب بريء من هذا الاغتيال، وعندها طلب مني الحضور ليسمع مني مباشرة، فذهبت إلى جبال عصيرة، والتقيت به وشرحت له شرحاً مفصلاً، فرفع تقريراً إلى «الحركة»، وذلك بسبب صعوبة التواصل مع مركز «الحركة» من منطقة جنين.

وبعد تحقيقات أجرتها «أجهزة السلطة» كانت أصابع الاتهام تشير إلى (ع.ب) بأنه هو وراء اغتيال أيمن، وقد كان حينئذ مختفياً عن الأنظار، ولم يبرر موقفه أمام

«الحركة»، بل إن هناك معلومات تقول: إنه يعيش في القدس لغاية السنوات الأخيرة.

ثم شاء الله سبحانه أن يتعافى علي علان، وأن يقص ما حدث معهم، فبعد أن رُصِدت مواقع العمليات، واقترب موعد اللقاء في نابلس مع أيمن حلاوة رحمه الله، توجه (ع.ب) إلى علي علان، وتعلّل بأنه مشغول جداً هذه الأيام، وقد حصل على ورشة عمل جديدة، واستطاع أن يتهرب من مرافقته بحجة أنه ليس هنا حاجة إلى أن يذهب كلاهما إلى نابلس للقاء أيمن، وأنه لم يبق سوى الاتفاق معه على آليات شحن الأحزمة الناسفة، وعندئذ عرض عليه أن يأخذ سيارته ويذهب بها وحده.

وكانت قوات الاحتلال تقوم بإجراءات أمنية مشددة، فقال له علي علان: كيف أذهب في هذه الأجواء الأمنية الخطيرة، وبوجود الحواجز الصهيونية المنتشرة على الطريق، فقال (ع.ب) : إنه سأل أصدقاء له عن الطريق وعن الحواجز، فأخبروه بأنه يوجد بعض الحواجز، ولكن ليس هنالك تفتيش أو فحص للسيارات.

وقد استطاع (ع.ب) أن يقنع علي علان، فأخذ سيارته وذهب إلى نابلس، وأثناء سيره في الطريق كان الجنود في الحواجز ينظرون إلى لوحة السيارة، وإلى هويته، ويسمحون له بالمرور بسرعة دون أية عوائق، وعندما وصل إلى حاجر حوارة عند المدخل الجنوبي لمدينة نابلس سمحوا له بالمرور على الرغم من وجود حظر دخول للسيارات التي تحمل لوحة تسجيل صفراء إلى مناطق «السلطة» بناء على «اتفاقية أوسلو».

كان الاتفاق مع علي علان على أن يكون اللقاء في مدينة نابلس، في شارع جامعة النجاح، بالقرب من المستشفى التخصصي، وبناء على ذلك دخل أيمن حلاوة إلى السيارة، وجلس إلى جانب علي علان، ولم تمض سوى بضع ثوانٍ حتى انفجرت فيهم السيارة، وأصيب أيمن بجروح خطيرة جداً، وكان ظهره أكثر تضرراً بحسب

ما أخبرني أحد الذين شاهدوه؛ فقد كانت العبوة موضوعة أسفل ظهر الكرسي، وقد وصلت إصابته إلى درجة أن أمعاءه قد خرجت من بطنه، ولكنه لم يتوقف عن ذكر الله سبحانه حتى لفظ أنفاسه الأخير، رحمه الله رحمة واسعة.

وأما علي علان فأصيب إصابة خطيرة، نقل على إثرها إلى المستشفى تحت حراسة «أجهزة السلطة»، ولم تلبث حالته الصحية تتحسن حتى بدأت «أجهزة السلطة» التحقيق معه، ثم اعتقلته بعد ذلك، وأثناء وجوده في «معتقلات السلطة» تمكن من إرسال رسالة إليّ أذكر منها بعد التحيات والسلامات أنه أقسم بالثأر لدماء الشهيد أبي عدنان أيمن حلاوة، رحمه الله.

وقد برّ بقسمه ذاك، فبعد أشهر قليلة أُفرج عنه، وشارك في تنفيذ ثلاث عمليات على الأقل، قتل فيها قرابة خمسة وأربعين صهيونياً في القدس بالإضافة إلى جرح عشرات الصهاينة، وشارك كذلك في اشتباكين قُتل فيهما ضابطان، وجُرح عدة جنود.

وعند بداية عملية «السور الواقي» التي شنّها الاحتلال في نهاية شهر آذار من عام **٢٠٠٢**م أفرجت «السلطة» عن علي علان، فاحتضنه مجاهدو «كتائب القسّام» بمدينة نابلس، وقام القائد مهند الطاهر بتدريبه ودمجه في العمل العسكريّ، وأصبح من خبراء المتفجرات في «الكتائب».

وبعد اجتياح مدينة نابلس بأسابيع تقريباً، وفي شهر أيار من عام **٢٠٠٢**م اقتحم جنود الاحتلال بنايةً وسط مدينة نابلس كان يستخدمها مهند الطاهر وعلي حضيري وعلي علان وأيمن الشخشير، وقد جعلوا من الطابق الثاني ـ الذي كان مخيطة ـ مختبراً لصناعة المتفجرات.

وعند تقدم الجنود باتجاه البناية انتبه الإخوة إلى تحركاتهم، فاستعدوا للمواجهة،

وما إن فتح الجنود باب البناية حتىٰ عاجلهم الشهداء بصليات من الرصاص، فقتلوا منهم ضابطاً، وأصابوا أربعة جنود، فانسحب الجنود من مدخل البناية وتمركزت دبابة مقابلها، وأخذت تقصفها، فانهار جزء منها، وأصيب علي الحضيري إصابة خطيرة، وأُصيب كذلك مهند الطاهر وعلي علان إصابة خفيفة، وكانت سببُ نجاتهما من الموت وجودُ بعض الأغراض التي ساعدت في حمايتهم من سقوط الجدار عليهم.

حاول مهند الطاهر وعلي علان إنقاذ علي الحضيري بعد إصابته، غير أنهم لم يستطيعوا لأن إصابته كانت بالغة، وقبل أن ترتقي روحه إلىٰ بارئها استطاع الاتصال بوالديه، وودّعهم، وطلب منهم الدعاء له والرضا عليه ومسامحته، وكان مما قال لهم رحمه الله: إن اللقاء معه إن شاء الله سيكون في الجنان.

وبعد ذلك استطاعا بفضل الله تدارك الموقف، فقفزا إلىٰ البلدة القديمة، وتخلصا من قوات الاحتلال، غير أنهما عاشا مدة من الزمان تعد من أصعب الأوقات، بسبب تكرر اجتياح قوات الاحتلال للمنطقة، والملاحقة المستمرة لهما، حتىٰ إن الصهاينة كادوا ذات مرة أن ينجحوا في اغتيالهم في جبال قرية جمّاعين جنوب غرب نابلس، غير أن لطف الله سبحانه أنجاهما هذه المرة أيضاً.

وفي تلك الأثناء اتفقا بعد تشاور علىٰ خروج علي علان من نابلس إلىٰ بيت لحم مسقطِ رأسه؛ بغية تفعيل العمل العسكريّ، وعلىٰ أن يكون ذلك بالتنسيق مع القائد مهند الطاهر، وأعطي هوية مزيّفة لسهولة انتقاله، وكان في انتقاله خيراً علىٰ العمل في تلك المنطقة؛ فقد اصطحب معه إلىٰ بيت لحم مجموعة من الأفلام المصورة، صورها أيمن حلاوة ومهند الطاهر، وجهزاها في أقراص مدمجة (CD)، فيها الكثير من المعلومات عن تصنيع المتفجرات، وقد عمل علىٰ نشرها بين أوساط المجاهدين في بيت لحم، واستفادت منها العديد من «الخلايا».

كان الهدف من تصوير تلك الأفلام هو الحفاظ على تراكم الخبرات في مجال التصنيع، فقد كان ضعف الخبرة في تصنيع المتفجرات من المشاكل الأساسية التي يعاني منها العمل العسكري، وكان هذا الضعف سببه في الغالب الاجتياحات والاغتيالات المستمرة التي تطال أبناء «القسام»، فلا يستفيد الناشئون من خبرات الكبار ومعارفهم، ولا يستفيدون من أخطاء وإخفاقات تجارب السابقين، وعلى الأخص في الضفة الغربية، وهذا الأمر كان من أهم الفوارق بين العمل في الضفة وغزة؛ إذ إن غزة كانت أكثر تطوراً، تقدم فيها العمل تقدماً نوعياً في المدة الأخيرة.

وعند وصوله إلى بيت لحم، قدم له ثلاثة من المجاهدين عدة خدمات يسرت عليه الاختفاء والتنقل، هؤلاء الأبطال هم محمد عواد، وماجد قراقع، وخليل مسلم، وبفضل هذه الجهود استطاع علي علان بعد أن وصل إلى بيت لحم ومخيم عايدة أن يُشكل مجموعات عسكرية عدة، وكانت «عملية جيلو» الاستشهاديّة في القدس من الثمار الأولى لانطلاقة عمله، فهو السبب في انضمام المجاهد رمضان مشاهرة إلى العمل، وبهذه التهمة ـ يعني تنظيم المجاهد ـ حكم عليه بتسعة عشر مؤبداً؛ فرمضان هذا هو الذي نقل الاستشهاديّ منفّذ العملية.

وقد أرسل مهند الطاهر بالتنسيق مع علي علان الحزامَ الناسفَ من نابلس إلى إحدى البلدات المحيطة بالقدس، وكذلك الاستشهاديّ محمد هزاع [1]، وكانت تلك العملية موفقة، قُتل فيها عشرون صهيونياً بعد أن فجّر الاستشهاديّ نفسه داخل حافلة في ضاحية «جيلو» جنوب شرق القدس المحتلة .

---

(١) ولد بمخيم الفارعة شرق نابلس، عام ١٩٧٨م لأسرة متدينة محافظة، وكان أحد نشطاء منطقته، وأحد نشطاء «الكتلة» في «جامعة النجاح». وهو حافظ لكتاب الله، تخرج في كلية الشريعة والتحق بكلية الدراسات العليا، عرف بورعه وهدوئه، وهو منفّذ «عملية غيلو» الاستشهادية بتاريخ ١٨/ ٦/ ٢٠٠٢م.

وبعد استشهاد القائد مهند الطاهر انقطع الاتصال بين علي علان و«كتائب القسّام» في نابلس.

ولكنه استطاع بعد ذلك أن يخطط وينفذ عمليتين استشهاديّتين في القدس المحتلة، كانت نتيجتهما قَتْل قرابة خمسة وعشرين صهيونياً، وجرح العشرات منهم، لكن السبل تقطّعت به بسبب الأوضاع الأمنية الصعبة، وانقطاع التمويل، فتوجه إلى محافظة الخليل، واستفادت مجموعات «القسّام» من خبرته في التصنيع.

وممن استفاد من خبرته مجموعة الأسير مجدي عمرو من بلدة دورة جنوبي الخليل، إذ إنها استطاعت أن تنفّذ عملية استشهاديّة قتل فيها سبعة عشر صهيونياً، وجُرح العشرات منهم.

وشاءت إرادة الله سبحانه أن يكون استشهاده في بيت لحم، فبعد أن مكث في الخليل مدة من الزمن عاد إلى بيت لحم، وأثناء وجوده في إحدى القرى هناك جاءت قوات الاحتلال لتفتيش البيت الذي كان فيه، فاشتبك معهم، وتمكن من قتل ضابط صهيوني وجَرْح آخرين، وأكرمه الله بالشهادة مقبلاً غير مدبِر، بعد رحلة من الجهاد والعطاء، رحمه الله رحمة واسعة.

لقد كان يعشق الجهاد والمقاومة، وكان دائماً يردد مقولته: «ما أحلى العذاب في سبيل الله!».. لقد صَدَقَ اللهَ فصَدَقَه الله.

لم تضع تضحيات أولئك الشهداء هباء، ولم تذهب جهودهم سدى، فكان منها ثمار يانعة، وصارت غراسهم شجرات باسقات، وكانت تلك الدماء الطاهرة رواءً لتلك الغراس المثمرات.

❊ ❊ ❊

الغطاء السياسي والمالي

شاءت إرادة الله أن أعتقل، وألتقي بأيمن حلاوة في سجون الاحتلال، وأن يكون السجن المكان الذي تولد فيه صداقتنا، فكنا نتبادل فيه الحديث حول المقاومة والعمل الجهادي.

كنت طيلة مدة اعتقالي أحاول التعرف على كبار المجاهدين في السجن، والاستفادة من خبراتهم، والتعرف على أسباب النجاح في المجموعة، والأخطاء التي كانت وراء الإخفاقات؛ ليكون من ذلك عندي حصيلة من التجربة العملية والعسكرية.

شهور أمضيتها في الأسر مع أيمن حلاوة كانت كفيلة بأن توطد علاقتنا، وأن تفتح لنا أفقاً من التخطيط للمستقبل، ليس آخره ضرورة المشاركة في الجهاد في حال تحررنا من الأسر.

وكان ما اتفقنا عليه، فبعد أن تحررنا زارني في بيتي ثلاث مرات، ناقشنا خلالها ضرورة البدء بالعمل، وطرحنا صعوبة البدء مع عدم توفر الوسائل اللازمة، وكان يؤكد على أن الوقت ملائم لذلك، فوافقته على هذا الرأي.

وعندما عرض عليّ العمل في الجناح العسكري وإعادة تشكيله أخبرني أنه مكلف من صلاح دروزة في بناء الجناح العسكري، وقيادة «القسام»، وحدثني عن مسؤوليته الميدانية عن جميع الخطوط والخلايا العاملة في الميدان، ثم تواصلت اللقاءات بيننا، وبدأنا نحضّر للعمل.

كانت إحدىٰ مشكلاتنا الرئيسية قلة الإمكانات في جوانب عديدة: منها المال، ومنها السلاح، ومنها المواد الكيماوية، بالإضافة إلىٰ نقص الخبرة في التصنيع، غير أن تلك العقبات وغيرها الكثير قد ساعد علىٰ تذليلها التعاون، وتكاتف الجهود، ووجود عدد من الإخوة كانت عندهم خبرات سابقة، وكانوا ممن أفرج عنهم من سجون «السلطة الفلسطينية»، كالقادة مهند الطاهر، وطاهر جرارعة، ونصر عصيدة، وكريم مفارجة، وفيما بعد أفرج عن القادة نسيم أبو الروس وجاسر سمارو.

وفي شهر حزيران من عام ٢٠٠١م أفرج عن القائد محمود أبو هنُّود، واستفدنا كثيراً من خبرته وقدرته، ومن مساعديه هاني رواجبة، وأيمن حشايكة، وإياد حمادنة رحمهم الله.

وقد ساعد أحمد مرشود علىٰ الإتصال بصلاح دروزة في محافظة نابلس، وهو سبب بقاء تواصلنا معهم، وعن طريق صلاح دروزة تم فتح الخط التنظيمي، غير أن الاتصال به لم يكن مباشراً، وإنما عبر نقطه ميتة، ثم فيما بعد كشف لنا عن نفسه، وتواصل معنا مباشرة، وقد زودني أنا وأيمن حلاوة بأسلحة الحماية الشخصية في بداية المقاومة.

كان العمل مع القائد صلاح دروزة يسير بناء علىٰ الاتصال غير المباشر به، وذلك عبر ما نُسميه بـ«نقطة ميتة»، وكل فريق له خط منفصل عن الآخر في الاتصال به، فكنت أنا وأيمن حلاوة نشكل خط اتصال، وكان مهند الطاهر، وطاهر جرارعة، ونصر الدين عصيدة يشكلون خطاً آخر، وكان لكل منا نقطة ميتة نتواصل عبرها معه.

وقد تسلّمنا منه في تلك المرحلة مبالغ محددة، وعدداً بسيطاً من قطع السلاح الشخصية لم تكن حينئذ تفي بالغرض.

ذهبت ذات مرة مع أيمن حلاوة إلى مكان بالقرب من مسجد السلام في مدينة نابلس، لعقد لقاء بقصد الاتفاق على الطريقة التي سنتواصل بها مع صلاح دروزة، وإذا بانفجار كبير يحدث بعيدًا عنا مسافة لا تتجاوز عشرات الأمتار، فتوجهنا نحو مكان الانفجار، وفوجئنا بأن السيارة التي حدث بها الانفجار استشهد فيها القائد إبراهيم بني عودة[1]، ولم نكن على علم سابق بوجوده في هذه المنطقة، وبدأ الناس بالتجمع، ثم توجهنا نحو السوق الأخضر، فإذا بالقائد مهند الطاهر قائم بين حشد من الشباب يعلن عن استشهاد القائد إبراهيم بني عودة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها مهند الطاهر رحمه الله.

في تلك اللحظة علمت من أيمن بأن إبراهيم بني عودة قد بدأ بالترتيب لعمل ما، وأنه تواصل مع مهند الطاهر وطاهر جرارعة ونصر الدين عصيدة، وحصلوا من الشيخ يوسف السُّرَكْجيّ على مبلغ من المال يقدر بأربعة عشر ألف دولار من أجل البدء بالعمل.

وبعد أن تم تفعيل الخط التنظيمي مع صلاح دروزة رحمه الله بدأ التمويل يزداد، وأخذت الإمكانات تتوفر بالتدريج، وبدأت نتائج هذه الجهود تظهر على شكل عمليات استشهادية، وعبوات جانبية في منطقة نابلس، وفي الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨م.

---

(١) ولد في الكويت عام ١٩٦٥، لأسرة محافظة، ترعرع في المساجد، وأتم دراسته الابتدائية والثانوية في الكويت، ثم انتقل مع عائلته للعيش في الأردن عام ١٩٨٣. أنهى دراسته الثانوية بتفوق، ودرس الشريعة الإسلامية في الجامعة الأردنية، وتتلمذ على يد الدكتور عبد الله عزام، وتخرج فيها بامتياز عام ١٩٨٧. تزوج من إحدى قريباته، فقدمت له زوجه طلباً يسمح له بدخول فلسطين. اعتقلته «السلطة» بعد دخوله الضفة بتهمة الإعداد للعمليات عام ١٩٩٨ بسبب اعتراف ضده، وأمضى في «سجن الجنيد» سنتين كاملتين حتى أفرج عنه بعد قصف مقرات «السلطة»، فعاد من جديد وجدد نشاطه، حتى اغتيل بتاريخ ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٠.

كانت «الحركة» حريصة على الحفاظ على الغطاء السياسي في محافظة نابلس والشمال بشكل عام عبر قياداتها ورموزها كجمال منصور، وصلاح دروزة، وجمال سليم، جمال أبو الهيجا، وعباس السيد، وطلال الباز، وكان ذلك من الأمور المهمة التي ساعدت على تطور العمل، وزيادة فاعليته.

وكان القائد جمال منصور له تأثير كبير على شباب «الحركة» بشكل خاص، وكان يزور المساجد ويلقي المحاضرات والخطابات لشباب المساجد، وكان يوصل ما يريد بالتورية، والأساليب غير المباشرة، ولا يتحدث بكلمات صريحة حرصاً على تحقيق ما يريده دون صدامات، وكان يحث الشباب على الاختلاط بالمقاومة من أجل زيادة العمل الجهادي.

كان يحمل الكثير من الرؤى المستقبلية للقضية ولطبيعة العمل قد لا توجد عند الكثيرين، ومن تلك الرؤى:

١ـ كان يتوقع فشل إتفاقية ومسار أوسلو.

٢ـ كان يتوقع حدوث الانتفاضة الثانية، وكان يقول: إن هذه الانتفاضة ستتواصل حتى تحقيق الإنجاز، ولن يستطيع أحد إيقافها.

وقد تحققت وجهة نظره تلك، واستمرت الانتفاضة إلى أن تحقق الإنجاز بالانسحاب من غزة.

٣ـ فيما يتعلق ياسر عرفات ومستقبله، فقد كان يتوقع أن شخصية أبو عمار وتركيبته لن تجعله يستمر لأداء دور أمني دون إنجاز سياسي، وقد صدق ما توقعه، حيث حاول أبو عمار أن يصعّد العمل العسكري لـ«فتح»، وذلك عبر تشكيل «كتائب شهداء الأقصى».

وهذا الأمر وضعه أمام خيارين صعبين: فإما أن يتنازل مرة أخرىٰ لإسرائيل، وإما أن يوقف مسلسل التنازل، وذلك لوصوله لقناعة بأن اليهود لا تصلح معهم المفاوضات، والدليل علىٰ ذلك فشلها، وعدم تحقيق أية مكاسب سياسية، وقد اختار المواجهة مع الصهاينة.

٤ـ هو صاحب نظرية الجهوزية الدائمة في الضفة الغربية في كل وقت، وذلك يعني أنه كان يرىٰ ضرورة أن تبقىٰ «حماس»، وعلىٰ الأخص الجهاز العسكري في أعلىٰ درجات الجهوزية والاستعداد الدائم في فلسيطين بشكل عام، وفي الضفة الغربية بشكل خاص.

٥ـ هو صاحب نظرية لكل قوي نقطة ضعف، ولكل ضعيف نقطة قوة، فإذا التقت نقطة ضعف القوي مع نقطة قوة الضعيف كانت الغَلبة للضعيف.

وكذلك كان للشهيد جمال سليم تأثير كبير علىٰ شباب «الحركة»، وقد حدثني أحد المجاهدين عن تأثيره المباشر علىٰ الدخول بقوة في الانتفاضة بكل أشكال العمل العسكري والشعبي، وأنه حث منطقته علىٰ العمل وتفعيل الجهاد، وكان يقول: من كان له خط فليفعل خطَّه، وكان رحمه الله يزور المناطق، ويدعوهم إلىٰ تفعيل خطوطهم التنظيمية.

لقد ساعد هذا الغطاء في تعامل شباب «الحركة» ومؤيديها مع المجاهدين والعاملين في الجناح العسكري، وعلىٰ وجه الخصوص من كان مطارداً منهم.

ولكن القيادات السياسية دفعت ثمناً باهظاً بسبب توفيرها هذا الغطاء السياسي للمجاهدين، فقد اغتالت قواتُ الاحتلال جمال سليم، وجمال منصور، وصلاح دروزة بعملية غادرة، وكان هذا الاغتيال انتقاماً منهم لدورهم الهام في دعم المقاومة، ورسالة في الوقت نفسه لقيادات «الحركة» في المناطق الأخرىٰ مفادها أن للعمل العسكري ثمناً باهظاً ستدفعونه في حال تفعيل العمل في مناطقكم.

بعد استشهاد القائد صلاح دروزة استمر نقل الأموال والرسائل عبر نفس النقاط الميتة، وكان الذي ينقل الرسائل والأموال بيننا ـ أعني: نحن قيادة الميدان ـ وبين القيادة في الخارج يحمل اسماً حركياً، هو «راشد»، وبعد شهور تبين أثناء التحقيقات أن هذا الأخ هو حسام بدران، وحكم في هذه القضية بثمانية عشر عاماً، ثم أكرمه الله بالإفراج عنه في صفقة وفاء الأحرار.

بالتشاور مع راشد والشيخ يوسف السوركجي ومحمود أبو هنود وأيمن حلاوة، حدث ترتيب جديد للخطوط التنظيمية لعدد من القادة الميدانيين حتى يكون العمل أكثر أمناً وترتيباً ولا تتضرر أي من المجموعات إذا حدثت أي ضربة، فمثلاً أصبح نسيم أبو الروس له خط اتصال مستقل عن مهند الطاهر وطاهر جرارعة ونصر عصيدة، حيث أصبح لهم خط مستقل كذلك، وأنا كذلك كنت أعمل إلى جانب أيمن فاستحدث لي خط اتصال لوحدي.

وحسب لوائح الاتهام كان هناك خط مستقل مع أمجد السائح وكان لقبه الحركي (سعيد).

ومن ضمن أعماله: مشاورات أمنية حول تجنيد عدد من المجاهدين لتزكيتهم والسؤال عنهم، ونقل أموال من الخارج إلى القادة الميدانيين وتزويدهم بعدد من الأسلحة، واستقبال إخوة من الخارج لنقل التدريب والرسائل والكراسات والإرشادات الأمنية والأقراص المدمجة، وتوجيهات سياسية للتنسيق الأنسب للعمل مثل قرار وقف الأعمال داخل أراضي ٤٨ بعد أحداث ١١ سبتمبر.

❊ ❊ ❊

الشهيد القائد نصر جرار
وعمله مع الأسيرين عصام ومحمد جرار

نصر جرار

عصام جرار

ولد القائد نصر جرار في ١/ ١/ ١٩٥٨م في مخيم جنين، والتحق بمدارس جنين فدرس فيها الثانوية.

اعتقل في ١٨/ ٤/ ١٩٧٨م إثر مهاجمته لموقع عسكري، وحكم عليه بالسجن عشر سنوات بتهمة مقاومة الاحتلال، فأمضى سنواته العشر في السجون، وكان أول من أسس «الجماعة الإسلامية» داخل السجون، وخرج من الأسر عام ١٩٨٨م مع بدء الانتفاضة ليلتحق بها.

وعمل موظفاً في لجنة الزكاة في قسم رعاية الأيتام والمسنين، فكان يعطف عليهم ويخدمهم.

ثم اعتقل عام ١٩٩٤م، وأمضى أربع سنوات في الأسر ما بين التحقيق والسجن الإداري دون تهمة، وأفرج عنه عام ١٩٩٨م فعاد والتحق بالمقاومة مجدداً، وفي عام ٢٠٠٠م داهمت منزله قوة خاصة من جنود الاحتلال تريد اغتياله، ولكن محاولتهم تلك باءت بالفشل، وأنجاه الله تعالى من بين أيديهم.

التحق الأخوان عصام ومحمد جرار بالجناح العسكري لحركة «حماس» في بداية انتفاضة الأقصى، وكان ذلك عبر أحد القادة السياسيين في جنين، نسأل الله أن يفرج عنه ما هو فيه من ابتلاء الأسر والاعتقال.

وقد ابتدأ عملهما بالتدريب والمساعدة، ونقل وإيواء المجاهدين، وإيجاد أرضية لانطلاق العمليات الاستشهادية، وغيرها من عمليات المقاومة، وقد شكلت جنين مكان تجمع كبير للمجاهدين المطاردين من أغلب مناطق الضفة الغربية.

ثم جرى تدريبهما على صناعة المتفجرات والصواريخ وعمليات إطلاق النار، وإعداد الأحزمة والعبوات الناسفة، وكان ذلك على يد قيس عدوان، ونزيه

أبو السباع[١]، وجميل جاد الله، وسائد عواد[٢]، وكان هؤلاء قد تدربوا على يد أيمن حلاوة وجاسر سمارو.

وقد تم في تلك الفترة التخطيط والتنفيذ لعدة عمليات جهادية منها عملية «نهاريا» التي نفذها الاستشهادي محمد شاكر حبيشي والعملية التي نفذها الاستشهادي شادي الطوباسي[٣]، والعديد من العمليات الأخرى في منطقة جنين، ومنها عملية «معسكر تياسير» في جنين التي نفذها الاستشهاديان صالح محمد كميل[٤] وأحمد

(١) ولد بمخيم جنين عام **١٩٧٢م**، ودرس في مدارسها، والتحق بـ«جامعة أبو ديس»؛ ودرس الهندسة الكيميائية، واعتقل عام **١٩٩٠م ستة أشهر** بتهمة المشاركة في فعاليات «حماس»، وفي عام **١٩٩٢** اعتقل مرة أخرى وخضع للتحقيق ثم أفرج عنه، ثم اعتقل عام **١٩٩٤**، وأمضى ثلاث سنوات بتهمة الفعاليات العسكرية في حركة «حماس»، وبعد الإفراج عنه عاد إلى جامعته، وأصبح أمير «الكتلة الإسلامية»، عمل أستاذاً في مدرسة الإيمان بجنين، استشهد بتاريخ **١٦/ ٢/ ٢٠٠٢** بعد تفجير سيارة مفخخة بالقرب منه.

(٢) ولد بمخيم الشاغورة برفح عام **١٩٧٧**، وعاش طفولته فيها، ثم انتقل مع أسرته إلى الضفة الغربية عام **١٩٨٣م**، وسكن مخيم طولكرم، ولازم المسجد. شارك في الانتفاضة الأولى واعتقل عام **١٩٨٧** على الرغم من صغر سنه. وفي **١٩٩٤** اعتقله الاحتلال أربع سنوات على خلفية نشاطه في الانتفاضة، ثم اعتقل عام **١٩٩٨** ثلاثة عشر شهراً لدى «السلطة»، وفي مطلع عام **٢٠٠٠م** تزوج ورزق بطفله حمزة، وفي عام **٢٠٠١** أصيب بطلق ناري. استشهد يوم الجمعة الموافق **٥/ ٤/ ٢٠٠٢** في بيت منقذ صوافطة بعد محاصرتهم من القوات الخاصة.

(٣) ولد بمخيم جنين عام **١٩٧٨م** لعائلة مجاهدة. عمل في مناطق **١٩٤٨** مع والده، واعتقل عام **١٩٩٧**. استشهد في **٣١/ ٣/ ٢٠٠٢** على إثر تنفيذ «عملية مطعم ماتسا» في حيفا، فأوصل العشرات من الصهاينة إلى جهنم وبئس المصير.

(٤) ولد بقباطية عام **١٩٧٤**، ونشط في الانتفاضة في «مجموعات الفهد الأسود»، واعتقل عام **١٩٩٠**، وأفرج عنه بعد ثلاث شهور، وفي نهاية عام **١٩٩٠م** اشتبك مع قوات الاحتلال واستطاعت القوات الخاصة أن تعتقله وحكمت عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، أمضى منها خمس سنوات، ثم أفرج عنه مع قدوم «السلطة»، ثم اعتقلته «السلطة» عام **١٩٩٧** مرة أخرى، وأفرج عنه بعد عامين فانضم إلى صفوف «القسام». كان موعده مع الشهادة بتاريخ **١٩/ ٣/ ٢٠٠٢**.

عتيق[١]، بالإضافة إلى عدة عمليات على الطرق الالتفافية، وتفجير عدة عبوات أدت إلى جرح وقتل عدد من الجنود الصهاينة.

بعد استشهاد عدد من الإخوة واعتقال آخرين على إثر اجتياح مخيم جنين، وعلى الرغم من صعوبة الظروف، استأنف المجاهدون العمل العسكري في جنين، وكان نصر جرار وعصام ومحمد جرار هم القائمون على ذلك، فقاموا بإنشاء خلايا في جنين مرتبطة بهم وبإخوة آخرين.

عاد العمل نشيطاً من جديد، وعاد تصنيع المتفجرات، وإعداد الاستشهاديين، وتجهيز الصواريخ التي كانت في مراحلها الأخيرة حينذاك؛ لقصفها على المغتصبات الصهيونية، كما قام المجاهدون بتنفيذ عدة عمليات أخرى، كإطلاق النار، وزرع العبوات في محيط جنين.

واستمر الأمر على ذلك حتى اعتقال الأَخَوَين جرار ضمن عملية عسكرية كبيرة في شهر حزيران من عام **٢٠٠٢**م، وحكم عليهما بالسجن مدى الحياة؛ لمشاركتهما في العمليات التي قتل فيها العشرات من الصهاينة، ثم أكرمهم الله سبحانه بالتحرير في صفقة وفاء الأحرار.

وقد كان لنصر الدين جرار دور في العمليات الأولى لـ «كتائب القسام» مع رفيق دربه يحيى عياش، حيث ساهم في «عملية العفولة» التي نفذها الاستشهادي رائد زكارنة[٢]، وقتل فيها ثمانية صهاينة، وجرح العشرات، بالإضافة إلى مشاركته بالعديد

---

(١) هو ابن الشيخ الداعية علي عبد القادر عتيق، ولد بقرية برقين قضاء جنين، وتربى في المساجد، وعرف بورعه وحيائه والتزامه وصيامه. درس في «جامعة القدس المفتوحة»، ونشط في «الكتلة الإسلامية». استشهد بتاريخ **١٩/ ٣/ ٢٠٠٢** وكان يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً.

(٢) ولد في بلدة قباطية عام **١٩٧٤** بين تسعة من الإخوة والأخوات، ودرس في مدارس البلدة، =

من العمليات التي لم يعرفها الناس، وتبنتها الفصائل الأخرىٰ، وما يضير الشهيد أن لا يعلم الناس ما فعله إن كان الله قد علم صدقه فيه، وكتب له الأجر الموفور عنده.

ومن المحطات المؤلمة في حياة القائد نصر جرار الإصابة البالغة التي بتر بسببها ساقاه من الأعلىٰ وإحدىٰ يديه، ولكن هذا الألم أسفر في الوقت ذاته عن صبر وعزم يذهل العقول، فقد بقي مقاوماً ومطارداً من الاحتلال بيد واحدة، وبهذه اليد أذاق الاحتلال الويلات.

وعلىٰ الرغم من الأسر والضربات المتلاحقة لم ينقطع عن العمل، ولم يُثْنه اشتدادُ الخناق حوله، سواء من الاحتلال أو «السلطة الفلسطينية»، إلىٰ أن أكرمه الله بالشهادة يوم ١٤/ ٨/ ٢٠٠٢م، وذلك بعد محاصرته في بلدة طوباس، ورفضه الاستسلام، فقد أصرّ علىٰ المقاومة، وإطلاق النار بيده الوحيدة المتبقية في جسده، وباستشهاده أنهىٰ رحلة طويلة في المقاومة أمضىٰ منها أربعة عشر عاماً في الأسر.

نسأل الله الرحمة لروحه الطاهرة، ولروح كل الشهداء، ونسأله سبحانه الحرية للأسرىٰ المجاهدين الذين ما زالوا خلف قضبان سجون الاحتلال.

* * *

= وأتم حفظ القرآن الكريم حين كان مطارداً. انضم عام ١٩٩٢ لـ «الفهد الأسود»، واعتقل مرتين في هذا العام. انضم إلىٰ حركة «حماس»، وطورد واعتقل مرة أخرىٰ عام ١٩٩٣، وأمضىٰ سبعين يوماً في التحقيق. استشهد بتاريخ ٦/ ٤/ ١٩٩٤.

المجاهدون المطارَدون
صور ومواقف أثناء المطاردة

لا بد لنا عند الحديث عن المطاردة من التطرق إلى المعاناة الكبيرة، والثمن الباهظ الذي قد يدفعه المقاوِم الذي قرر أن يمضي في طريق تحرير فلسطين، فالاحتمالات أمامه محصورة بين الاستشهاد والاعتقال والمطاردة من قوات الاحتلال.

والمطاردة في فلسطين صعبة للغاية، والخطأ الأول للمطارَد قد يكون هو الخطأ الأخير، فيحوّله من مطارَد إلى شهيد، أو يوقعه في الاحتمال السيئ وهو الاعتقال، إلا إذا تداركه لطف الله سبحانه، فنجا من ذلك.

ومما يجعل أمر المطارة في غاية الصعوبة جغرافيا الأرض في فلسطين، فهي لا تساعد المطلوب للاحتلال على الاختفاء، فنحن لا نمتلك جبالاً كجبال أفغانستان لنختبئ في كهوفها ونصطاد أعداءنا، ولا نمتلك غابات كفيتنام نختفي بين أشجارها، أو نتفنن في نصب الكمائن لاصطياد أعدائنا.

إن فلسطين صغيرة المساحة، وجغرافيتها محدودة، وجبالها صغيرة، وغاباتها في غاية البساطة، ثم إننا نواجه عدواً متفوقاً تقنياً «تكنولوجيا»، وعنده من وسائل التجسس الكثير مما يسهل له الوصول إلى المطارد بسرعة، وخاصة في الضفة الغربية التي تسيطر عليها قوات الاحتلال سيطرة كاملة، تمتلك فيها البر والجو، ناهيك عن انتشار العملاء في المناطق المحتلة كافة.

كل تلك العوامل تجعل حياة المطارَدة قاسية جداً، وتزيد إلى معاناته معاناة أخرى، أضف إلى ذلك ضعف الثقافة الأمنية بين أبناء المقاومة وأنصارها، وبين عموم الشعب الفلسطيني، فالملاجئ والبيوت الآمنة شبه معدومة، وأساليب التخفي والتمويه غير منتشرة، ولا نستطيع توفيرها أو الوصول إلى من يساعد في توفيرها بسهولة، ولا يوجد أطباء مختصون بالجراحة التجميلية يمكن أن يقوموا بإجراء عمليات تجميل للمطارد تغير من ملامحه، فتعينه على التنقل بيسر وسهولة.

كثيرة هي الصعوبات التي واجهها المجاهدون خلال حياة المطاردة، وقد عشت بنفسي بعض تلك الصعوبات، وعايشت من المجاهدين من واجه ظروفاً قاسية أثناء، سواء حين كان مطارداً في البيوت أو الجبال.

فمن تلك الصعوبات أن تجد من أصدقائك وأقربائك من يرفض مساعدتك، ومما يحزّ في النفس أن تجد مطارداً مصاباً بحروق في جسده بسبب تصنيع المتفجرات، ثم لا تجد عيادة سرية يداوي جراحه فيها، بعيداً عن أعين العملاء.

والمطارد إنسان له من المشاعر ما لغيره من الناس، كما أن له أهلاً وأحباء يُلهِبُ قلوبَهم الشوق إليه والحنين إلى الجلوس معه، ولَشَدَّ ما آلمني ذات مرة أن والدتي بلغ بها الشوق إليّ أن طلبت رؤيتي ولو من بعيد، حتى وإن كان من آخر الشارع، فقد كانت تريد أن تنظر ولو نظرة واحدة تطفئ بها لهيب شوقها.

ومن أنواع المعاناة التي يعيشها المطارَد أيضاً ما يعانيه أهله من القلق الدائم عليه، وذلك كلما وصل إلى مسامعهم خبر عن قصف أو عملية اغتيال، فهم يعيشون لحظات من الخوف والقلق إلى أن يأتي من الأنباء ما يطمئنهم، وكثيراً ما توّهم أهلي أنني الهدف الذي يُتَحدث عنه، فيشرعون بالبكاء.

ومن ذلك مداهمة جيش الاحتلال للبيت، وعمليات التفتيش الهمجية، وقلب ما فيه من أمتعة رأساً على عقب، وكسر ما فيه من الزجاج، وتهديد الأهل وترويعهم في كل مرة.

ومن الصعوبات التي يعيشها المطارَد: الحياة القاسية في الجبال، حيث الأفاعي والحشرات، والكلاب المتوحشة، إضافة إلى الخنازير البرية التي يطلقها المستوطنون، وقد أصيب محمد الحنبلي ذات مرة بلدغة عقرب، وكان حينئذ مطارداً في الجبال، ولولا لطف الله به لكانت تلك اللدغة سبباً في نهاية حياته.

ومن صور المعاناة كذلك: البرد القارس، والمطر الغزير، أو الحر الشديد، وقد حدثني محمود أبو هنُّود أنه بسبب المطاردة الشديدة من قوات الاحتلال و«أجهزة السلطة» اضطر للاختفاء في أحد الكهوف أياماً عديدة، يواجه البرد والمطر والجوع، وزاد الطين بلّة أن سقف الكهف كان يتسرب منه المياه، مما جعل معاناته فيه مضاعفة.

أما قلة الطعام، وخاصة أثناء اشتداد الملاحقة فحدِّثْ عنه ولا حرج، وقد حدثني أحد الإخوة المطاردين أنه ظل جائعاً لأيام عدة لم يذق طعاماً يقيم به صلبه.

وربما تعرض المطارَد إلى خطر الاعتقال أو الاغتيال عند ذهابه إلى إحدى القرى بغية الحصول على طعام أو ماء، وهذا ما حصل مع محمد عزيز حاج عليّ من قرية جماعين، أحدِ الأبطال الذين شاركوا في «عملية عمانوئيل الأولى»، كما شارك في العديد من العمليات الأخرى، وحصل مثل ذلك مع نصر الدين عصيدة، وذلك عندما حاصره الجيش أثناء عودته إلى بلدته تل، ونجا بأعجوبة من الاغتيال عدة مرات.

ومن أصعب ما يواجه المطارد في الجبال مشكلة نقص المياه، فلا يقف الأمر عند العطش، بل هناك المعاناة من قلة النظافة، وعدم القدرة على الاستحمام لأيام عديدة، أو تنظيف الجسم مما يصيبه من أوساخ بسبب العيش في مكان غير مهيأ لسكنى البشر.

التحدي يخلق الإبداع

يقال: الحاجة أمّ الاختراع، وقد كان هذا حال الكثير من المطارَدين، فقد ابتكروا الكثير من الوسائل التي أعانتهم على حياتهم، أو خففت من آلام مطاردتهم، ومن أولئك الإخوة الذين أبدعوا في ابتكار وسائل التخفي المجاهد ناصر نزال، حيث استطاع صناعة قناع للوجه من مادة «السليكون»، فكان هذا القناع يُعين المطارد على تغيير معالم الوجه كلياً، مما يسمح له بالتنقل بسهولة ويسر.

ولكن هذه الصعوبات التي يحتملها المجاهدون المطاردون كان يخفف من وطأتها إكرام الله لهم في كثير من المواقف، وقد حدثني أحد المجاهدين عن قصة حدثت مع سامي زيدان، أحد الأبطال الذين نفذوا «عملية عمانوئيل الثانية»، فعند مطاردة الجيش له في الجبال شعر بعطش شديد، فرزقه الله زجاجة من الماء تعثرت بها رجله أثناء فراره من جنود الاحتلال، فشرب وارتوى، واستطاع بذلك أن يختبئ وينجو من جيش الاحتلال.

ولعل قارئ هذه السطور يستغرب حينما يقرأ أن من الصعوبات التي واجهها المطاردون في الجبال تمزّق أحذيتهم، وانقطاع حيلتهم في إيجاد بديل، أو إصلاح الحذاء الممزّق، ولك أن تتصور كيف سيمضي حياته ماشياً فوق الصخور والأشواك، وما هو حجم الآلام التي عليه أن يحتملها حتى يتوفر له الحذاء البديل.

صورة لأخلاق المجاهد المطارد وخشيته من الله

نفد طعام نصر الدين عصيدة حينما كان مطارداً في الجبال ذات مرة، وأخذ الجوع منه كل مأخذ، فاضطر أن يأكل من شجرة تين وجدها في طريقه، ولكن من شدة خشيته لله تعالى لم يرضَ أن يأكل ثماراً يملكها الناس دون أن يدفع لهم ثمنها، أو يطلب

منهم أن يسامحوه، فوضع عشرين «شيقل»، وكتب ورقة لصاحب شجرة التين يطلب منه مسامحته، ويبين له أن هذا المبلغ هو ثمن التين الذي اضطر أن يأكله دون إذنه منه.

عائلات مضحية

كثيرة هي العائلات التي قدمت خدمات للمطارَدين، وساعدتهم وآوتهم، وكانت مستعدة لدفع ثمن باهظ، وقد حدثني أحد الشهداء أن إحدىٰ العائلات لم تكتف بإيوائهم، بل كانوا يقولون للمجاهدين: إذا قدم الجيش فقاوموا ولا تستسلموا، كلنا فداؤكم، البيت والزوجة والأولاد.

صور كثيرة عشناها مع عائلات مجاهدة مضحية، ورأينا كيف تُربّي أبناءها علىٰ الشهادة والتضحية، ورأينا كيف تحث الوالدة أبناءها علىٰ المقاومة، والحرص علىٰ صلاة الفجر في جماعة.

من تلك الصور التي أدهشتنا عجوز كبيرة تطوف أرجاء البيت الذي ننام فيه، وتَرْقي البيت صباح مساء بآيات قرآنية، وأدعية وأذكار، ترمي بذلك حمايتنا وتحصيننا من انكشاف أمرنا، تلك الحاجّة الفاضلة هي أم ناصر زكارنة من بلدة قباطية، وفي أول اجتياح لمناطق «السلطة» في انتفاضة الأقصى، اقتحمت قوات الاحتلال البلدة بالمدرعات، وداهمت ذلك المنزل تريد اعتقالي، ولكنهم لم يجدوني عندهم؛ لأنني كنت قد غادرت المنزل قبل أسبوع، فاعتقلوا ناصر زكارنة، وأمضىٰ ثلاث سنوات في الأسر بتهمة إيوائي، وسجل الاحتلال العملية بالصوت والصورة، وبثت قناة «BBC» عملية الاجتياح ظناً منهم أن ذلك ينال من عزيمتنا، أو عزيمة الأُسر التي تحتضن المقاومة.

وقد رأينا عند بعض العائلات الكثير من الوعي الأمنيّ أيضاً، رأينا كيف يرشد الوالدُ طفلَه الذي لم يتجاوز عمره الست سنوات ليحافظ علىٰ أسرار البيت، ولا

يتحدث عمّن يحضر من ضيوف، ويقول له: إن الكذب حلال في هذه الحالات.

معانٍ إنسانيةٌ كبيرة لا يمكن للمرء أن ينساها، كم رأينا من حرص بعض الأسر علينا وكأننا جزء منها، وبعضٌ من أفرادها، وكم لامست قلوبنا المشاعر التي كانت تفيض منهم تجاهنا، وشعرنا بحب الأطفال لنا لدرجة أنهم يجهشون بالبكاء حينما نغادر البيت ونتركهم.

لقاء محمود أبو هنُّود بوالده

من تلك الصور الرائعة التي رأيتها، صورة اختلطت بها المعاني الإنسانية والجهادية، إنه مشهد لقاء محمود أبو هنُّود بوالده، ذلك الرجل الكبير في إيمانه، صاحب القيم العظيمة التي ربَّىٰ ولده عليها.

رأيت حرارة ذلك اللقاء، ودفء المشاعر التي غمرت الحاضرين، وسمعت كلمات الثناء، والتشجيع علىٰ المضيّ قدماً، ورفع المعنويات، والحث علىٰ الرباط والجهاد والمقاومة، وسمعت دعاء والد محب لابنه، يتألم لفقد فلذة كبده، ولكنه علم أن سعادة هذا الشاب الحقيقية هي في نيله للشهادة، فدعا له بأن يبلغه الله تلك المنزلة الرفيعة.

ورأيت الابن البار في الطرف المقابل، كان محمود أبو هنُّود يطلب من والده ووالدته الدعاء له دائماً بالشهادة، فيرد عليه والده: إذا استشهدت سأحمل راية المقاومة في فلسطين من بعدك، ثم كان تأثُّرنا البالغ لحظة عناق الوالد لولده، واحتضانه له وكأنه يرغب أن لا يفارق جسدُه جسدَه.

كانت لحظات رائعة قلّ أن يشهد المرء أمثالها، وما حرك قلوبنا أكثر ما سمعناه من والده، صاحب القلب العامر بالإيمان حيث قال لنا: وددت أني شاب أستطيع أن أحمل معكم السلاح؛ لأشارك معكم في المقاومة والجهاد من أجل تحرير فلسطين.

ومن الصور الرائعة التي رأيتها خلال فترة المطاردة: ما حصل مع القائد نصر جرار حيث تقطعت قدماه ويده أثناء تنفيذ عملية جهاديه قرب جنين، وعلىٰ الرغم من كل المعاناة واصل جهاده وعمله، واستمر بالإشراف علىٰ قيادته للعمل الجهادي في منطقته، يخطط للعمليات، وينظم المجموعات، وقد رزقه الله الشهادة بعد شهور.

ومن المشاهد المؤثرة التي سمعت بها: لقاء القائد محمود أبو هنُّود مع القائد نصر جرار حين زاره في المستشفىٰ بعد إصابته، وأحضر له هدية كما يفعل أيُّ زائر للمريض، ولكن الهدية هنا مختلفة كلياً، لم تكن هدية اعتاد الناس تبادلها، لم تكن زجاجة عطر، ولا طاقة من الزهور، وليست كذلك شيئاً من الحلوىٰ، لم يقدم له شيئاً من ذلك كله، بل قدم له مسدساً هديةً وتذكاراً؛ ليواصل الجهاد من أجل تحرير فلسطين.

تلك الزيارة وما صاحبها من هدية تذكرني بهدية حسن سلامة قائد الثوار في المنطقة الوسطىٰ أثناء حرب عام **١٩٤٨** م، عندما سقطت بلدة رأس العين تحت سيطرة عصابات «الهاجانا» الصهيونية، كان حسن سلامة قد أصيب إصابة شديدة، فأرسل لثوار مدينة اللُّدّ ليقوموا بتحرير رأس العين، وبعد أن حققوا الانتصار وتحررت المدينة علىٰ أيديهم، وصل خبر الثأر للقائد حسن سلامة، ولشدة فرحه أخرج من تحت وسادته مسدساً يقدمه هدية لثوار مدينة اللُّدّ الذين حرروا رأس العين، وقال لهم: إن هذا المسدس أغلىٰ ما أملك؛ فقد أهداه لي المفتي الحاج أمين الحسيني رحمه الله.

ومن أمثلة البطولة والفداء التي رأيتها: الداعية والخطيب السياسيّ، والمربي الفاضل، الشيخ المجاهد القائد جمال أبو الهيجا، لقد كان قدوة لكل داعية لا يكتفي بالكلام، بل يترجم الأقوال إلىٰ أفعال، وقد أصيب في الاشتباكات مع قوات الاحتلال، وفقد في سبيل ذلك إحدىٰ يديه في معارك بطولية جرت في مخيم جنين.

لقد ترجم كلام المنابر إلى أزيز الرصاص، ولم يمنعه فقدان يده من مواصلة المقاومة والجهاد، ثم اعتقل وتعرض لتحقيق قاسٍ، وصمد صمود أسطورياً على الرغم من كل الضغوط، ثم حكم عليه بالسجن ثمانية مؤبدات بتهمة قيادة المقاومة، والمشاركة في التخطيط لـ«عملية صفد» البطولية، ومساعدته للمطاردين والمجاهدين.

ولم يسلم بيتُه من القصف كذلك، لأنه كان مأوىً للكثير من الأبطال الذين قدموا لنا الدعم الروحي والمعنوي؛ قيس عدوان، ومحمود أبو حلوة، ونسيم أبو الروس، وجاسر سمارو، وغيرهم من الأبطال.

لقد آوانا ونصرنا، وكان لنا نعم الشيخ والمربي والصديق طيلة رحلة المطاردة، وكان في السجن أسطورة للصمود في زنازين التحقيق، لم تفلح الضغوطات كلها في النيل من عزيمة، فرج الله كربنا وكربه، وجمعنا به في ساحات الأقصى المبارك، إنه القادر على ذلك بقوته وقدرته.

نبوءة تحققت

حين كنت مطارداً أكرمني الله سبحانه بشرف المبيت في بيت البطل عاصم صوافطة بصحبة محمود أبو هنُّود، وجاسر سمارو، وقيس عدوان، وقد استقبلنا رحمه الله ولم يكن قد جاوز ثمانية عشر ربيعاً من عمره، وكان البِشْر والسرور بادياً على وجهه لوجودنا في بيته، وشعرت حينئذ أنني أمام إنسان غير عاديّ، فقد كان قمة في الصفاء والطهر، وقد وقع في قلبي أن هذا الشاب سيكون شهيداً، وأنه على موعد مع القدر، وبعد عدة أشهر استشهد في اشتباك مع قوات الاحتلال بعد محاصرته في بيت من بيوت بلدة طوباس.

لقاء مؤثر مع أمي الغالية أثناء المطاردة

ازداد إلحاح والدتي على لقائي، وبعد انقطاع عنها طال أمده جمعني الله بها، وكان لقاء مؤثراً، أعربت لي فيه عن خوفها عليَّ، وخشيتها من فقدي، وقلقها على حياتي، فحاولت أن أخفف عنها، وأن أجعلها تحتسب عند الله ما تعانيه من قلق، فقلت لها: «يا والدتي، لقد رزقك الله اثنا عشر ولداً ما بين شاب وفتاة، فاحتسبي أحدَهم في سبيل الله، وهَبِيني صدقةً لوجه الله»، وكان لهذه الكلمات أثر عليها، فهدَّأَتْ من روعها، وشعرتُ بالرضا بادياً على وجهها الطاهر، حفظها الله ورعاها.

في بداية رحلة المطاردة طلبت من أخي أن يُحضر لي ملابس وبعضاً من أغراضي الشخصية، وعندما أراد أن يُخرِجَ ملابسي من البيت نظرت الوالدة إليه نظرة ألم وحسرة، وأجهشت بالبكاء، وقالت له: «لا، لن تخرج الملابس، فولدي سيعود إن شاء الله إلى البيت في وقت قريب».

لقد كانت تلك المشاهد وغيرها كثيرٌ مشاهدَ مؤثرة لم أستطع نسيانها، ولا أظن أنني سأنساها ما حييت.

أنا وفلسطين وحبيبة العمر

بعد أن خرجت من سجون الاحتلال تقدمت لخطبة الفتاة التي هي الآن زوجتي الغالية أم عمر، وبعد شهور من الخطبة حدث الانفجار في «شقة شارع عشرة» التي تحدثت عنها سابقاً، وعلى إثر ذلك أصبحت مطلوباً لقوات الاحتلال، وصرت بين موقفين أحلاهما مرّ: فإما أن أترك خطيبتي، وإما أن أتزوج، وأيّ طعم للزواج، وأيّ شعور بالحب والعواطف الجياشة وأنا أحيا مطارداً لا أستطيع الاستقرار في مكان واحد، وظِلُّ البندقية لا يفارقني؟

كان التفكير في الأمر صعباً جداً، ولا أستطيع أن أراه سائغاً، وفي غمرة الحيرة والتفكير يأتيني الجواب من أحمد مرشود، فيقول لي: توكل على الله وتزوج، ونحن سنرتب لك ذلك إن شاء الله، ثم التقيت بعد ذلك بالمجاهد ناصر نزال، وشجعني هو أيضاً على الزواج.

اتصلت وقتها بخطيبتي أم عمر، وشرحت لها حساسية الأمر، ففوجئت بردها، وقد قالت لي حينها كلماتٍ لن أنساها ما حييت، تلك الكلمات أكدت لي حبها ووفاءها، ووقوفها إلى جانبي مهما كانت الظروف، وأياً كانت التحديات، وأصرت على أن يتم زواجنا، وفوجئت أيضاً بموافقة أهلها على الرغم من صعوبة الظروف، وكانوا دائماً مقدرين لوضعي الصعب، ولم يتغير موقفهم هذا طيلة رحلة المطاردة والأسر، ولم أرَ منهم إلا كل خير، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

ولكم أن تتخيلوا شكل يوم الزفاف حين لا يستطيع الزوج أن يحضر عرسه بسبب الوضع الأمني، واضطراره إلى أن يبقى بعيداً بسبب ملاحقة العدو له، فهذا ما جرى معي، وبقيت في مدينة نابلس، وكانت مصنفة بالمنطقة أ ، وعندما أحضروا لي العروس بالسيارة إلى حدود المنطقة أ، كان هناك عرس آخر في الوقت نفسه لعروس أخرى، فقامت القوات الصهيونية الخاصة باحتجاز سيارة العروس الثانية ظناً منهم أنها سيارة عروسي، وكان إكرام الله لنا كبيراً، فقد نجانا سبحانه، وتم العرس بسلام، ووصلت عروسي إلى بيتي في مدينة نابلس بحمد الله، ومنَّ الله علينا بأن رزقنا طفلاً واحداً أسميته عمر، غير أني لم أنعم برؤيته إلا من وراء قضبان السجن، فقد ولد بعد اعتقالي بأسابيع، والحمد لله على كل حال، فنحن راضون إذا كان في هذه المعاناة رضا الله تعالى، وأحتسب ذلك عند الله تعالى، وفي سبيله سبحانه.

معانٍ رمزية

يقال: في كلّ محنةٍ مِنْحةٌ، وقد لمست الكثير من المنح من ربنا سبحانه وتعالىٰ أثناء حياة المطاردة، وقد عشت من المعاني ما لا يستشعره ويدرك قيمته إلا من عاشها وذاق حلاوتها، ولعلّ القارئ وهو يطلع علىٰ ما أقصده، ويقرأ المواقف التي أعتبرها من المنح، لعله لا يرىٰ فيها ما يستحق كل هذا الكلام المليء بمشاعر لا توصف، وقد تكون كذلك، وقد تكون مجرد أمور مادية، ولكنها حين ترتبط بمشاعر تتحرك في نفس من عاشها يكون لها أثر مختلف، وتحمل حينئذ من المعاني الروحية ما لا يقدر بثمن.

لقد أكرمني الله بحمل سلاح رشاش من طراز «عوزي» كان يحمله المهندس يحيىٰ عياش، ومن بعده بشار العمودي، ومن بعدهما اثنا عشر شهيداً علىٰ الأقل، وركبت سيارة كان يستخدمها يحيىٰ عياش في تنقلاته، واختفيت في بيت كان يختفي فيه كذلك، وكنت أحياناً أسأل صاحب البيت: أين كان ينام الشهيد؟ وأين كان يجلس؟ وماذا كان يفعل؟ فأخبرني أنه كان قليل الكلام، ويمضي أغلب وقته صامتاً، ويجلس في زاوية من زوايا البيت فيقرأ القرآن الكريم ساعة لا يمكن وصفها، ولا يُدرِك قيمتَها إلا من عاشها.

كنت أشعر حينئذ كأن روح هؤلاء الشهداء معي، وأحس بأن توفيق الله لنا في جهادنا له علاقة ببركة جهاد من سبقونا في هذا الطريق، ونحن نقتفي آثارهم، ونرجو من الله أن ندخل جميعاً في سلك قوله تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

بعد اعتقالي ووضعي في زنازين التحقيق بسجن «بيت حتكفا» التقيت بأيمن الشخشير من نابلس، وكان أحد المجاهدين الذين عملوا مع مهند الطاهر، وذات مرة

تذكرنا الشهداء، وتساءلنا: لماذا لم نستشهد نحن؟ وخفنا أن يكون عملنا غير مقبول عند الله سبحانه، ولذلك لم نكن ممن اصطفاه الله تعالى إلى جواره، فشرعنا بالبكاء لأكثر من ساعة، ثم أخذنا المصحف، وبدأنا نبحث عن الآيات التي تتحدث عن الشهداء، فكان عزاؤنا هذه الآية، وقوله تعالى فيها: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾ [آل عمران: ١٧٠].

بعد هذه التجربة في حياة المطاردة مع الكثير من الشهداء الأبطال كمحمود أبو هنُّود، وأيمن حلاوة، وقيس عدوان، ونسيم أبو الروس، والشيخ يوسف السُّرَكْجيّ، وإياد حمادنة، وإبراهيم هواش، وغيرهم من الأبطال الذين تشرفت بالعمل معهم، بعد كل ذلك أشعر أننا أمام عملة نادرة لا تقدر بثمن، وأننا نقف أمام هامات شامخة، وأرواح محلقة، ونفسيات طاهرة لا تفكر إلا بالمقاومة والجهاد، وليس لها من هموم الدنيا إلا تحرير الأرض والمقدسات.

والآن وبعد مضيّ أحد عشر عاماً، وأنا أسير في سجون الاحتلال أقول: إن حركات المقاومة وجماهيرها يجب أن تضع مثل هذه النوعيات النادرة من المجاهدين في حدقات العيون، وعليها أن تعطيهم من الرعاية والحفظ والحماية والاهتمام أكثر بكثير مما نراه، لأنها قطع نادر، وكنوز ليس من السهل العثور على أمثالها، وربما لا أكون مبالغاً إن قلت: إن تكرارهم في هذا الزمان يعدّ من الصعب النادر، فرحم الله الشهداء، وجمعنا بهم في جنات النعيم.

* * *

نصر الدين عصيدة وعاصم عصيدة وسامي زيدان
ولمحات من أيام المطاردة

حياة سعيدة في البراري

لو قلنا في وصف هذه الفئة المجاهدة من أبناء «القسّام»: إنهم أفراد «المجموعة البرية»، لجاز لنا أن نصفهم بذلك؛ فقد آثروا العيش في البراري بدلاً من الإقامة في المساكن داخل المدن والقرىٰ.

اتخذت تلك العُصْبة قرارها منذ البداية، وقررت أن لا يكون عرينها داخل البيوت أو بين جدران الشقق، ورغب أفرادها بالعيش علىٰ قمم الجبال والتلال، وأرادوا أن يكون منامها علىٰ ثرىٰ ترابنا الطهور، وليس فوق الأسرة والفرش الوثيرة، ووجدوا أنسهم لا في السهر أمام التلفاز، وإنما مع نجوم السماء، وتحت أغصان الزيتون، لقد لفظوا كل هذا المتاع الدنيوي، لا كرهاً به، وإنما خروجاً في سبيل الله؛ دفاعاً عن وطنهم ومقدساتهم .

ـ كان قرار العيش بهذه الطريقة استراتيجية اتخذها القائد الملهم نصر الدين عصيدة، وقد دعاه إلىٰ ذلك أسباب متعددة، منها ما هو أمني، ومنها ما هو عمليّ، نوجزها فيما يأتي:

أولاً: الأسباب الأمنية منها:

ـ إن ذلك يجعل هذه المجموعة خارج إخطار المداهمات الليلية المتكررة للمدن

والقرىٰ، فوجود المجاهدين داخل المدن أثناء المداهمة لم يكن يترك لهم سوىٰ خيارين في مواجهة عدوهم.

* فهم إما أن يواجهوا عدوهم المداهم في معركة استعد لها العدو، وحشد لها قواته، وجلب لذلك آلياته المصفّحة التي لا يخترقها الرصاص، وتوقيت هذه المواجهة ليس في اختيار المجاهدين، وإنما يختاره العدو، أضف إلىٰ ذلك اشتراك مروحياته التي تستطيع ضرب مجاهدينا دون أن يكون بين أيديهم ما يصدون به هجومها، فالنتيجة حينئذ محسومة لصالح العدو.

* أما الخيار الثاني فهو الاستسلام والوقوع في الأسر، وهو أمر غير وارد أبداً في حسابات هذه المجموعة المجاهدة.

ـ إن وجود هذه المجموعة خارج المدن يجعلها في مأمن من الأخطار التي يمكن أن تأتي من تلك الفئة الساقطة الهابطة، التي ارتضت أن تكون خارج صفوف أهل الحق، وأدخلت نفسها في صفوف أهل الباطل والعدوان، وباعت نفسها للشيطان ولعدو الله، وهم العملاء، فوجود المجاهدين في المدن يتيح لهؤلاء السفلة أن يحددوا مكان مبيتهم، وهذا ما جرىٰ في الكثير من الحالات .

ـ ثم إن في هذه الخطوة تجنيب السكان للكثير من المشكلات التي يتسبب بها وجود المجاهدين بينهم؛ إذ إن معرفة العدو بأن رجال المقاومة داخل مدينة أو قرية معينة يجعلها عرضة للمداهمات المتكررة، ومنع التجوال، والتفتيش والتنكيل، كل ذلك بتهمة إيواء المطلوبين.

ـ وفي ذلك أيضاً ما يمكنهم من إجراء اتصالاتهم والتحدث فيما بينهم بعيداً عن أجهزة التنصت التي يمكن أن يزرعها العدو وأعوانه في المنازل والأماكن العامة.

ـ وفي ابتعاد المجاهدين عن القرىٰ والمدن ما يجنّبهم ركوب السيارات في البر؛ إذ إنها تعدّ هدفاً محدداً سهلاً لتعقب المروحيات، فالحياة في المدن والقرىٰ لا يمكن من دون ركوب السيارات عند التحرك من مكان لآخر.

ثانياً: الأسباب العملية

ـ إن وجود المجاهدين خارج المدينة يمكّن المجموعة من التحرك بسهولة ويسر للقيام بالمهام العسكرية السرية التي تتطلب تحركاً ما، سواء كان ذلك ليلاً أو نهاراً، وهذا أمر في غاية الصعوبة إذا ما أراد المرء الخروج من المدينة أو القرية أو الدخول إليها .

ـ ثم إن بُعْد المجموعة عن الأماكن السكنية يمكّنها من حمل سلاحها باستمرار، وارتداء الزي الذي يلائم مهامها بما يتناسب مع طبيعة المنطقة التي تعمل فيها، دون أي إثارة لفضول الأخرين، وهذا أمر ـ دون شك ـ لا يمكن تحقيقه داخل المدن والقرىٰ .

ـ ومن أهم ما يحققه البعد عن القرىٰ والمدن: تسهيل مراقبة تحركات جنود الاحتلال وتنقلات آلياتهم، واكتشاف كمائنهم ومواقعهم.

ـ وكذلك يمكن لهذه المجموعة القيام بتدريباتها المختلفة في البر بحرية، وهي لا تستطيع ذلك داخل المدن والقرىٰ .

ـ كما أن البقاء في البر يُمكنهم من تغيير أماكنهم بحرية وسهولة كبيرة؛ إذ إنهم لم يكونوا يقيمون في المكان الواحد سوىٰ مدة وجيزة؛ لإبعاد أي احتمال لرصدهم وتتبعهم، وهذه الحركة تتطلب الكثير من الحيطة والحذر فيما لو كانوا يقيمون في المدن والقرىٰ .

ـ يمكِنهم في البر تخزين أسلحتهم ومتاعهم بعيداً عن أعين الآخرين في حين أن ذلك يتطلب إجراءات معقدة داخل المدن والقرىٰ .

لكن اختيارهم للحياة البرية لا يخلو من صعوبات ومشقات لا يستطيع تحملها إلا أمثال هؤلاء الأبطال الذين صحبوا البراري صيفا شتاءً، وهذه الصعوبات كثيرة متنوعة:

ـ فمنها: الظروف الجوية القاسية، فهم غير قادرين على تهيئة ما يواجهون به تقلبات طقس الشتاء، فصعوبة حمل الأمتعة، والاضطرار إلى التنقل المستمر، كان يحرمهم في الشتاء من الغطاء والفراش، فكان غطاؤهم غيوم السماء، ونسيمهم الرياح الباردة، يضطرون إلى النوم في العراء إن استطاعوا أن يغمضوا أعينهم من شدة البرد، ويزداد الأمر سوءاً إذا ما هطلت الأمطار فغسلت أجسامهم كما تغسل صخور وتراب هذا الوطن، وإذا ما احتاجوا إلى الاستحمام فليس أمامهم سوى هذا المكان الذي ليس فيه ما يحميهم من البرد، ولا من لفح الهواء الذي يزداد قسوة عند الاستحمام.

أما الصيف فلهم معه معاناة أخرى، فالأشواك لا تتوقف آلام وخزها في أجسادهم، وأشعة الشمس المحرقة التي تلفح أجسامهم تجعل من لونها كلون الأرض التي عشقوها، وحرارة الجو تجعل العرق يسيل من أجسامهم كأنها الأرض التي ينبع منها الماء الذي يروي العطاش، فيمتزج بتراب هذه الأرض التي أحبوها، ليجعل من هذا الانسجام أخوة بين المجاهد وأرضه لا تنفصل إلا بانفصال الروح عن الجسد.

وفي الصيف قد يبدّل الإنسان ثيابه عدة مرات؛ ليتخلص مما علق بجسمه من أوساخ، وما صار عليه من رائحة كريهة بسبب التعرق، أما هم فإذا ما احتاجوا أن يبدّلوا ثيابهم، فليس أمامهم إلا أن يغسلوا المتسخ منها، وينتظروا جفافها، أو يلبسوها مبللة؛ لأنهم لا يستطيعون حمل الكثير من الأمتعة والتنقل بها.

حتى حياة الكهوف تلك بما فيها من متاعب وصعاب، لم يكن العدو يتركهم

ينعمون بالأمن فيها، فلم يكونوا يستطيعون أن يبيتوا فيها، سواء في الصيف أو في الشتاء؛ لكون هذه الكهوف أهدافاً تقصفها القوات الإسرائيلية بين حين وآخر؛ لاعتقادهم أنها تشكل مأوىٰ للمجموعات المقاتلة.

ومن أوجه المعاناة لأولئك الأبطال توفير الغذاء والماء، وهذه المعاناة طالت مدتها حتىٰ تجاوزت العام، فقد كانوا لا يقبلون أن يدخلوا إلىٰ قريتهم بالذات للحصول علىٰ الماء والغذاء؛ كي لا يتسببوا بأي إشكالات لأهلهم وذويهم مع سلطات الاحتلال، كما أنهم لم يكونوا يطلبون منهم أية مساعدة للسبب ذاته، وكان أحدهم يدخل إلىٰ المدينة مضطراً؛ لشراء الخبز والمواد الخفيفة التي يسهل حفظها مدة طويلة كالمعلبات، ثم يعود لأصحابه في البراري حاملاً ما يكفيهم لأيام طويلة.

ويحسن في هذا المقام الإشارة إلىٰ الطريقة التي لجأوا إليها؛ للحفاظ علىٰ الخبز مدة طويلة دون أن يصله فساد أو تلف، إذ إن مرور يومين كافيين لجعل الخبز غير صالح للأكل بسبب رطوبته التي قد تتعفن داخل حقائبهم، فقد كانوا ينشرون الخبز تحت أشعة الشمس لعدة ساعات حتىٰ يتبخر منه الماء ويجف، ويصبح قاسياً، ثم يضعونه في حقائبهم، وعندما يريدون تناوله يبللونه بالماء ليسهل أكله وهضمه.

أما الماء فكانوا يعتمدون في الحصول عليه علىٰ مياه الينابيع والعيون البرية؛ بالإضافة إلىٰ حصولهم علىٰ الماء من داخل بعض القرىٰ التي يدخلونها ليلاً، ويستخرجونه من الآبار دون أن يشعر بهم أحد.

ومن أوجه معاناتهم كذلك نفاد طاقة «البطاريات» التي تعمل أجهزتهم الخلوية بوساطتها، مما كان يضطرهم لإرسال أحدهم لإعادة شحنها داخل المدينة والعودة بها إليهم، فكانوا يقطعون عدة كيلو مترات سيراً علىٰ الأقدام؛ بسبب بعدهم عن المدينة أو القرية.

والمرض له معهم قصص أخرىٰ، وخاصة أمراض الشتاء، كمرض «الإنفلونزا»، ونزلات البرد التي تكثر فيه.

ولكن علىٰ الرغم من كل تلك الأهوال والصعاب، إلا أن هؤلاء الفتية الأبرار كانوا يشعرون بسعادة غامرة، يمنحهم إياها رب العزة سبحانه؛ بإيمانهم وإخلاصهم، وبخروجهم في سبيل نصرة دينه.

وهذه المعاناة ما كانت لتخف وطأتها علىٰ المجاهدين ـ علىٰ الرغم من شدتها ـ لولا إيمانُهم، وقوةُ إرادتهم، واقتناعُهم بأن الباطل مهما علا، فالجولة الأخيرة للحق وأهله.

مواقف وأحداث مثيرة

كثيرة هي المواقف والأحداث التي مر بها أولئك الأبطال، سنقف عند بعض منها في الأسطر الآتية:

خرج أبطالنا المجاهدون الثلاثة نصر الدين عصيدة، وعاصم عصيدة، وسامي زيدان ذات ليلة في مهمة عسكرية تتطلب الاقتراب من إحدىٰ المستوطنات الصهيونية؛ لمراقبة أوضاع أمنية معينة، وكان كلٌّ منهم مكلفاً بمهمة محددة، وعندما وصل الأبطال إلىٰ غايتهم وقعت حادثة مفاجئة جعلت «قوات الأمن الإسرائيلية» في تلك المنطقة تعلن حالة الاستنفار، وبدأت علىٰ إثرها بالانتشار السريع، والقيام بعمليات تمشيط دقيقة، وجاءت المروحيات للمشاركة في أعمال البحث والتمشيط، وأطلقت العشرات من القنابل المضيئة التي حولت ليل المنطقة التي يوجد فيها المجاهدون إلىٰ ما شِبْه يومٍ مشمس مضيء.

أدرك مجاهدونا أن الانسحاب في حالة كهذه يكاد يكون مستحيلاً عملياً، فكان

رأي القائد نصر الدين أن لا يطلقوا النار على العدو، ولا يشتبكوا معهم لأنهم يعدون العدة لأمر هام ينوون تنفيذه فيما بعد؛ ولئلا تضيع خطتهم التي يعدون أنفسهم لها، إلا إذا اضطروا لذلك؛ بأن داهمهم هؤلاء الجنود واكتشفوا أمرهم.

طلب القائد نصر الدين من زميليه أن يمكثا في كمينين متباعدين، واتخذ لنفسه موقعاً آخر بعيداً عنهم، وأمر بأن يجهز كل منهما سلاحه، وإذا ما صادف أن شاهد أحدُ الجنودِ أياً منهم فليبادر بإطلاق النار على الفور؛ ليكون ذلك إشارةَ تحذير لزميلَيه ليختارا إحدى حالتين:

ـ فإما أن يقوما بالانسحاب منتهزَين فرصة انشغال الجنود بالاشتباك مع زميلهم الذي سيستمر في التغطية على انسحابهم حتى الشهادة.

ـ وإما أن يشتبكا مع الجنود إذا تبين لأيٍّ منهم استحالة الانسحاب.

بدأ الجنود بتمشيط المنطقة ـ وكانت منطقة صخرية وعرة ـ والانتشار فيها لا يمكن إلا ببطء شديد، بينما كانت أيدي أبطالنا على الزناد، يرقب كل منهم بعيون كعيون الصقر نظرات الجنود، ويرصدون حركاتهم خطوة خطوة؛ ليكون هو المبادر بإطلاق النار إذا ما رآه أحدهم.

ومن الطريف في الأمر أن بعض الجنود لم يكن يفصلهم عن أحد المجاهدين سوى أمتار قليلة، فكان المجاهد يرى الرعب والإعياء في عيون الجنود الجبناء التي لم تكن تحملق إلا أمامها مباشرة.

واستمر هؤلاء الجنود بتمشيط المنطقة حتى ساعة متأخرة من الليل، ولكن بفضل الله دون جدوى، فرد الله كيدهم في نحورهم، وأنجى مجاهدينا الأبطال دون أيةِ خسائر.

مهمة عسكرية داخل «مستوطنة يتسهار»

لقد كانت مهمة عسكرية معقدة وخطرة، يبتدئ توقيتها من منتصف ليلة من ليالي شهر كانون الأول من عام ٢٠٠١م.

كان كل من نصر الدين عصيدة وعاصم عصيدة على موعد معها، واستعدا للقيام بها على أكمل وجه، فحرصا على الاستراحة قبل يوم الموعد، وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً، في ليلة غائمة ضبابية من أيام الشتاء، لبسا زيهما العسكري، وجهزّا سلاحيهما، وخرجا نحو هدفهما، وكانت الظروف بالنسبة إليهما مثالية، وكأن الله سبحانه قد هيأ الجو لمساعدتهما، فكانت الأمطار وقتئذ غزيرة، والجو شديد البرودة، والضباب لا يترك مجالاً للرؤية، وكانا في غاية الفرح والسعادة، يحدوهما الأمل في إنجاز المهمة بنجاح؛ تمهيداً لأمر لاحق.

بعد ساعتين من المشي السريع اقترب المجاهدان من هدفهما وهو «مستوطنة يتسهار»؛ لجمع معلومات كافية عن مواقع الحراسة الثابتة، وتحركات سيارة الحراسة، والطريق التي تسلكها، ثم الدخول إلى قلب المستوطنة، وتحديد مواقع معينة بداخلها، إضافة إلى معلومات أخرى.

وصل المجاهدان إلى مشارف المستوطنة، واستطاعا أن يراقبا تحركات سيارة حراسة المستوطنة، وحددا خط سيرها، ثم تقدَّما بخفة وهدوء نحو نقطة للمراقبة الثابتة كانت مضاءة، فلم يلاحظا أية حركة فيها، واستمرا بالتقدم حتى استطاعا إلقاء نظرة بداخلها، فأدهشما خلوّ المكان من الجنود، ثم تقدما نحو النقاط الأخرى، فكانت خالية أيضاً.

ثم أخذا استراحة قصيرة واصلا بعدها تقدمهما بهدوء تام، وحذر شديد،

ودخلا المستوطنة، والأيدي على الزناد؛ تحسباً لأي طارئ، ورصدا ما أتيا لأجله، وقاما بالالتفاف حوله لتحديد أسهل المواقع؛ لاقتحامها لاحقاً.

وبعد الانتهاء من ذلك خرجا من الجهة الغربية للمستوطنة، متوجّهَين نحو الأشجار الحراجية المجاورة، وجلسا تحتها للاستراحة من عناء السير الطويل، لا سيما وأن النصف الأخير من الطريق الذي سلكوه كان صعوداً على سفح جبليّ شديد الانحدار، ثم غادرا بهدوء تام هابطين من سفح الجبل، وعادا سالمين لموقعهما، وكانت الساعة حينئذ تشير إلى الرابعة صباحاً، فجلسا وأعدا الشاي، وأخذا يستعرضان تلك المغامرة الفريدة إلى أن أذن الفجر، فأديا الصلاة حامدين الله تعالى على فضله في توفيقهم بتلك المهمة.

❊ ❊ ❊

الأسير القائد جمال أبو الهيجا

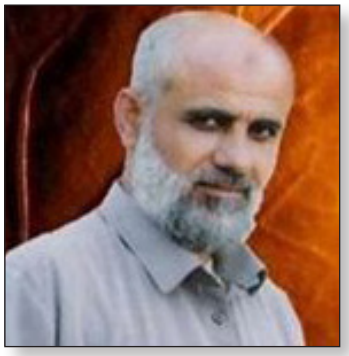

ينحدر من بلدة عين حوض قضاء حيفا، وهو من سكان مخيم جنين، من مواليد **١٩٥١/١١/٢٥**.

درس المرحلة الابتدائية والإعدادية في مدارس «وكالة الغوث» في مخيم جنين، ودرس الثانوية في مدارس جنين، ثم درس دبلوم اللغة عربية في «دار المعلمين»، ودرس البكالوريوس في «جامعة القدس المفتوحة».

ويدرس حالياً التاريخ في «جامعة الأقصى» في غزة.

عمل مدرساً في اليمن لمدة عامين، وفي مدارس السعودية لمدة عشرة أعوام، ثم عاد في بداية التسعينات إلى أرض الوطن.

بدأت رحلة الاعتقالات منذ قدومه إلى فلسطين، بتهمة تتلمذه على يد الدكتور عبد الله عزام، وكانت هذه إحدى التهم الموجهة له في اعتقالاته الأولى، فقد اعتقل

في الأعوام **١٩٩٢**، و**١٩٩٣**، و**١٩٩٥**، و**١٩٩٨**، وأمضىٰ عدة سنوات في الأسر قبل اعتقاله الأخير في **٢٦/ ٨/ ٢٠٠٢م**، الذي الحكم عليه فيه بتسع مؤبدات وعشرين عاماً.

يعد أبو الهيجا من الشخصيات القيادية المهمة التي وفرت للمقاومة غطاءً سياسياً.

الصفات الشخصية

لم يؤثر تسلمه للقيادة في نفسيته، فهو متواضع جداً، بشوش، حازم في استرداد الحقوق لأصحابها، وهو بمثـابة الأب والصديق لزوجته وأولاده، يصل الرحم ويتابع أحوال العامة، وخصوصاً أهالي الأسرىٰ والشهداء بزيارته الدورية لرعايتهم والاطمئنان عليهم، ورسم الابتسامة علىٰ شفاه الناس والمظلومين.

عُرفت مواقفه بالوحدوية بين الفصائل، وكان من أبرز قادة معركة مخيم جنين، وكان جنباً إلىٰ جنب مع جميع الفصائل.

زرع في عائلته حب التضحية، وقد نال زوجته بلاء الأسر فاعتقلت عدة مرات، كما اعتقلت ابنته وأولاده، وأمضىٰ ولده عبد السلام عدة سنوات في الأسر وتجدد الأسر عليه لعدة مرات.

بُتِرت يده في معركة المخيم، ورفض الاستسلام حتىٰ اعتقلته وحدة خاصة في تلك المعركة.

اتّهم بقيادة «القسام» في جنين، وبمسؤوليته عن «عملية صفد»، وسجل ذلك في لوائح الاتهام ضده، غير أنه أنكر كل ذلك، ولكن الاحتلال لم يلتفت إلىٰ أقواله، فحكم عليه بتسع مؤبدات إضافة إلىٰ عشرين سنة.

الشهيد عاصم صوافطة

القائد القسّامي عاصم صوافطة مقاتل صارم، تربىٰ علىٰ أيدي قادة عظام، من أمثال محمود أبو هنُّود، ونصر جرار.

عرف عاصم بأنه صعب المِراس، وعلىٰ الرغم من صغر سنه، إلا أنه حمل سلاحه مقاتلاً في صفوف «الحركة»، مؤتمراً بأمر أعلام المقاومة المجاهدين ممن أمُّوا طوباس، وعرفوا الأغوار ودهاليزها.

أسرة مجاهدة

تربىٰ شهيدنا القسّامي في بيت عرف بين أهالي البلدة بالتزامه، وتديُّنِ جميع أفراده، ولأبيه ثلاث بنات وخمسة من الذكور كان ترتيب عاصم الرابع بينهم، وقد نالت هذه الأسرة ابتلاءات في أبنائها، فثلاثة من إخوانه يقبعون في السجون الصهيونية، فشقيقه

فازع تتهمه «الأجهزة الأمنية الصهيونية» بالعضوية في «كتائب الشهيد عز الدين القسام» ـ الجناح العسكري لحركة «حماس»، وبأنه على علاقة بالقائد عادل عوض الله، وقد حكم عليه بالسجن سبع سنوات.

أما شقيقه الثاني عرفات، فقد اعتقل بتهمة إيواء مجاهدي «الكتائب».

أما شقيقه الثالث علاء فقصته مختلفة، لأنه كان معتقلاً للضغط على العائلة لتسليم عاصم، ولكن هيهات هيهات.

وقد شارك في انتفاضة الأقصى، فحمل السلاح، وخاض الاشتباك تلو الاشتباك مع جنود العدو ومستوطنيه في الأغوار، حتى وضعه الصهاينة على قوائم الاغتيالات، وغدا أحد أهم المطلوبين في منطقة طوباس، وصار متهماً عند القوات الصهيونية بأنه كان يعد العدة لتنفيذ عمليات استشهادية.

وشأن عاصم كشأن الكثير من شباب فلسطين، فقد حمل المسؤولية باكراً؛ إذ إنه شهد اعتقال إخوانه جميعاً، ولم يزل حينها غض البنية، صغير السن، ، ولم يكد يقترب من تحقيق حلمه بالحصول على الشهادة الثانوية العامة حتى أخذت الوحدات الخاصة الصهيونية تلاحقه في كل مكان ، تريد أن تسرق منه أحلامه كما سرقتها من كل شاب فلسطيني في مقتبل العمر.

لقد بدأت قصة عاصم مع المطاردة حينما اقتحمت المخابرات الفلسطينية بيته في طوباس تريد اعتقاله على إثر العملية الاستشهادية التي نفذها الاستشهادي أحمد دراغمة من «سرايا القدس» في مستوطنة بيسان، وكان أحد أصدقائه، اعتقل الشاب الصغير عاصم، ومكث مدة في المعتقلات الفلسطينية مع شقيقه عرفات، إلى أن منَّ الله عليه بالفرج إثر عمليات القصف والاجتياحات المتلاحقة التي تعرضت لها منطقة

جنين، فغدا طريد الاحتلال، يشكو إلى الله ظلم من ظلم، بعد أن اكتُشف أمر انتمائه إلى «كتائب الشهيد عز الدين القسام».

استهدفت «القوات الصهيونية الخاصة» منزل الشهيد مرات عدة بحثاً عن عاصم، إلا أن محاولاتهم جميعاً باءت بالفشل، ولما نفد صبر الضابط قال لوالده في آخر عمليات التفتيش: إن ولدك أصبح اليوم على قائمة التصفية، ولم يكن من الوالد الصابر إلا التسليم لأمر الله، وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، منتظراً من ولده إحدى الحسنيين.

جهاده

وكيف لا يكون أبرزَ مطلوبيها في المنطقة وقد انتقلت إليه خبرات عدد من القادة القساميين بعد أن خرجوا من مناطق مختلفة واتجهوا نحو طوباس، فكانت المأوى الذي احتضن مجموعات شمال الضفة في «كتائب القسام»، بل إن بعضهم استشهد فيها، وانتقال الخبرات هذا أكده بعض المقربين من قادة «الكتائب».

وفي يوم الثلاثاء الواقع في الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة **١٤٢٣**هـ، الموافق للتاسع والعشرين من شهر تشرين الأول لعام **٢٠٠٢**م، وقت أن كانت الساعة تشير إلى الثانية ليلاً، كان الهدوء يخيم على بلدة طوباس الشفاغورية الواقعة جنوب مدينة جنين، غير أن هذا الهدوء لم يدُمْ طويلاً؛ فالذئاب من «القوات الصهيونية الخاصة» تتسلّل إلى البلدة تريد تنفيذ عملية كبيرة، قد جنَّد قادة الجيش الصهيوني لأجلها عشرات الأفراد من قواته المدربين على حرب العصابات، هدفهم الذي يرمون إليه كان الوصول إلى الشهيد القسّامي والقائد الميداني عاصم صدقي صوافطة؛ فقد كان متحصناً في أحد البيوت المهجورة في تلك البلدة.

في الوقت الذي ضربت فيه القوات الصهيونية طوقها المحكم على المنزل، بدأ قائد الفرقة بدعوة عاصم عبر مكبرات الصوت إلى تسليم نفسه لقوات الصهاينة، ولكن كيف لعاصم أن يسلم نفسه وقدوته نصر جرار قائدُه في «الكتائب» الذي رفض تسليم نفسه للقوات الصهيونية على الرغم من أن ثلاثة من أطرافه مبتورة إثر انفجار عبوة كان يصنعها، ولم يعد يملك سوى طرف واحد، ويفضَّل أن يرتقي على هذه الأرض التي ارتقى منها سَلَفُه على أن يسلم نفسه.

وأثناء انتظار الصهاينة خروج عاصم منصاعاً لأوامر الجيش مسلماً نفسه إليهم، جاء الرد عبر سلاحه «الكلاشنكوف»؛ ليسطر ملحمة قسامية جديدة استمرت أربع ساعات على ثرى طوباس التي روى ترابها دماءُ قادة له سبقوه قبل أشهر، منهم قيس عدوان ونصر جرار.

وعند الساعة السادسة والنصف كانت آخر فصول الملحمة، وموعد ارتقاء الشهيد الذي لم يكمل عمره العشرين ربيعاً، وبهذه النهاية محت «إسرائيل» اسماً جديداً من قائمة أبرز المطلوبين لها في منطقة طوباس، وواحداً من المتهمين بضلوعهم في عمليات ضدها.

ولم يقف حقد قوات الصهاينة هنا، ولم يشف غليلهم قتل أبرز المطلوبين عندها، بل قامت في أعقاب العملية باختطاف جثمانه وأخذه من المكان.

بيت التهنئة

أقامت العائلة مع «حركة حماس» بيتاً للعزاء في البلدة، وقد أَمَّه مئات من المواطنين من أرجاء المحافظة كافة، جاؤوا لتقديم التهاني، وبعد إعلان نبأ الاستشهاد انهالت الاتصالات الهاتفية على بيت الأجر، قدَّم عبرها أبرز قادة «حماس» في فلسطين والخارج التهنئة لذوي الشهيد القسامي القائد عاصم صدقي صوافطة.

كان من أبرز المهنِّئين الزعيم الروحيّ لحركة المقاومة الإسلامية «حماس» الشيخُ أحمد ياسين، والدكتور موسىٰ أبو مرزوق عضو «المكتب السياسي لحركة حماس» في الخارج، والدكتور عبد العزيز الرنتيسي أحد أبرز قادتها في فلسطين، والدكتور محمود الزهار الناطق الرسمي باسمها، والأستاذ أسامة حمدان ممثل «الحركة» في لبنان.

قدم جميع المتحدثين تهنئتهم الحارة لذوي الشهيد علىٰ الشرف الذي ناله باستشهاده علىٰ أيدي القوات الصهيونية، ووجه القادة الثناء والتقدير لهم علىٰ المستوىٰ العالي الذي يحتذىٰ من الصبر أمام هذا الابتلاء، في وقت يقبع فيه أشقاء الشهيد الثلاثة في السجون الصهيونية.

كانت التعزية بالشهيد حفلاً خطابياً نثر فيه المتكلمون ما في جعبهم، وجعلوه منبراً لنشر الفكر الصحيح بين الجماهير، ولم يَفُتِ المتحدثين التأكيدُ علىٰ أن المقاومة هي الخيار الذي لا رجعة عنه في تقرير مصيرنا، ودحر الاحتلال الجاثم علىٰ ثرىٰ أرضنا ومقدساتنا، رافضين كل المخططات والمشاريع الهادفة إلىٰ القضاء علىٰ مقاومة الشعب الفلسطيني، كما أكد المتحدثون علىٰ أهمية التلاحم بين قوىٰ الشعب الفلسطيني، والوقوف في وجه كل محاولات المساس بها، محذّرين من أن التفرقة بين أبناء الشعب هو هدف من أهم أهداف العدو الصهيوني والمتعاونين معه لحرف مسار شعبنا عن مقاومته.

كما أقيم بيت تهنئة آخر في «سجن مجدو» تقبل فيه شقيقاه فازع وعرفات التهاني من معظم السجناء المجاهدين القابعين خلف قضبان سجون الاحتلال الصهيوني.

وباستشهاد عاصم ينضم شهيد جديد إلىٰ قافلة العطاء القسّامي المتواصل في سبيل دحر الصهاينة عن مقدساتنا الفلسطينية؛ ليعطي درساً وعاه كل من وعىٰ؛ أن لا طريق للتحرير إلا بالبندقية، فإلىٰ جنات الخلد يا عاصم.. مع الأنبياء.. والشهداء.. وحسُن أولئك رفيقاً.

مع الشهيد قيس عدوان

الذكريات نفحات من نسائم الخلان، آثارها محفورة في القلب والوجدان، تهبّ عليّ كثيراً فتحمل لي عبق إخوة عشنا سوية، وحملنا هموم الجهاد والوطن معاً، إنها مرتبطة بأحباء قلبي، وأشقاء روحي، وتحضرني الآن ذكرىٰ واحد منهم هو قيس عدوان من أبناء بلدة سيريس.

لن أتحدث في هذه السطور عن قيس الذي عشق ليلىٰ، ولكني سأتحدث عن قيس الذي عشق البندقية، وعشق فلسطين، وضحّىٰ بالكثير من أجلها.

ولد قيس في مدينة جنين عام **١٩٧٧**، لأسرة تنحدر من بلدة سيريس قضاء المدينة، التحق بالمسجد الكبير في المدينة، وأنهىٰ الثانوية عام **١٩٩٥** بتفوق، والتحق

بـ«جامعة النجاح» ليدرس الهندسة المعمارية، وكان ومن نشطاء «الكتلة الإسلامية»، حتىٰ أصبح رئيس مجلس الطلبة في الجامعة.

كان قيس رحمه الله ذا شخصية قيادية منذ صغره، وقد عمل في دوائر قيادية، جميل الخَلْق والخُلُق، علاقاته الاجتماعية واسعة، يحبه جميع من يعرفه، فهو يتميع بأسلوب مهذّب في التعامل، ذا قدرة علىٰ التأثير بالآخرين، يحمل همة عالية.

وفي «جامعة النجاح الوطنية» حين كنا ندرس ابتدأت علاقتي به، وشاءت إرادة الله أن نجتمع بعد ذلك في العمل الجهادي.

ابتدأ قيس العمل العسكري عن طريق مهند الطاهر، وكانت البداية عندما استشهد زكريا الكيلاني[1]، وكان ذلك في بداية انتفاضة الأقصى المباركة، بعدها توجه أخوه الأسير زيد الكيلاني إلىٰ قيس عدوان، وطلب منه أن يرسله إلىٰ الجناح العسكريّ، أو يصله بأحد مطاردي «كتائب القسام»؛ ليأخذ بثأر أخيه من الاحتلال.

كان قيس علىٰ معرفة سابقة بمهند الطاهر عندما كان طالباً بالجامعة، فجمع بين زيد وبين مهند، واتفقا فيما بينهما علىٰ عمل ما، وكان من ثمار ذلك تنفيذ هجوم في «وادي عارة» قتل فيه صهيونيّ، وجرح أحد عشر.

وبعد اعتقال زيد الكيلاني وُجّهت الأنظار إلىٰ قيس، واتهم بعلاقته بهذه العملية، وبدأت قوات الاحتلال بمطاردته.

وفي تلك الأثناء أوقف قيس اتصاله بمهند، وعمل علىٰ إنهاء مشروع تخرجه في الجامعة، ثم توجّه إلىٰ جنين ليلتحق بالجناح العسكريّ هناك.

---

(١) ولد عام ١٩٧٩، في بلدة سيريس ـ جنين، درس في «جامعة النجاح»، وانضمّ إلىٰ صفوف «الكتلة الإسلامية». استشهد في إحدىٰ المواجهات مع قوات الاحتلال عند أحد الحواجز في مدينة نابلس.

بعدها أرسله الجناح العسكري في جنين إليّ؛ بغية فتح خطّ عمل مع مدينة نابلس، والتنسيق مع أيمن حلاوة.

التقيت بقيس، ورتبت لقاءه بأيمن في شقتي بمدينة نابلس، فقام بتدريبه على بعض الدوائر الكهربائية، واتفقا على شحن عبوات ناسفة إلى مدينة جنين؛ لاستخدامها في تنفيذ عمليات ضد الإسرائيليين، وهيئت الوسائل ذلك مع محمود أبو هنُّود وأيمن حلاوة وقيس عدوان، ونقلوا عبوتين ناسفتين إلى مدينة جنين بمساعدة إياد حمادنة وأيمن حشايكة، وكانت بعد ذلك عملية «نهاريا» البطولية التي نفذها الاستشهادي شاكر حبيشة في محطه للقطارات، قتل فيها ثلاثة صهاينة، وجُرح سبعة وستون منهم.

اتفقت مع قيس على تنفيذ ثلاث عمليات متتالية في العمق الإسرائيلي ، ولكن حال بيننا وبين تنفيذ ما خططنا له اعتقالي على يد قوات الاحتلال.

قصة قيس مع شاكر حبيشة

حضر شاكر حبيشة من منطقة أبو سنان الواقعة داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م، وكان نشيطاً مقاوماً للاحتلال في منطقته، وبعد أن كشف أمره توجّه إلى منطقة جنين، وهناك بدأ يبحث عن قيس؛ لتجهيزه لتنفيذ عملية استشهادية، وقد بذل جهداً طويلاً في البحث، حتى إنه صار يسأل عنه في شوارع جنين، وظفر باللقاء به والحمد لله، ولم يذهب جهده سدى.

وفي هذا الوقت أصيبت «أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية» بحالة من الجنون وهستريا البحث عن حبيشة، فاجتمعوا بمخابرات «السلطة» في منطقة جنين، وطلبوا منهم العمل على إيجاده بأية وسيلة، فاستجابت «أجهزة السلطة»، وشنّت حملة تفتيش واسعة في جنين، ولكن بفضل الله تعالى، ثم بسرعة استجابة «القسام»، تشتتت

جهودهم، وأُحبطت مآربهم، وإذا بشهيدنا حبيشة ينادي عليهم من منطقة «نهاريا»: قد وصلت إلى هدفي، وأنتم مازلتم مجتمعين في جنين تتباحثون بأمري.

ومما لفت انتباه الجميع أنه بعد صنع أيمن للعبوة الناسفة التي كانت عبارة عن علبة «مسحوق شاين للغسيل» مفخخة سأله شاكر عن تكلفتها، فأخبره أنها كلفت ألفي شيكل، فقال: سأدفع ثمن العبوة من مالي.

لم يكتفِ رحمه الله بأن يبذل روحه في سبيل الله تعالى، بل أراد أن يجمع بين النفس والمال، ويكون من الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ممن ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

دور قيس عدوان في العمل

بعد أن دخل قيس في العمل العسكريّ أصبح له دور كبير في منطقة الشمال، وشارك في تطوير «صواريخ القسام» في الضفة الغربية، وتنفيذ العديد من العمليات الجهادية، وكان له دور بارز كذلك في عملية «المالحة» التي نفذها الاستشهاديان صالح كميل وأحمد عتيق، كما أنه كان مسؤولاً عن «عملية حيفا» التي وقعت أثناء اجتياح مخيم جنين، وسبق الحديث عنها.

استشهاده:

في يوم ٥/ ٤/ ٢٠٠٢ وبينما كان شهيدنا موجوداً في منطقة طوباس مع ثلة من رفاقه المجاهدين وهم سائد عواد، ومجدي بلاسمة، وأشرف ضراغمة، ومحمد كميل،

في منزل منقذ صوافطة[١]، جرىٰ اشتباك بينهم وبين قوات الاحتلال الخاصة لساعات عدة، فاستشهدوا جميعهم، واستشهد معهم صاحب المنزل وطفلة من بيت جيرانهم، وقتل في ذلك الاشتباك ضابط وجنديّ، وغادر الشهداء الدنيا ليكتبوا بدمائهم علىٰ جدران المنزل أن العزة لله تعالىٰ، ولدين الإسلام.

❊ ❊ ❊

(١) ولد بمدينة طوباس عام **١٩٧٣م**، متزوج وله ثلاثة أطفال، عُرف بأخلاقه وتدينه، وكان أحد نشطاء الانتفاضة الأولىٰ، واعتقل فيها. عُرف بنشاطه الخيري الاجتماعي. استشهد بعد أن داهمت القوات الخاصة الإسرائيلية منزله بتاريخ **٥/ ٤/ ٢٠٠٢**.

الشهيد إبراهيم هواش

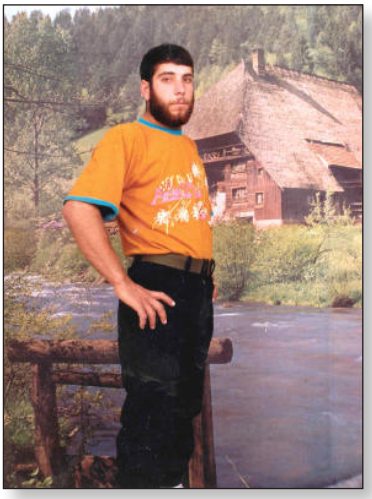

من مواليد مدينة نابلس عام ١٩٧٠، ومن سكان منطقة رأس العين فيها، ونشأ في أسرة بسيطة محافظة عرفت بالعفة والخلق، وارتاد مسجد صلاح الدين ومسجد الخضراء، ومسجد طارق بن زياد، وعرف بتقواه وورعه ونشاطه.

مع بداية رحلة المقاومة تعرفت على إبراهيم هواش وكان يساعدني في بعض الأمور إضافة إلى توفير مأوى لي ولعدد من المجاهدين مثل مهند الطاهر، وطاهر جرارعة، وزياد الخليلي رحمهم الله.

كان هذا البطل مفعماً بالنشاط والحيوية، يمكن وصفه بأنه رجل المهمات الصعبة،

إذا طلب منه شيء لم يكن يهدأ له بال قبل أن ينجزه، سواء كان بيتاً للإيجار، أو شراء لمواد كيماوية لتصنع المتفجرات، أو نقلاً لمطاردين، أو إيواء لهم، وهو الذي أحضر مواد كيماوية في عملية أساسية كعملية «سبارو» وغيرها .

كان رحمه الله رجلاً صلباً، وشجاعاً مقداماً، شعلة من النشاط والعمل، عمل مع العديد من المطاردين، من أمثال المجاهد ـ أسد الجبال ـ القائد نصر الدين عصيدة، فقد عاش معه في الجبال على الرغم من صعوبة العيش، يسعى دائماً في توفير خدمات أساسية للعمل العسكري.

تاريخ معطاء، حافل بالعمل والجهاد، شمل مجالات عديدة منها العمل الاجتماعي، والخيري، والميداني، والأنشطة المسجدية والدعوية، وكان قد أُوكل إليه الإشراف على الأنشطة الميدانية والفعاليات في الانتفاضة، وكان يشرف على توفير الرايات واللافتات، ومكبرات الصوت، في المسيرات والمهرجانات واعتقل لدى «السلطة» عدة مرات.

كان رحمه الله داعياً نَشِطاً في الانتفاضة الأولى، وداعماً قوياً لتفعيل المواجهات مع قوات الاحتلال.

لقد عرفت الشهيد عن قرب، فكان مثالاً للشباب المجاهد في أدبه وأخلاقه وسلوكه، وأحسبه عند الله من المخلصين، لم يكن يفارقه تمني الشهادة، حريصاً على حضور صلاة الفجر في المسجد، وكان من قوات حماس الضاربة.

وفي يوم **٢٥/ ١٢/ ٢٠٠٢** واجهته قوات الاحتلال فرفض الهرب، واستمر في المواجهة حتى حوصر في أحد البيوت، وأطلقت قوات الاحتلال النار عليه، ورفضوا تقديم العلاج له بعد إصابته، فاغتيل بدم بارد، رحمه الله رحمة واسعة.

الشهيد محمد زياد الخليلي

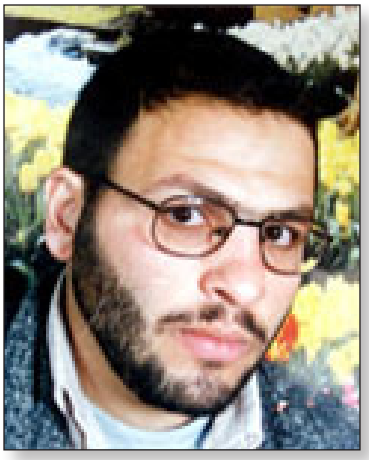

ولد في ١٤/ ١/ ١٩٧٦م لأسرة متدينة تسكن رأس العين.

تعرفت على هذا البطل عن طريق إبراهيم هواش، حيث دخلت معه إحدى الحارات، وكان الناس يتكلمون عنه وعن التزامه وسلوكه، فقد كان من الملازمين لصلاة الفجر في المسجد، وارتاد مسجد صلاح الدين منذ نعومة أظفاره، وكان من الملتزمين في صفوف «الحركة» منذ الانتفاضة الأولى، ومن الشباب الداعين لتنشيط العمل المسجدي في الخدمات والمساعدات.

كان رحمه الله رياضياً، ذا بنية قوية، يتقن لعبة «الكاراتيه»، ويعدّ من قوات «حماس» الضاربة في الانتفاضة الأولى، كأنه شعلة متقدة من العمل والنشاط، ولقد أصبح مطارداً ومطلوباً لقوات الاحتلال بعد انكشاف دوره في العمل العسكري مع

القائد نصر جرار من جنين، ومحمود المدني[١]، فقد كلف بشراء سيارة من أحد تجار السيارات المسروقة من إحدىٰ قرىٰ جنين، وصار محل شبهة، فاعتقله «الأمن الوقائي» في جنين، وخضع عندهم للتحقيق.

وبعد ضغوط شعبية أفرج عنه، وسُلّم لـ«الحركة»، ثم عاد إلىٰ نابلس، واختفىٰ مدة من الزمن. التحق بالجناح العسكري بنابلس، وبعد اغتيال محمود المدني الذي كان يعمل مع نصر جرار في الجناح العسكري بجنين، وهذه المجموعة هي المسؤولة في بداية الانتفاضة عن عملية الخضيرة التي قُتل فيها ثمانية صهاينة، وجُرح خمسة وأربعون منهم، وهي المسؤولة أيضاً عن العملية التي نفذها حامد أبو حجلة، وجرح فيها تسعة وأربعون صهيونياً.

لقد كان هذا البطل تواقاً للشهادة، وأراد مرتين أن ينفذ عملية استشهادية عن طريق نصر جرار ومحمود المدني، ثم التحق بالقائد نصر الدين عصيدة ـ أسد الجبال ـ وعمل معه مدة من الزمن، وعاش معه حياة قاسية في الجبال، وشارك في رصد مواقع للعمليات، وقام بنقل عبوات ومواد في الجبال.

ثم التحق بعد ذلك بالعمل مع القائد مهند الطاهر وطاهر جرارعة، وبتاريخ ٦/ ٢/ ٢٠٠٢م نفذ عملية بطولية في «مستوطنة الحمراء» في الأغوار الشمالية، هي

---

(١) ولد بنابلس عام ١٩٧٦، وترعرع في المساجد والتحق بصفوف الحركة في سن مبكرة. اعتقل عام ١٩٩٢، وخاض تحقيقاً قاسياً وانتقل بين جميع مقرات التحقيق، ثم اعتقل مرة أخرىٰ، وخضع لتحقيق جسدي قاس، وأمضىٰ تسعة شهور في الاعتقال الإداري. حصل علىٰ شهادة الثانوية العامة داخل السجن، والتحق بعد الإفراج عنه بـ«جامعة النجاح»، إلا أنه لم يستطع إكمال دراسته بسبب وفاة والده عام ١٩٩٩، وتحمله للالتزامات العائلية. انضم إلىٰ صفوف «القسام» مع بداية انتفاضة الأقصىٰ، وكانت له بصمات واضحة في عملية الاستشهادي حامد أبو حجلة في «نتانيا» بتاريخ ١/ ١/ ٢٠٠١. واغتيل محمود بتاريخ ١٩/ ٢/ ٢٠٠١ برصاصات من قناص باغته بها.

«عملية الحمراء الثانية»، وكان ناجي وسعيد بشارات قد شاركا بالإعداد لها، حيث قام باقتحام المستوطنة، وقتل أربعة صهاينة، وارتقى شهيداً إلى رحمة ربه، رحمه الله رحمة واسعة، وجمعنا به في جنات النعيم.

❊ ❊ ❊

الشهيد سامي زيدان

ولد سامي زيدان عام ١٩٨٠م في قرية تل بقضاء نابلس وعاش عاشقاً لأرضه ووطنه كغيره من أطفال فلسطين، محباً لإخوانه، حفظ القرآن الكريم منذ صغره، حتى إذا أتم العشرين ربيعاً من عمره قرر أن يغيّر أسلوب حياته، وأراد أن يعيش حياة لا يقدِرُ عليها إلا أشداءُ الرجال وعظماؤهم، حياة ملؤها الجدّ والتضحية، خرج من البيت ليلتحق بإخوانه المجاهدين القسّاميين؛ ياسر عصيدة، وعاصم عصيدة، ونائل رمضان، ومحمد ريحان، وعاصم ريحان، الذين عملوا في «كتائب القسام» تحت قيادة القائد نصر الدين عصيدة.

لجأ مع أفراد مجموعته، وعلىٰ رأسهم عاصم عصيدة، وبلال عابد، ونصر الدين عصيدة ، إلىٰ الجبال بهدف التخطيط لعمليات عسكرية ستنفذ ضد جنود الاحتلال و«المستوطنات الصهيونية».

ومن المواقف التي قام بها سامي علىٰ أحسن وجه أن القائد نصر الدين عصيدة كلفه في إحدىٰ المهام بمراقبة «مستوطنة عمانوئيل» مدة ستة أيام بلياليها، فاتخذ مكاناً قريباً جداً من المستوطنة، وكان زميله عاصم عصيدة يُحضِر له الطعامَ والماء في تلك الأثناء، وقد تمكن بالفعل من القيام بمهمته بنجاح باهر، واستطاع جمع المعلومات الضرورية اللازمة لنجاح التخطيط والتنفيذ لعملية «عمانوئيل الثانية»، التي اشترك فيها مع صديقه ورفيق دربه في الجهاد عاصم عصيدة، واستهدفا فيها حافلةً بالعبوات الجانبية وبالأسلحة الرشاشة، وقد كانت عملية نوعية، نتج عنها مقتل عشرة صهاينة، وإصابة عشرين آخرين.

وبعد إنجاز مهمتهم على الوجه الأكمل انسحبا من مكان العملية، وتوجّها إلى وادي قانا، ومكثا فيه إلى الصباح، ثم اشتبكا مع وحدة صهيونية خاصة أرسلت لتمشيط المنطقة، فقتلا قائد الوحدة وأصابا أربعة جنود آخرين، غير أن ذخيرة سامي نفدت، فأصر عليه عاصم أن ينسحب من المنطقة؛ ليؤمن له عاصم غطاء انسحابه، واستطاع بطلنا سامي الانسحاب والعودة سالماً بعد ملحمة بطولية في «عمانويل» ووادي قانا، واستشهد حينها عاصم عصيدة.

وبعد سبعة شهور من العملية، ذهب لتنفيذ عملية أخرى بالقرب من قرية «عوريف»، يرافقه القائد نصر الدين عصيدة، فاشتبكا مع وحدة صهيونية في جبال القرية، وارتقى سامي حينئذ شهيداً إلى رحمة الله، وكان ذلك في ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٢م، وقد ترك المجرمون الصهاينة جثمانه الطاهر في مكان الاشتباك، ولم يعلم أحد بذلك، لولا أن أحد رعاة قرية «عوريف» عثر عليه، وعلم وقتها أن هذه جثة البطل سامي زيدان.

❊ ❊ ❊

الشهيد سعيد حسن حسين الحوتري

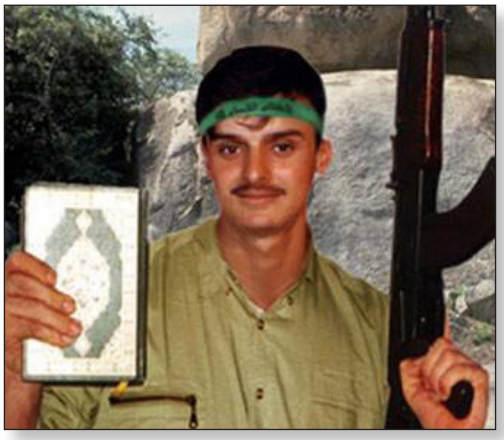

إنه منفذ العملية الاستشهادية المعروفة بعملية «الدلفناريوم»، التي وقعت بتاريخ ١/٦/٢٠٠١م في ملهى ليلي بمدينة تل الربيع.

يحمل في قلبه عشق فلسطين، قبل أن يحمل الجنسية الفلسطينية على بطاقته الشخصية، وهو من مدينة قلقيلية، لكنه ولد في الأردن يوم ١/١/١٩٧٩ بمنطقة عوجان التي تبعد ٣٥ كم عن العاصمة عمّان؛ لأن والده كان قد أُبعد عن الوطن بسبب انضمامه للثورة الفلسطينية ومقاومة الاحتلال.

تربى سعيد في أسرة ملتزمة بأحكام الدين، تحرص على تطبيق أحكام شرع الله تعالى، فكان منذ نعومة أظفاره مواظباً على صلاة الجماعة في المسجد.

أنهى شهيدنا دراسته الثانوية في الأردن، ودرس تمديد الكهرباء للمنازل ضمن دورة تدريبية في معهد للتدريب المهني في الأردن.

كان سعيد رحمه الله كثيراً ما يسأل والديه عن سبب إبعادهم عن أرض فلسطين، ويحب أن يعرف الكثير عن مدينة قلقيلية وعن أقاربه، ويحدث أهله عن ضرورة العودة إلى أرض الوطن، واجتماع شمل العائلة، واللقاء ببقية الأهل والأقارب.

وما أكثر ما كان يطلب من والده السماح له بالعودة للعيش في بيت جده في مدينة قلقيلية؛ متذرعاً بالعمل في مجال الكهرباء، عساه أن يساعد والده في أعباء المنزل، ولكن الهدف الرئيس من وراء هذا الطلب هو السعي وراء الشهادة على أرض فلسطين؛ فقد كان كثير المتابعة لأحوال فلسطين وأخبارها، وكانت أخبار مدينة قلقيلية تأخذ حيزاً كبيراً من اهتمامه، فكان يحفظ الكثير من الأحداث والوقائع، ربما أكثر من سكان البلد أنفسهم.

كان شديد التأثر بالمواقف الحزينة، ويتألم كثيراً عند سماع أو مشاهدة عمليات إسرائيلية يقتل فيها الأطفال والنساء والشيوخ.

كان الشهيد من المعجبين بحركة «حماس» وقادتها وشهدائها، وعلى الأخص القائد يحيى عياش، وصالح صوي نزال أحد أبناء مدينة قلقيلية، ومنفذ «عملية تل الربيع»، التي نفذت في **١٩/ ١٠/ ١٩٩٤م**، والمعروفة باسم «الديزنغوف»، ونتج عنها مقتل اثنين وعشرين صهيونياً وجرح سبعة وأربعين آخرين، وقدرت الخسائر المادية التي تسبب بها بما يقارب مليونين ونصف المليون دولار.

صفاته

كان سعيد الحوتري هادئاً وقوراً، قوي الشخصية، شديد السرية في أعماله، قوي البنية على الرغم من صغر حجمه، يجيد لعبة «الكارتيه» باحتراف، حتى إن أحد

أصدقائه كان يقول: «إن سعيداً لو ألقيت به من أي مكان يقع واقفاً».

ولكنه كذلك كان شديد الغضب إذا استفزّه أحد، لا يخشى في الله لومة لائم، فبعد أن اعتقل على إثر عملية «فادي عامر» عجز «جهاز الوقائي» أن يستخرج منه أي اعتراف حول تلك القضية، ولم يتمكنوا من الحصول على معلومة واحدة، ولم تفلح شدة التعذيب، ولا تنوع الإهانات التي تعرض لها من ضباط التحقيق في استخراج شيء مما يريدون.

الرجوع إلى الوطن

بعد إلحاحٍ شديد وفي عام **١٩٩٩** م اقتنع والده بفكرة إرساله إلى البلد الذي طالما حلم بالذهاب إليه، فسمح له بالعودة إلى فلسطين، وتحققت بذلك أحلامه، وكانت سعادته لا توصف.

استقر في البلدة القديمة في قلقيلية، وسكن في بيت جده حسين الحوتري الذي كان مجاوراً للمسجد القديم، فأصبح من رواد المسجد، والتحق بصفوف «الحركة الإسلامية»، وتعرف على أبناء المسجد، ولازم الأُسر الإخوانية، والتحق بأسرة فادي عامر الذي صار أعز أصدقائه.

في ذلك الوقت بدأ التفكير بالعمل العسكري مع أبناء أسرته، وكان العمل في البداية فردياً، لم يكن لـ«الحركة» علم به، وجعلوا رئيس مجموعتهم فادي عامر، وتعاهدوا على الموت في سبيل الله، وجمعوا مبلغاً من المال اشتروا به مسدساً كانوا يطلقون به النار على سيارات المستوطنين في الشوارع الالتفافية المحيطة بمدينة قلقيلية.

ومع بداية انتفاضة الأقصى عام **٢٠٠٠م** بدأ سعيد وفادي يفكران بتنفيذ عملية استشهادية، فكان لا بد من البحث عمّن يصلهم بقيادة «كتائب القسام» في قلقيلية؛

لمساعدتهم في ذلك، إلا أنّ الأمور كانت صعبة في بدايتها بسبب الأحداث المتسارعة، فالتجآ إلى طارق أبو مريم، وهو أحد المعروفين في «حماس»، وطلبا منه المساعدة في التواصل مع «كتائب القسام»، وبعد الاستفسار منهما عرف ما يهدفان إليه.

كان لطارق علاقة بجبريل جبريل الذي كان له خبرة بسيطة بعمل العبوات، فاتفقوا جميعاً على العمل العسكري لتجهيز عبوة ناسفة، وتنفيذ عملية استشهادية، وكُلّف جبريل بإعداد العبوة.

ولم تكن المهمة بسيطة، فقد تطلب هذا الأمر شراء عدد كبير من علب الكبريت، ثم نزع مادة الكبريت عن الأعواد عوداً عوداً، ولك أن تتخيل مقدار العمل الذي يحتاجه هذا الأمر، والزمن الذي يستغرقه جمع ما يقارب ٣٠٠ غرام من مادة الكبريت.

بعد أن أنجزوا العمل قام جبريل بصناعة عبوة مكونة من أسطوانة «ماسورة» قطرها ٢ إنش، وطولها ٣٠سم، ووضع فيها صاعقاً كهربائياً، ولكن خلافاً وقع بين فادي وسعيد بعد تجهيز العبوة، حول من منهما سينفذ العملية، وبعد جدال طويل قال فادي لسعيد: أنا أمير أسرتك، وهذا قرار تنظيميّ ويجب الالتزام به، وأنا سأنفذ العملية، وسأطلب من جبريل أن يصنع لك عبوة ثانية بعد تنفيذ العملية مباشرة، وسنلتقي في الجنة إن شاء الله.

كان الاتفاق على أن يكون موقع التفجير داخل «إسرائيل»، فأوصل جبريل فادي بنفسه، وسارا مشياً على الأقدام؛ ليتمكنوا من تجاوز الحواجز العسكرية دون المرور على التفتيش، ولكنَّ قَدَرَ الله كان ينتظر مجموعة من طلاب «الجامعة اليهودية» كانوا ينتظرون في موقف للحافلات بالقرب من مدخل قرية يهودية قريبة من قلقيلية تسمى «النبي يامين»، وكانوا أولئك الطلاب في طريقهما، فقال فادي لجبريل: لماذا نذهب للداخل وأمامنا هذه المجموعة؟ وأراد فادي أن ينفذ العلمية فيهم، فطلب

من جبريل إخلاء المكان، ثم انقض على مجموعة المستوطنين، وفجّر نفسه بهم، وعاد جبريل إلى قلقيلية سالماً بفضل الله تعالى.

كان من ثمار هذه العملية مقتل ثلاثة مستوطنين، وجرح عشرة آخرين، ولكن السرور لم يكتمل؛ إذ قامت «أجهزة السلطة» باعتقال أصدقاء فادي عامر إثر العملية، وكان في مقدمة المعتقلين سعيد الحوتري وإبراهيم دحمس، وأخضع «جهاز الأمن الوقائي» سعيداً للتحقيق بقصد انتزاع اعترافات منه عن تفاصيل العملية، ولكن دون جدوى، فلم يتعاون سعيد مع المحققين، ولم يستطيعوا انتزاع كلمة واحدة منه على الرغم من شدة التعذيب الذي تعرض له.

وأثناء اعتقاله في سجن «الأمن الوقائي» التقى سعيد بقائد «كتائب القسام» في قلقيلية عبد الرحمن محمد سعيد حمّاد، فطلب منه السماح له بتنفيذ عملية نوعية كعملية صالح صوي نزّال، فوعده القائد عبد الرحمن بأنه سوف يلبي طلبه بعد خروجهما من السجن، وحثه على الصبر وعدم الاستعجال حتى يأتي الوقت المناسب.

ولم تمض إلا عدة أيام حتى خرجا من السجن، فعملا على الإعداد والتخطيط لعملية نوعية، كان الهدف منها هو ضرب السياحة والهجرة الصهيونية، وخاصة المهاجرين الروس الذين كانت إسرائيل تجلبهم للاستيطان في أراضينا.

حُدّد مكانُ تنفيذ العملية، وجرى رصد ملهى ليليّ في مدينة تل الربيع يعرف باسم «الدلفناريوم»، فقد كان يرتاده قرابة ٦٠٠ شخص معظمهم من المهاجرين الروس، تتراوح أعمارهم ما بين ١٧ – ٢٥ سنة.

كان أمر إيصال الاستشهادي إلى موقع تنفيذ العملية أمراً مقلقاً وصعباً جداً، وكان لابد من الاستعانة بأشخاص من الداخل يحملون بطاقة إسرائيلية؛ بسبب صعوبة الدخول إلى أراضي عام ٤٨ لكثرة الحواجز، وتشديد التفتيش، ويسّر الله

سبحانه التواصل مع أنس أبو علبة وهو من سكان قلقيلية، ويعمل في نفس المنطقة.

اتصل أنس بأخ من الداخل لديه سيارة أجرة، وطلب منه توصيل سعيد الحوتري إلى موقع تنفيذ العملية بذريعة البحث عن عمل، ولم يكن السائق على علم بطبيعة المهمة التي سيقوم سعيد بتنفيذها، لدرجة أنه أحضر ابنته الصغيرة التي تبلغ من العمر خمسة أعوام.

بقي سعيد الحوتري يداعب الطفلة طول الطريق، ولكنه أخطأ التقدير؛ فعند وصوله لموقع تنفيذ العملية نزل من السيارة، وطلب من السائق إخلاء المكان بأقصى سرعة؛ لأنه ينوي تفجير نفسه، فوقع كلام سعيد هذا كالصاعقة على السائق، فخرج من المنطقة مسرعاً، واصطدم بعامود كهرباء من شدة اضطرابه، فتعطلت سيارته، واتصل بأخيه الذي يعمل مع «المخابرات الإسرائيلية»، وكان من الطبيعي أن يقوم العميل بإبلاغهم بما جرى، فاعتقلت المخابرات السائق، وطلبت منه العودة إلى قلقيلية، واستدراج أنس أبو علبة للقبض عليه، غير أن أنساً كان متيقظاً، ولكنه أخطأ من جهة أخرى فأرسل أحد أصدقائه الذي اعتقل حينها، وبعد عدة أشهر من المطاردة اغتيل أنس على حدود مدينة قلقيلية أثناء توجهه للعمل.

وعلى إثر عملية سعيد الحوتري نشرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» وصحيفة «معاريف» الإسرائيليتان قائمة شبكة القيادات المطلوب تصفيتهم في الضفة وغزة، وكان من ضمنهم القائد عبد الرحمن حمّاد، والقائد ناصر عبد الفتاح نزّال، والقائد رائد الحوتري، وإبراهيم دحمس.

وفي ٠٤/ ١٠/ ٢٠٠١م بدأت قوات الاحتلال بتنفيذ ما خططت له فقامت باغتيال قائد «كتائب القسام» الأول في قلقيلية عبد الرحمن حمّاد؛ بتهمته التخطيط لـ«عملية النبي يامين» وعملية سعيد الحوتري.

وفي اليوم الذي أراد الله أن يصطفي إليه عبد الرحمن حماد، وفي ساعات الصباح الباكر كان القائد على سطح منزله القريب من الجدار الفاصل، يقرأ القرآن، ويسبح ربه تعالى، وكان يمشي فوق المنزل، فأصابته ثلاث رصاصات من القناص المتمركز على رافعة كانت تستخدم لتركيب الجدار الفاصل المقابل لبيته، اخترقت الرصاصات صدره، فارتقى شهيداً بإذن الله.

ظن المجرمون أنهم بالقضاء على القائد سينالون من المقاومة، أو يضعفونها، ولكن فاتهم أن رحم الجهاد لا يتوقف عن إخراج القائد تلو القائد، وأن من يستشهد يأتي من إخوانه من يخلفه في مهمته، ليذيقهم وبال ما صنعوا، فبعد استشهاد القائد عبد الرحمن حمّاد ترأس قيادة «كتائب القسام» القائد ناصر عبد الفتاح نزّال، مهندس الأحزمة الناسفة والمتفجرات.

❊ ❊ ❊

الشهيد طاهر جرارعة

ولد في نابلس عام **١٩٧٤م**، وبعد عام انتقل مع عائلته إلى الكويت، وعاد مع حرب الخليج عام **١٩٩٠م** إلى قريته عصيرة الشمالية، فأكمل دراسته الثانوية في مدارسها وتفوَّق، والتحق بجامعة النجاح، وبدأ بدراسة العلوم، ثم تحوّل إلى دراسة الشريعة في «جامعة النجاح»، فحصل على البكالوريوس، وانضم إلى الدراسات العليا، لكن لم يُتمها لانشغاله بالمقاومة التي انضم إليها عام **١٩٩٤م**.

كان طاهر حافظاً لكتاب الله عز وجل، شفّاف النفس، صافي الروح، وكان يدرس علوم الشريعة ذا شخصية حيوية في العمل الجهاديّ، رياضيّ الجسم والهوى، يحب لعبة كرة القدم.

تعرفت على هذا البطل في «جامعة النجاح»؛ وكان حينئذ واحداً من شباب «الكتلة الإسلامية»، إلا أن هذه الصحبة لم تدم طويلاً، فقد اعتقلتني قوات الاحتلال

مدة خمس سنوات ونصف السنة، وبعد الإفراج عني خضت غمار العمل العسكري، ومع بداية الانتفاضة المباركة التقيت به مرة أخرىٰ، وكان ذلك عن طريق القائد أيمن حلاوة، حينما أرسل لي معه قطعة سلاح.

وكان طاهر جرارعة في إطار التنظيم مرتبطاً بمهند الطاهر، وكانت علاقتي بهما علاقة تنسيق.

لقد كانت حياة هذا القائد القساميّ حافلة بالعمل والعطاء، يعد من القادة الأساسيين في مدينة نابلس.

اعتقلته «أجهزة السلطة» أربع سنوات بسبب علاقته بالقائد محمود أبو هنُّود، وفي بداية انتفاضة الأقصى أفرج عنه، فعاد مجدداً إلىٰ عمله العسكري، وكان من القادة المؤسسين في بداية الانتفاضة إلىٰ جانب مهند الطاهر ونصر الدين عصيدة وأيمن حلاوة.

عمل طاهر أيضاً مع نصر الدين عصيدة، وعاش معه في الجبال، وشارك في عدة عمليات بطولية، وزرع عدة عبوات، من بينها «عملية الحمرا» التي نفذها زياد الخليلي، وشارك أيضاً بإعداد «عملية آلون موريه» التي نفذها البطل أحمد عبد الجواد رحمه الله وقتل فيها أربعة صهاينة، وكان كذلك وراء عملية الاستشهادي مؤيد صلاح الدين[1] قرب باقة الغربية علىٰ حدود مناطق ٤٨، وكان من نتائجها إصابة عدد من

---

(١) ولد بمدينة طولكرم عام ١٩٧٦م لأسرة متدينة، والتحق بصفوف حركة «حماس» عام ١٩٨٧، وكان أحد نشطاء الانتفاضة الأولىٰ. ومن نشطاء العمل الطلابي في المدرسة، واعتقل عام ١٩٩٢، وأمضىٰ ثمانية شهور. بعد الإفراج عنه أنهىٰ الثانوية العامة بمعدل ٤ , ٩٢ والتحق بـ«جامعة بيرزيت» قسم الهندسة الكهربائية، واعتقل بتهمة إيواء حسن سلامة، وأفرج عنه بعد عام. انتقل إلىٰ «جامعة النجاح»، وأصبح أحد ناشطي «الكتلة الإسلامية» فيها. استشهد بتاريخ ٨/ ١١/ ٢٠٠١م.

الجنود والقوات الخاصة، كما شارك رحمه الله في زرع عشرات العبوات في محيط نابلس برفقة نصر الدين وكريم مفارجة ونسيم أبو الروس.

في إحدىٰ الجنازات التي شارك فيها طاهر كانت الناس تهتف لمهند الطاهر فسأله أحد الإخوة لماذا لا يهتفون لك، فأجابه: أنني أريدُ الأجر الكامل من الله فقط، ومن الجدير بالذكر أن دور طاهر لا يقل عن دور مهند وغالبية أعمالهم كانت مشتركة.

استشهد رحمه الله في اشتباك مع قوات الاحتلال، واستشهد معه إياد حمادنة[1] مساعد محمود أبو هنُّود، وذلك عندما حاصرتهم قوات الاحتلال بين عصيرة الشمالية وقرية طلوزة في أرض زراعية تتخللها الأشجار، مما جعل اختفاءهما أمراً عسيراً، فاشتبكا معها، وقتلا ضابطاً في جيش الاحتلال، وجرحا عدداً من الجنود ثم ارتقيا إلىٰ بارئهما، وكان ذلك في ٢١/ ٤/ ٢٠٠٢م رحمهما الله رحمة واسعة، وجمعنا بهما في جنات النعيم.

* * *

(١) ولد بتاريخ ١١/ ٦/ ١٩٧٩م بمدينة الزرقاء في الأردن، وله شقيق واحد، ودرس في مدارس الأردن حتىٰ الأول الثانوي الصناعي، ثم عاد مع عائلته إلىٰ عصيرة الشمالية في فلسطين، وارتاد مسجدها، وتتلمذ علىٰ يد هاني رواجبة. كان دائماً يتحسر علىٰ الوقت الذي أمضاه بعيداً عن فلسطين والجهاد فيها. وفي بداية العام ٢٠٠٠م التحق بـ«كتائب القسام»، وبدأ العمل مع خلية القائد محمود أبو هنُّود، ثم اعتقل لدىٰ المخابرات الفلسطينية مدة شهر وأفرج عنه بعد ذلك.
اعتقله «الأمن الوقائي» في كمين وهو ينقل السلاح بسيارته، ثم أفرج عنه بعد سبع شهور من التحقيق.

الشهيد عاصم ريحان

ولد عاصم ريحان في قرية تل يوم ٢/ ٧/ ١٩٨٠م.

وعُرف بحب المسجد، وقراءة القرآن، وكان الله قد وهبه صوتاً جميلاً، وكأنه أوتي مزماراً من مزامير آل داود، وكان يمارس رياضة الكراتيه وكان معه الحزام الأسود، أنهى دراسته الابتدائية والثانوية في مدارس قريته، ثم التحق بـ«جامعة النجاح الوطنية»، وكان كالغيث حيثما حل انتفع به الناس حوله.

ابتدأ في الجامعة مشواراً جديداً في خدمة الطلبة، حيث دخل المؤتمر العام لمجلس الطلبة، وكان أميراً لكلية الاقتصاد.

انضم إلى «كتائب الشهيد عز الدين القسام»، وكان ذلك مثار تغيير كبير في حياته، وانتقل بذلك من حياة الطالب إلى حياة الجهاد ضد العدوّ الصهيوني، وكان رفيق دربه رئيس مجلس الطلبة السابق المهندس القائد قيس عدوان.

بحثَتْ عنه قواتُ «جيش الدفاع الصهيوني» يوم استشهاد شقيقه محمد، ونجا منهم بفضل الله، فلم يجدوه، وخرج من بيته مطارَداً.

ولم يكن قد مضى غير شهر على رحيل أخيه محمد عندما نفذ «عملية عمانوئيل» الاستشهادية الأولى، وذلك ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، ونتج عنها مقتل اثنا عشر صهيونياً، وجرح خمسة وثلاثين آخرين.

كانت هذه العملية رداً على اغتيال القادة محمود أبو هنُّود، ومحمد ريحان، وياسر عصيدة، وقد وجهت المقاومة بها ضربة موجعة للصهاينة.

❊ ❊ ❊

الشهيد عاصم عصيدة

ولد البطل عاصم عصيدة صباح يوم الجمعة ٢/ ١١/ ١٩٧٩م، في قرية تل قضاء نابلس.

وتلقى تعليمه الأساسيّ والثانوي في مدرسة تل الثانوية، وكان يجمع هواياتٍ متعددة منها صيد السمك، وكان قناصاً بارعاً، إضافة إلى تعلقّه بسباق العَدْوِ للمسافات الطويلة، وقد شارك في «سباق الضاحية» في محافظة نابلس، وكذلك كان محترفاً للعبة «تنس الطاولة»، وحصل على المرتبة الثانية في محافظة نابلس على مستوى المدارس الثانوية، وكان يتدرب كذلك على رياضة «الكاراتيه».

كل تلك المهارات كان مضافاً إليها حسن الخلق، وروح الدعابة.

انضم رحمه الله إلى «كتائب الشهيد عز الدين القسام» على يد القائد البطل نصر الدين عصيدة، فعمل بصمت دون أن يعلم به أحد إلى أن جاء يوم ٤/ ١/ ٢٠٠٢م، عندما وقع اشتباك عسكري في ساعات الفجر الأولى بين مجموعة من أبطال «القسام» تضم كلاً من نصر الدين عصيدة ونائل رمضان وأيوب عصيدة، وبين وحدة عسكرية إسرائيلية، وقد أسفر عن هذا الاشتباك استشهاد البطل نائل رمضان، واعتقال أيوب عصيدة، بينما تمكن القائد نصر الدين من الانسحاب من المكان بسلام.

في ذلك اليوم غادر عاصم منزله مُطارداً مع خاله عمر عصيدة، ورفيق دربه سامي زيدان، ونصر الدين عصيدة، ولجأوا إلى الجبال؛ ليتخذوا منها ملاذاً آمناً لهم، وقاعدة لانطلاق جهادهم ضد جيش الاحتلال والمستوطنين الغاصبين، وقد بذلت قوات الاحتلال جهوداً مضنية للقضاء على أعضاء هذه الخلية التي أذاقت الاحتلال العديد من الضربات الموجعة خلال مدة قصيرة.

وكان من الأدوار التي أوكلها القائد نصر الدين عصيدة لعاصم تصنيع العبوات

الناسفة، والتدريب، ومراقبة عدد من المستوطنات وتحركات قوات الاحتلال

استمر عاصم مُطارداً مع زملائه إلى أن جاء يوم ١٦/ ٧/ ٢٠٠٢م حين اكتمل التخطيط للعملية البطولية المشهورة «عمانوئيل الثانية» على يد القائد نصر الدين عصيدة، هذه العملية جاءت في وقت اعتقدت فيها قوات الاحتلال أنها قد أحكمت السيطرة على الضفة الغربية، ولم يعد بإمكان المقاومة والمجاهدين القيام بأيّ عمل، وإذا بالصفعة تأتي من حيث لم يحتسبوا، كانت هذه العملية مفاجئة للأصدقاء والأعداء، سقطت بها «نظرية الأمن الصهيونيّ»، والمفاجئ أكثر أنها وقعت في المكان نفسه الذي وقعت فيه «عملية عمانوئيل الأولى».

كان عاصم هو الاستشهادي الذي وقع عليه اختيار القائد نصر الدين لتنفيذ هذه العملية، يشاركه فيها سامي زيدان، على أن يكون كل من بلال عابد، وأيمن، وعنان قادوس[1] بمثابة خلية إسناد لهما.

استهدفت هذه العملية حافلة صهيونية، وجرى زرع عدد من العبوات الناسفة، وعندما وصلت قام عاصم بالتفجير، وانقض مع زميله سامي عليها بالقنابل اليدوية والأسلحة الرشاشة، وتمكنا بفضل الله من قتل عشرة صهاينة، وجرح ما يزيد عن ثلاثين آخرين، ثم انسحبا نحو وادي قانا، وعندما طلب منهما القائد نصر الدين الانسحاب منه رفَضَا ذلك، وأخبره عاصم بأنه سيقوم بعمل كمين لقوات الاحتلال التي ستأتي لتمشيط المنطقة.

---

(١) من مواليد عام ١٩٨١، نشأ في أسرة محافظة متدينة في قرية عراق بورين قضاء نابلس، ودرس الابتدائية في مدارس القرية وأنهى الثانوية في مدرسة تل، وبعد إكمال دراسته الثانوية تفرغ للعمل لإعالة أسرته . كان من رواد المساجد، يعلم الأطفال القرآن الكريم، وعرف عنه التزامه وعزيمته، كان أحد منفذين «عملية عمانوئيل الثانية» التي قادها نصر الدين عصيدة .

وعند ساعات الصباح الباكر من يوم ١٧/ ٧/ ٢٠٠٢م اشتبكا مع وحدة عسكرية، وتمكّنا من قتل قائد الوحدة، وجرح أربعة جنود آخرين، وعندما نفدت الذخيرة من سامي أصر عليه عاصم أن ينسحب من المنطقة، وغطىٰ عاصم عليه أثناء انسحابه، وبقي هو في المكان؛ ليخوض اشتباكاً آخر مع جنود الاحتلال.

وقد نشرت صحيفة عسكرية تابعة لجيش العدو يوم الجمعة الموافق ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٢م مقالاً بقلم ميخائيل شبيرا يصف فيه قائد فصيل في «وحدة نحشون» مطاردة «خلية عمنوئيل» والاشتباكَ مع البطل عاصم عصيدة، بعنوان: «**مع الموت.. وجهاً لوجه**»، أنقل منه ما يأتي:

الملازم أفيحاي، قائد فصيل في «كتيبة نحشون»، أصيب بصورة متوسطة خلال الملاحقة للمخربين الذين نفذوا العملية في الباص بالقرب من «عمنوئيل» في الأسبوع الماضي، من سريره في المستشفىٰ في تل هشومير يسرد قصته التي تبدو كأنها حلقة في إحدىٰ أفلام الرعب.

«مباشرة بعد العملية في عمنوئيل تم استنفار كل الكتيبة إلىٰ المنطقة؛ من أجل البحث عن المخربين، وأنا والوحدة المتقدمة التابعة لي بدأنا بتفتيش وادي قانا، وفي البداية لم نعثر علىٰ أحد، ولذلك اضطررنا للمكوث الليليّ، وقد كان قُصّاص الأثر يبحثون عن آثار المخربين التي أوصلتهم إلىٰ الوادي الشامي، ولذلك كانت هناك فرضيتان: أن يكون المخربون قد ركبوا من هناك في سيارة وهربوا، أو أنهم ما زالوا في المنطقة، وقد نشرنا كل أنواع القوات في المنطقة: المراقبة، الكمائن.. وهكذا.

وقد وضعت «قوة العاد جرندير» علىٰ منطقة مطلة علىٰ الوادي الذي شوهد فيه المخربون في آخر وقت، وأنا كنت مع باقي القوات في المنطقة.

«حوالي الساعة السادسة صباحاً سمعت في جهاز الاتصال أن هناك اشتباكاً، وهناك جرحىٰ من قواتنا، وقد ذهبت أنا وقائد الكتيبة إلىٰ مكان الاشتباك بسرعة، توجهت إلىٰ «بيتر» الذي أصيب إصابة خطرة، وقد كان ملطخاً بالدماء، ولكنه قال لي: إن وضعه جيد، وأما «إلعاد» الذي كان بجانبه من الجهة اليسرىٰ فقد كان فاقداً للوعي، ولم أعرف أين أصيب، فقمت برفع ردائه، ورأيت أن هناك ثقباً لطلق ناري في بطنه، وطلبت حينها أن يقوموا بعلاجه، ولكن كان عندي شعور أن لا فرصة لنجاته، فقد كان شاحباً جداً».

«الجنود الذين كانوا هناك عندما حصل ذلك قالوا: إن المخربين هربوا إلىٰ الجهة الشمالية الشرقية، وعندها أخذت معي «جلعاد»، وهو أحد القناصة، وذهبنا في ذاك الاتجاه، وقسمنا أنفسنا إلىٰ قسمين: وحدة قائد الكتيبة ووحدتي، وهكذا تتقدم وحدة، وتغطي عليها وحدة أخرىٰ.

وعندما كانت وحدتي في المقدمة أطلقت النار علىٰ الوحدة الخلفية، وسمعت صائحاً يقول: «يطلقون النار عليّ، يطلقون النار عليّ»، وعندها استدرت إلىٰ اليسار، ورأيت المخرب وهو يطلق النار من بين الشجيرات، صحت في حينها: إن هذا المخرب لي، وأطلقت النار عليه لوحدي، وقد كنت مسروراً بذلك، إذ كنت متأكداً من أنني سأقضي عليه في تلك اللحظة، وقد أصبته في كتفه الأيسر، وعندما اقتربت منه حصل عندي خلل في السلاح، وتوقفت عن إطلاق النار، وحاولت سحب الأقسام ثانية، ولكن دون جدوىٰ، وعندها صحت علىٰ «جلعاد» أن يأتي إليّ، ولكنه صاح عليّ: إن سلاحه لا يعمل أيضاً، وقد حدثت به نفس المشكلة، ولم أعرف ما الذي سيحصل.

كانت المسألة حينئذ مَنْ سيقتُل مَنْ أولاً، وقد رأيته يخرج من بين الصخور التي كان يختبئ وراءها، والتقت عيوننا، كلٌّ منّا ينظر إلىٰ الآخر، وبدأ بالجري باتجاهي وهو

يصيح: «الله أكبر»، وقد سمعت صوت أربعة طلقات، وعندها شعرت أن هناك دماً يسيل من أسفل جسمي، وبدأت أشعر بالترنح والغثيان، وكان قد وصل إليّ، والتصق بي، ووجّه مسدسه على رأسي، فانتظرت الطلقة الخامسة وأنا أظنّ أني لن أرى النور بعدها، وسلمت أمري للقدر، وأيقنت أنني ميت لا محالة.

وعندما أراد المخرب أن يضغط على الزناد عرفت أن المسدس فارغ من الرصاص، عرفت ذلك عندما بدأت أشعر بضرباته على رقبتي، وفي تلك اللحظة أيقنت أنني لم أزل حياً، وقلت لنفسي: أيّ حظ هذا حظي؟ حينها أمسكت بيده، فسقط أرضاً، وبدأنا بتبادل الضربات، فأخذ مني سلاحي، وحاول الهرب، ولكنني أمسكت برجليه وحاولت إسقاطه على الأرض، إلا أنه جرني وراءه لأكثر من متر، وعندما أدار وجهه إليّ، ووجّه السلاح عليّ أطلق عليه «جلعاد» النار، وقتله».

في اللحظة التي كان فيها أفيحاي يتحدث عن تلك اللحظة التي أيقن فيها بالموت كانت أمه بجانبه في المستشفى قد أخذت بالبكاء، فقال لها: لماذا تبكين؟ وكانت العمة إلى جانبه فتدخلت وقالت: «ماذا تقصد؟ هي أمك، وهي تبكي لفرحها أنك ما زلت على قيد الحياة».

يواصل أفيحاي أقواله: «عندما جاء إليّ الطبيب لأخذي من المكان أخبرته بالذي حصل معي، وهدأت جنودي الذين كانوا مذهولين جداً، وقد كنت بكامل وعيي طوال الوقت، حتى إنني وجهت سيارة الإسعاف إلى مكان الطائرة العمودية التي أخذتني إلى المستشفى».

«الجزء الأصعب في هذه القصة هو كيفية الحديث مع أهل «إلعاد» وإبلاغهم بمقتل ابنهم، وأنني أنا آخر من رآه وهو ينبض».

«والآن أنا أشفى شيئاً فشيئاً، ويقولون لي: إن هذا سيستغرق من شهر إلى شهر ونصف وقد يمتد إلى نصف سنة، ومن الممكن أن يطول أكثر، أنا أريد العودة إلى الجنود في الوحدة، وعلى الرغم من أنهم في عمل متواصل في وحدتهم إلا أنهم يأتون لزيارتي كل يوم.

وأنا أيضاً أود أن أخرج من المشفى وأذهب لزيارة «بيتر» الذي أصيب بجراح خطرة، والآن فقط أصبح قادراً على أن يتنفس دون الاعتماد على أجهزة، وأيضاً أريد الذهاب لزيارة أهل «إلعاد».

عندما سئل أفيحاي: هل يذكر الشعور بالخوف؟ قال: إنه لم يشعر بالخوف، وقال: «إن قائد «وحدة الناحل» قد أرشدني إلى الحفاظ على برودة الأعصاب في لحظة الاشتباك، والذي أخافني عندما عملوا لي فحص الـCT شعرت حينها بالبرد ينخر جسمي، وكان شعوراً مخيفاً».

هكذا استشهد القائد عاصم عصيدة بعد ملحمة بطولية في وادي قانا؛ ليروي بدمائه أشجار الزيتون التي أحب، وبعد أن أذاق قوات الاحتلال وجهاً لوجه ما ساء وجوههم، وشفى صدور قوم مؤمنين.

ولم يزل جثمان عاصم عصيدة محتجزاً عند سلطات الاحتلال حتى تاريخ كتابة هذه الكلمات، ومن الطريف أن تاريخ استشهاده ١٧/ ٧/ ٢٠٠٢م هو ذاته تاريخ زواج والديه، والأطرفُ أنه حين وُلد كان والده معتقلاً لدى سلطات الاحتلال، وعند معرفة خبر استشهاده كان والده أيضاً رهن الاعتقال.

وقد تأخر إعلان نبأ استشهاده عشرة أيام بعد تلك الحادثة؛ لأن القائد نصر الدين عصيدة لم يتمكن من التأكد من استشهاد عاصم إلا بعد تلك المدة.

هكذا لحق عاصم بكوكبة الشهداء من أبناء مجموعته، لا سيما خاله ياسر، وصديقه نائل ورفيقيه الأخوين عاصم ومحمد ريحان.

رثاء والد لابنه الشهيد

فيما يلي قصيدة رثاء للشهيد البطل عاصم، نظمها والده في زنزانة الاعتقال يرثي بها ابنه بعدما علم باستشهاد، وهي بعنوان «صرح على القمة»:

خرجت مبارك الخطوات يوما ... هجرت الدار عاصم والغوالي
غدوت مودعاً وجهاً وسيما ... تركت الأهل يحصون الليالي
ورحت تكابد الأهوال ردحا ... بصحبة فتية طيب الخصال
فكنتَ مطارداً حراً أبيا ... رفضتَ الذل ذل الاحتلال
أقمتَ عرينك المعطاء شوكا ... على كَنَف الوهاد وفي الجبال

* * *

قطعت العهد أن تبقى تقاتل ... جنود الكفر صناع الضلال
وأقسمتَ اليمين غداة فجر ... على نيل الشهادة في القتال
طويتَ الأرض يا ولدي مساء ... وكان السيف صحبك والنبال
فديتَ الأرض والوطن المفدّى ... أذقت جنودهم شر الوبال
وقلت لقيتها لقياً ثمينا ... وطيبُ القول يتبع بالفعال
رأيتكَ في المنام تشيد صرحا ... على قمم الجبال ولا تبالي

* * *

طرقت الباب يا ولدي ظلاما فقلت مهلاً لما بدا لي
هذا عاصم يا أم قومي وضُمّي مهجةَ القلب المثالي
قالت يا بنيّ فداك عمري فداك الروح يا ولدي ومالي
حضنتُك يا بنيّ وفي فؤادي حنان الدهر باق لا أغالي
أتتك الأختُ يا ولدي بزادٍ هتفت مرحباً أختي تعالي
لثمت جبينَها شوقاً فكانت آخر مشهد يحكي الوصال

* * *

ولما دق ناقوس المنايا وحان العوم في بحر النزال
هتفتَ مزمجراً الله أكبر لعمرك يا أخي هذا احتفالي
صَلَيتَ مراكب الأعداء نارا مغيراً بالرصاص على التوالي
فجنَّ جنونهم سحق المطايا وراحوا يجمعوا فرق الشمالي
ورحتَ تراقب الأمر مليا وترصد سيرهم عبر الظلال
سهرتَ الليل مِقْداماً عنيدا كصقر رابض في برج عالي
ولما لاح في الفجر ضياء قفزت كصَرْصَرٍ تذرو الرمال
أذقت كبيرهم كأس المنايا وأرهبت الجحافل والموالي
فصبوا نار غيظهم جحيما فطالت فارساً صعب المنال
لثمتَ سلاحَكَ المعطاء حتى رشفتَ المجد من نبع زلال
هويتَ متمتماً الله ربي لرب الكون أَولى أن توالي
مهرتَ على أديم الأرض وشماً نشيداً خالداً عذب المقال

نقشـــتَ روايــةً بـدم طهـور تخـال لروعهـا قصـص الخيـال
صعـدتَ مراتب الأبطـال حتىٰ غـدوت معانقـاً ســطح الهلال

* * *

أروني رســمك الوضـاء ليـلا لعـل الرســم ينبئهـم بحـالي
معــاذ الله أن أُبــدي هوانـا فليـس الوهن من شـيم الرجال
معــاذ الله أن أُدلي بحـرف ولـو بـتروا يميني عـن شــمالي
لَأَنـت الأم تـاج فـوق رأســي حملـت العـبء أيـام اعتقالــي
نطـرت الفـارس المغـوار دهـرا ســهرت الليل سـاعات طوال
كفـاكِ الفخـر بالمغـوار تاجــا كـما الأزهــار تكتنـف التــلال

* * *

حبســتُ الدمع يا ولدي ولكن ضروب الدهـر فـوق الاحتمال
ســألتُ الله أن يرعـاك عنّـي ويكـرمـك المكانـة ذو الجـلال
لعَمْـري يـا بنــيّ أراك تزهــو بـروض المصطفىٰ خـير الأهالي
فطب يا صـاحـب اللُّقيا مكانـا وحلّـق في الجنـان وفي المعـالي

نم قرير العين يا ولدي، والدك يرضىٰ عليك

* * *

المجاهد مازن فقها

ابتدأت علاقتي به حين كنت طالباً في «جامعة النجاح الوطنية»، ثم توطّدت هذه العلاقة فيما بعد، وشد وثاقها الأخوة والمحبة في الله.

رأيت في مازن شاباً متحمِّساً للعمل، وكأن أسرارنا كشفت لبعضنا دون أن تبوح بها ألسنتنا، فراوده شعور بأن لي صلة بالجناح العسكري، ودارت بيننا أحاديث صريحة حول ذلك، فأخبرني أنه ينوي العمل ضمن الجناح العسكريّ.

بعد كثير من الحديث اتفقنا أن نعمل سوياً، وأن نستفيد من منطقة الأغوار وشرق جنين؛ فوجود الكثير من المعسكرات فيها يجعل لها ميزة استراتيجية، إضافة إلى أهداف أخرى يمكن اصطيادها.

ثم ابتدأنا العمل، وتوجهت لمنطقة طوباس، ومكثت هناك مدة من الزمن، وأخذنا نهيئ لإحضار كميات من المواد الكيماوية من نابلس، وعملت على التنسيق مع أيمن حلاوة؛ لإتمام هذه المهمة فقام بتكليف طاهر جرارعة.

وقد وقع طاهر في خطأ أدى إلى اعتقال مازن لدى «السلطة الفلسطينية»، فقد أراد طاهر أن يموّه تلك الكميات الضخمة من المواد الكيماوية المكوّنة من «الأستون» و«ماء الأكسجين»، فوضعها في عبوات زيت زيتون كبيرة «تنك»، ولكن المادتين تتفاوتان في ثقلهما، فـ«الأستون» خفيف الوزن، أما «ماء الأكسجين» فوزنه ثقيل.

وهذا التفاوت في الثقل أدخل الشك إلى قلب سائق الشاحنة أثناء تفريغ الشحنة، فأبلغ «السلطة» عن المكان ، وأرشدهم إلى البيت، وحين جاءت «السلطة» إلى بيت مازن فقها كانا قد تمكّنا بفضل الله من إخراج نصف الكمية، ونقلها إلى بيت محمد الكرم في جلقموس، فصادرت «السلطة» ما تبقى من الكمية، وما وجدته من بعض النشرات التي كانت موجودة هناك ، واعتقلت مازن فقها مدة من الزمن، ثم أفرجت عنه، ولم يستطع مازن متابعة العمل كما كان من قبل، فقد أصبحت أنا مطارَداً، ووضع هو تحت مراقبة «أجهزة السلطة» والاحتلال.

وبعد ذلك اعتقلتني «السلطة»، وعندها توجه مازن إلى العاملين في الجناح العسكريّ بمنطقة جنين، والتقى بقيس عدوان ، ومهند الطاهر، وتدرب هناك على صناعة المتفجرات، وصار مهندساً من «مهندسي القسّام» في الجناح العسكريّ.

قام مازن بعد ذلك بالاشتراك مع عماد النشرتي[١] بالإعداد لـ«عملية صفد» التي نفذها جهاد خالد عبد القادر حمادة[٢] رداً على اغتيال صلاح شحادة، وشارك فيها من أبناء الداخل الأسيران ياسين وإبراهيم البكري، وعلى إثر هذه العملية اعتقلته قوات الاحتلال، وأصدرت حكماً بحقه وحق كل من الشيخ جمال أبو الهيجا وإسلام جرار، وجواد سباعنة، وحكمت عليه بثماني مؤبدات، ثم أكرمه الله بالإفراج عنه في صفقة وفاء الأحرار.

❊ ❊ ❊

(١) ولد بمخيم جنين عام **١٩٧٦م**، وكان يعمل في تجليس السيارات، شارك بالدفاع عن المخيم أثناء اجتياح القوات الإسرائيلية له، وشارك في العديد من العمليات الميدانية في جنين أثناء التصدي لقوات الاحتلال. استشهد بتاريخ **٢٦/ ١١/ ٢٠٠٢** بعد اشتباك مسلح مع الاحتلال.

(٢) من قرية برقين قضاء جنين، استشهد عن عمر يناهز **٢٤**عاماً بتاريخ **٤/ ٨/ ٢٠٠٢**.

الشهيد محمد عزيز حاج علي

كان يعيش في الكويت، ثم إنتقل إلى الأردن بعد حرب الخليج، وترك رسالة لأهله هناك أنه مسافر إلى فلسطين للجهاد، ثم لحقت به عائلته.

تدرب شهيدنا في الخارج على العمل العسكري، وعاش في الجبال مطارداً من الصهاينة لعدة سنوات، وكان على علاقة في عمله الجهادي مع نصر عصيدة.

لم يكتف شهيدنا بأن يُقدّم روحه رخيصة في سبيل الله تعالى، بل كان من الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، فقد باع ذهب زوجته، واشترى بثمنه قطعة سلاح يجاهد بها. كان رحمه الله يلقب بأسد الجبال، مشهوراً بضرباته السريعة الخاطفة، وعمليات إطلاق النار على شوارع المستوطنين الصهاينة.

وفي الجبال التي عشقها استشهد القائد محمد عزيز على إثر اشتباك مع قوة صهيونية خاصة في جبال «عوريف».

كريم مفارجة
و«صدقة الأنفس»

ولد كريم في بيت يوصف بالمحافظ، والملتزم في قرية بيت لقيا، قضاء رام الله، وتربى في المساجد، وكان من نشطاء «الحركة» في بلدته، فكان يشرف على النشاط الدعوي فيها، ويرعى فرقة للأناشيد الإسلامية، ثم إنه التحق بـ«جامعة النجاح»، ودرس الشريعة الإسلامية، وكان متفوقاً في دراسته، حائزاً على المراتب العليا في كليته، ومن نشطاء الكتلة الإسلامية وقياداتها.

لـم أتشرف بصحبة هذا الشهيد، لكنا اشتركنا في عمل واحد عن طريق نسيم أبو الروس رحمه الله، دون أن يجمعنا لقاء، فقد شارك كريم مفارجة في صناعة الحزام الناسف الذي أعطيته لمنفذ «عملية حيفا» ماهر حبيشة.

وعلى الرغم من أني لم أتعرف عليه بشكل مباشر، إلا أنني كنت حريصاً على معرفة أخباره، وسمات شخصيته الفذّة.

التحق بالعمل العسكري ضمن مجموعة نفذت عمليةً جرح فيها عشرون صهيونياً، ثم اعتقل عند «السلطة الفلسطينية»، واستمرّ اعتقاله حتى عام ٢٠٠٠م، وبعد أن أفرج عنه التحق بالعمل العسكري في نابلس، وأصبح من أهم مهندسي «كتائب القسام»، ومن أكثرهم إنتاجاً للمتفجرات.

وربما أمضى ساعات طويلة جداً وهو عاكف على تصنيع المتفجرات دون كلل أو ملل، لم يُخفه من العمل بها علمُه بأنها تفرز غازات كيماوية ضارة قد تسبب الغثيان والتسمم.

شارك رحمه الله في تصنيع عدد من العبوات التي استخدمت في منطقة نابلس، ومنها «مستوطنة عمنوئيل الثانية» التي قادها نصر الدين عصيدة، وكان يعمل إلى جانب القائد نسيم أبو الروس وعلي الحضيري رحمهم الله جميعاً.

كان دائماً ما يتحدث عن ضرورة التضحية والفداء، سواء بين أهله أو أمام أصدقائه، أو في حديثه للمجاهدين الذين يعملون معه.

«صدقة عن الأنفس»

من فرط تحرّقه على الجهاد كان يقول: إنه يرغب بأن يكون هناك اجتهاد من الفقهاء يضيف شيئاً جديدة في الفقه الشرعي، وهي أنه كما تجب الزكاة في الأموال والزروع، كذلك يجب أن يكون هناك صدقة تخرج عن الأنفس، وكل عائلة عندها أكثر من خمسة يجب أن تقدم واحداً من أبنائها للمقاومة؛ وتهبه لله سبحانه، وتعده من بين الشهداء حتى تحرر فلسطين، ويرتفع الذل الذي تحياه الأمة.

استشهد هذا البطل القسامي في عملية غادرة للقوات الخاصة الصهيونية؛ وذلك حينما اقتحمت شقة سكنية في شارع عصيرة في مدينة نابلس، فاغتالت كريم ومعه رفاقه يوسف السُّرَكْجيّ، ونسيم أبو الروس، وجاسر سمارو، رحمهم الله جميعاً رحمة واسعة، وجمعنا بهم في علّيين.

❊ ❊ ❊

الشهيد القائد محمد الحنبلي

ينتسب شهيدنا إلى أسرة منعمة، تحيا حياة منعمة، معروفة بتمسكها بقيمها في نابلس، أنهى دراسته الثانوية بتفوق، والتحق بـ«جامعة النجاح» عام **١٩٩٥**، فدرس الهندسة الصناعية، وكان من نشطاء «الكتلة» ومبدعيها.

لم تكن معرفتي به من خلال سهرة هنا أو هناك، أو من خلال نزهة كبقية النزهات، بل كانت من خلال ركيزة من ركائز العمل العسكريّ والجهاديّ، من معين خرّج الاستشهاديين، وصقل نفوسهم بعد أن هاموا بحب الوطن والدين، إنها «جامعة النجاح الوطنية»، ذلك الصرح العظيم الذي أتقن صناعة الوطنيين من أمثال الحنبلي وغيره من المجاهدين.

كان قيس عدوان من نشطاء الجامعة، وواحداً من أعمدتها الرئيسة، وعندما طلبت أنا وقيس من محمد الحنبلي بعض الخدمات للجناح العسكري لم يتردد، ولم يتأخر، وما كان منه سوىٰ التلبية، يذكرنا في موقفه هذا بموقف الصحابي الجليل مصعب بن عمير الذي لبّىٰ نداء ربه، فباع الدنيا بثمن بخس، واشترىٰ آخرته بأغلىٰ ما يملكه الإنسان.

صفات الشهيد

كان رحمه يُشبّه بالصحابة في خلقه، مبدعاً في أيّ عمل يقوم به، وكأنه خُلق لذلك العمل، وكيف لا يكون مبدعاً، والإخلاص أساس أي حركة يقوم بها.

فإذا ما ذكرنا روحانياته تذكرنا العُبّاد المجاهدين، كان شهيدنا ممن ينطبق عليه وصف عباد الله الصالحين: إذا جنّهم الليل فقيامهم علىٰ أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم علىٰ خدودهم تناجي ربها في زقاق رقابهم.

كلُّ من عرف شهيدنا يشهد له أنه لم يكن يحيا لنفسه، وإنما كان يعيش لغيره، يساعد الضعيف، وينصف المظلوم، كأنه كوكب، أو نجم مضيء بين طلبة الجامعة وأبناء مدينته، أو روضة ينتفع بها كل من يرتادها، يقطف من أزهار المحبة، وثمار التآخي.

لم تفلح كل مغريات الدنيا التي كان يحيا بنعيمها أن تغير هدفه الذي وضعه نصب عينيه؛ إذ إنه ابن بيت عريق في نابلس، يصنّف في طبقة اجتماعية غنية، ووالده طبيب من أحد وجهاء المدينة، ولكن كل ذلك لـم يثنِ عن تلبية نداء الحق، وأداء الواجب في الدفاع عن الوطن المسلوب والأرض المغتصبة، فكان ممن باع النفيس من أجل ذلك، وهذا ما جعله في أعين الناس شبيه الصحابي الشهيد مصعب بن عمير، فقد كانت الدنيا بين يديه، ولكنه أفلَتَ لها العنانَ لتخرج، وتطير بعيداً عنه إلىٰ غير رجعة.

عاش في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ظلم أهلها، ولا ينافسهم على عزها ، فللناس حال وله حال أخرى، أراح الناسَ من نفسه، وأتعبَها بتكليفها بالمعالي، أيقن أن المؤمن غريب في الدنيا، وأن الجنة هي وطنه الذي يحن إليه، ويعمل للوصول إليه، تسابقه الزفرات، وتلاحقه العبرات، ولقوة الشوق أشدو: فحيّ على جنات عدن؛ فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم .

بداية مشواره

دخل محمد الحنبلي ميدان العمل العسكري عن طريق مهند الطاهر، فقد كان مهند هو المساعد الأساسي في الخدمات العسكرية، نشيطاً إلى حد بعيد في تجنيد الخلايا الجهادية والاستشهاديين، كالغول، والزبيدي، وماهر حبيشة، وكأنه الشمس والشهداء الذين يجنّدهم كواكب تحيط به، ويضيء بنور جهاده ظلام حياة القهر والظلم الذي يمارسه الاحتلال بأبشع صوره.

كان محمد يعمل في استئجار البيوت، وشراء المواد الكيماوية؛ لإتمام المهام المطلوبة، ينظر إلى القدس من بعيد، ونفسه تتوق إلى الجنة، وكان قدرُه المخبوء أن يصبح أحد مهندسي «الكتائب»، وبعد استشهاد مهند الطاهر حمل اللواء من بعده، كي يصل إلى مبتغاه، وكان عازماً على أن يذيق العدو مرّ الهزيمة والخذلان، فصار له دور أساسي في الجهاد ضده، وشارك مع الأخ المجاهد فراس فيضي في الإعداد لعملية «أرئيل» التي نفذها الاستشهادي محمد البسطامي وقُتِل فيها ثلاث من جنود الصهاينة، وجُرح العديد منهم.

وفي اجتياح نابلس كان لشهيدنا دور بارز وكبير في زرع العبوات، وقد نجح مع ثلة من إخوانه في إعطاب دبابة، إضافة إلى أنه كان يقود مجموعات المقاومة في البلدة القديمة بنابلس.

استشهاده

النفس الشامخة التي كانت بين جنبي محمد الحنبلي جعلته يعشق الشموخ، وكأن هذا العشق دخل إليه من تعلقه بالمآذن الشامخة، وما تزرعه في نفوس المؤمنين من عزة وعلوّ همة، وقد كان يعيش في الأماكن العالية كما الصخر في أعالي الجبال، ومسكنُه في عمارة سكنية تضم أحد عشر طابقاً، وفي تلك العمارة حاصرته قوة غاصبة يوم **٥/ ٩/ ٢٠٠٣م**، فاشتبك معهم ؛ ليجعل منها مكان موتهم ونهاية ظلمهم.

دخل مع المحتلين في مواجهة دون أن يسلم السلاح، أو يرفع الراية البيضاء، بل كان هو المبادر، فأطلق عليهم من حمم رصاصه، فقَتَل منهم ضابطاً، وجَرَح عدداً آخر من الجنود، ولشدة حنق العدو عليه، وشعورهم بالعجز عن الوصول إليه وجهاً لوجه، قاموا بتفجير العمارة بأكملها، لأنهم لم يجدوا وسيلة تشفي غيظهم، أوتوقف ما أذاقهم من قهر غير تلك الطريقة الجبانة، فرحم الله شهيدنا البطل، وجمعنا به في جنات النعيم .

❊ ❊ ❊

الشهيد محمد ريحان

وُلد شهيدنا المجاهد يوم ١١/ ٢/ ١٩٧٦م في قرية تل، وبدأ منذ صغره بتعلّم القرآن الكريم، وأتم دراسته الابتدائية والثانوية في مدارس القرية، ثم عمل مع والده في البناء، والتحق بـ«كتائب الشهيد عز الدين القسام»، وهذا ما جعل «السلطة الفلسطينية» تعتقله عام ١٩٩٨م، ومكث في الاعتقال مدة عامين ونصف العام، ثم أُفرج عنه عام ٢٠٠٠م.

وكان له نشاط في التصدي للإسرائيليين، ومشاركة في زراعة العبوات، والاشتباكات إلى جانب إخوانه المجاهدين كشقيقه عاصم ريحان، وياسر عصيدة، ونصر الدين عصيدة.

ولم يتوقف هذا النشاط إلى أن آذن فجر عمره بالرحيل، وذلك صباح يوم الاثنين ١٢/ ١١/ ٢٠٠١م حيث داهمت قوات كبيرة من جيش الاحتلال القرية، واقتحموا منزله الذي كان يمكث فيه نصر الدين عصيدة وعاصم ريحان.

قرر محمد أن يشتبك مع قوات الجيش الإسرائيلي؛ ليؤمن غطاءً يحمي انسحاب زميليه، فخرج من باب البيت شاهراً سلاحه، وبدأ بإطلاق النار تجاههم، مما مكّن زميليه من الانسحاب بسلام، ونال محمدٌ ما كان يأمله من الشهادة، وترك من بعده زوجَهُ وابنَه الوحيد مؤمن.

❊ ❊ ❊

الشهيد القائد مهند الطاهر

ولد في كرم عاشور قرب خلة العامود التابعة لنابلس عام **١٩٧٦**م، ودرس الابتدائية بمدرسة عمرو بن العاص، وأكمل دراسته الثانوية في مدرسة قدري طوقان، ودرس الشريعة في «جامعة النجاح».

كانت بداية انتفاضة الأقصى هي بداية علاقتي به، وقد عرفني عليه أيمن حلاوة، والتقيت به عدة مرات، وكان من ثمار التعاون والتنسيق فيما بيننا عملية «ميحولا»، و«عملية حيفا».

صفات الشهيد

يقال: لكل امرئ من اسمه نصيب، وهذا القول كان ينطبق علىٰ شهيدنا، فالمهند: السيف القاطع، وقد كان رحمه الله سيفاً قاطعاً في وجه أعدائه، طاهر السيرة،

عالي الأخلاق، قائداً عسكرياً فذاً، ورجلاً شجاعاً، مسيرته حافلة بالبطولة والفداء، والعطاء والتضحية.

تربى شهيدنا في المساجد، وأخذ منها الصفاء والطهر، والروحانية العالية، وكان صواماً، قوّاماً، يحفظ معظم كتاب الله، هدفه الأسمى إرضاء الله تعالى، لا يكل ولا يمل من العمل والجهاد، والتخطيط والإعداد، والتنظيم، والتصنيع.

كان رحمه الله مثال الشاب الصبور الذي تحمل كثيراً من العذابات والصعوبات للوصول إلى رضا الله تعالى، وتحقيق ما يصبو إليه من تحرير وطنه، صاحب عزيمة قوية، شديد الفطنة، قويّ الذكاء، هادئاً في اتخاذ القرارات، لا يتعامل مع القضايا بتسرع الشباب، وإنما بحكمة الشيوخ.

هذه الصفات وغيرها جعلته يتبوأ مكان الصدارة في قيادة العمل الجهادي، فكان دوره محورياً منذ بداية انتفاضة الأقصى، وبعد استشهاد أيمن حلاوة ونسيم أبو الروس ومحمود أبو هنُّود أصبح القائد الأول لـ«كتائب القسام» في نابلس، وقد استطاع قيادة «الكتائب» في أحلك الظروف، وأشد الأوقات صعوبة، حين الاجتياحات اليومية لنابلس، والحصار الخانق، والملاحقة المستمرة.

دوره الجهادي قبل انتفاضة الأقصى

كان مهند مشاركاً في الجهاد من أيام المهندس يحيى عياش، وكانت بداية عمله في «كتائب القسام» عام **١٩٩٧**م، ثم عمل مع المجاهدين محمود أبو هنُّود، وخليل الشريف، ومعاذ بلال وعمار الزبن، وكان له دور في «عملية بني يهودا»، و«محانيه يهودا»، وقد ساعد في نقل الاستشهاديين إلى رام الله، وتوفير ألبستهم كي يصلوا من رام الله إلى القدس المحتلة، مكانِ تنفيذ عملياتهم، حيث قتلوا سبعة وعشرين صهيونياً، وجرحوا مئتين وخمسين آخرِين.

وقد تعددت أدواره الجهادية في ذلك الوقت، من المساعدة في الخدمات، وشراء السيارات باستخدام وثائق مزورة، إلى غير ذلك من الأعمال.

ولكن «أجهزة السلطة» لم يكن يرضيها أمثال أولئك الشباب، لأنهم يسببون لها حرجاً مع العدو الصهيوني بما يقومون به من أعمال لا تتركه يهنأ باحتلاله، ولذلك قامت باعتقاله، في شهر كانون ثاني من عام **١٩٩٨**م، بعد اكتشاف مخزن للمتفجرات بنابلس، وحقق معه في «سجن أريحا»، ثم نقل إلى «سجن الجنيد» بنابلس، وذاق في الاعتقال ألواناً من العذاب والإهانات، كحلق شعره كاملاً، وحلق حاجبيه، وضربه والاعتداء عليه، وبقي محتجزاً في سجون «السلطة» إلى أن بدأت انتفاضة الأقصى عام **٢٠٠٠**م.

وبعد أن اندلعت انتفاضة الأقصى أفرجت عنه «السلطة»، وجدد نشاطه العسكريّ، والتحق بالمطاردين من «القسام» مرة أخرى بعد حادث استشهاد القائد إبراهيم بني عودة، فكان له الدور البارز في قيادة العمل العسكري، وأصبح من أبرز مهندسي «كتائب القسام» في تصنيع المتفجرات والعبوات والأحزمة الناسفة، ولم تبق خبراته هذه حكراً عليه، ولكنه درَّب العديد من أبناء «الكتائب»، كعلي علان، ومحمد الحنبلي، وغيرهم الكثير.

ومن الأدوار الجهادية التي قام بها:

ـ تصنيع العشرات من العبوات الناسفة بالاشتراك مع طاهر جرارعة، وكريم مفارجة، ونصر الدين عصيدة، ونسيم أبو الروس، وجاسر سمارو، حيث زرعت هذه العبوات حول مدينة نابلس وقراها، كما أنه قاد العديد من المجموعات القسامية.

ـ شارك رحمه الله في إعداد الحزام الناسف لـ«عملية البارك» بالاشتراك مع علي

الحضيري، وكان ذلك بالتنسيق مع الجناح العسكري في طولكرم لنقل الحزام، وقد قتل في هذه العملية ثلاثون صهيونياً، وجرح العشرات منهم.

ـ أعدّ لـ«عملية اكفار سابا» مع نهاد أبو كشك وعبد الرحمن شديد، وقد نفّذ هذه العملية عماد الزبيدي[1] من نابلس، وقتل فيها صهيوني، وجرح العشرات.

وقد أكرم الله سبحانه كلاً من نهاد أبو كشك، وعبد الرحمن شديد بالإفراج عنهما في صفقة وفاء الأحرار.

ـ في «عملية جيلو» كان له دور في تصنيع الحزام بالاشتراك مع علي الحضيري، كما أنه جند الاستشهاديّ محمد هزاع الغول عن طريق محمد الحنبلي، وكان المخطِّطَ الأولَ لهذه العملية هو علي علان، وقُتل فيها عشرون صهيونياً، وجُرح العشرات منهم، وقد شارك بهذه العملية كل من خليل مسلم، ورمضان مشاهرة، وفهمي مشاهرة.

ـ ومن الأعمال التي شارك فيها كذلك «عملية عمنوئيل الأولى»، وكان دوره يتمثل في تصنيع العبوتين المستخدمتين فيها بالاشتراك مع طاهر جرارعة، وكان المخَطِّطَ الأولَ لها هو نصر الدين عصيدة، ومنفِّذُها عاصم ريحان رحمهما الله، وقد قُتل فيها ثلاثة عشر صهيونياً، وجُرح العشرات منهم.

ـ ومما شارك فيه أيضاً: الاشتباك مع جيش الاحتلال في نابلس أثناء اجتياحها بعد «عملية السور الواقي»، وذلك حينما داهمت قوات من جيش الاحتلال المخيطة التي كان يستخدمها مهند الطاهر وعلي علان وعلي الحضيري مختبراً لتصنيع الأحزمة والمتفجرات، وقد تحدّثت سابقاً بالتفصيل عن هذه الحادثة.

---

(١) ولد عام ١٩٨٣م لعائلة ملتزمة في مدينة نابلس، ارتاد مدرسة الكندي، ثم التحق بالمدرسة الصناعية، استشهد بتاريخ ٢٢/ ٤/ ٢٠٠١.

استشهاد القائد

كان رحمه الله يعيش قبيل استشهاده حالة روحانية عالية، فكان كثير الصيام والقيام، يطيل الدعاء بأن يرزقه الله الشهادة، فاستجاب الله سبحانه دعاءه، وحقق له مراده، ففي **٣٠/ ٦/ ٢٠٠٢م** حوصر القائد مهند في أحد البيوت شرق مدينة نابلس مع مساعده عماد دروزة[١]، وطالبهما جيش الاحتلال حينها بتسليم أنفسهم، لكنهم رفضوا الاستسلام والخضوع، واشتبكوا مع قوات الاحتلال، فقصف جيش الاحتلال الجبان البيت؛ لأنه لم يستطع الوصول إليهما، واستشهدا رحمهما الله، وصعدت الروح الطاهرة إلى جنة عرضها السماء والأرض، فرحمه الله، ورحم شهداءنا، وجمعنا بهم في عليين.

❊ ❊ ❊

(١) ولد بمدينة نابلس، عام **١٩٦٥**، لعائلة مجاهدة فيها الأسير والشهيد، وهو شقيق القائد صلاح الدين دروزة. عُرف بتدينه وبره لوالديه، وارتياده للمساجد، وحلقات العلم، أنهى دراسته الثانوية عام **١٩٨٤م**، والتحق بالعمل التجاري الخاص بعائلته، وفي عام **١٩٨٩م** تزوج ورُزق بثلاثة ذكور وابنتين. التحق بصفوف حركة «حماس» في سن مبكرة، وكان أحد نشطائها، اعتقل عام **١٩٩٣م** في سجون الاحتلال الإسرائيلي وأمضى ستة شهور، ثم أُفرج عنه وأُعيد اعتقاله مرة أخرى، وأمضى شهرين في الاعتقال. شارك في انتفاضة الأقصى عام **٢٠٠٠م**. التحق بـ«كتائب القسام» في آواخر عام **٢٠٠١**، وتعرض لعدة محاولات اعتقال.

الشهيد نائل رمضان

ولد نائل رمضان في الثامن عشر من شهر آذار من عام ١٩٨٠م، وتلقى تعليمه الأساسيّ في مدارس قرية تل، وربطته علاقات من الصداقة أيام الدراسة بعدد من أبناء جيله، ومنهم عاصم عصيدة، وسامي زيدان، وياسر عصيدة، وعمر عصيدة، ثم شاءت الأقدار أن يكونوا ممن توجهت إليهم أنظار القائد نصر الدين عصيدة؛ لاحتوائهم ضمن العمل الجهادي في «كتائب عز الدين القسام»، فاستجابوا لطلبه، وبدؤوا تدريبهم العسكريّ، وجهادهم ضدّ عدوهم الغاشم.

وفي ساعات فجر يوم الجمعة الواقع في ٤/ ١/ ٢٠٠٢م وقع اشتباك في الجهة الشمالية من قرية تل بالقرب من منزل ياسر عصيدة، وأُعلن منع التجول في القرية، ثم تبين فيما بعد أن القائد نصر الدين عصيدة، ونائل رمضان، وأيوب عصيدة، قد تعرضوا لإطلاق النار عليهم من كمين نصبته لهم قوات الاحتلال داخل القرية بين أشجار التين، فاشتبك الأبطال مع قوات الاحتلال، ونتج عن هذا الاشتباك استشهاد نائل رمضان، ولحق بركب إخوانه ياسر عصيدة وعاصم ومحمد ريحان، بينما قبض على أيوب عصيدة، وتمكن نصر الدين عصيدة من الانسحاب بأعجوبة؛ ليكمل مشواره الجهادي، ويتابع خطوات سارها مع إخوانه من الشهداء.

❊ ❊ ❊

أسد الجبال

الشهيد القائد نصر الدين عصيدة

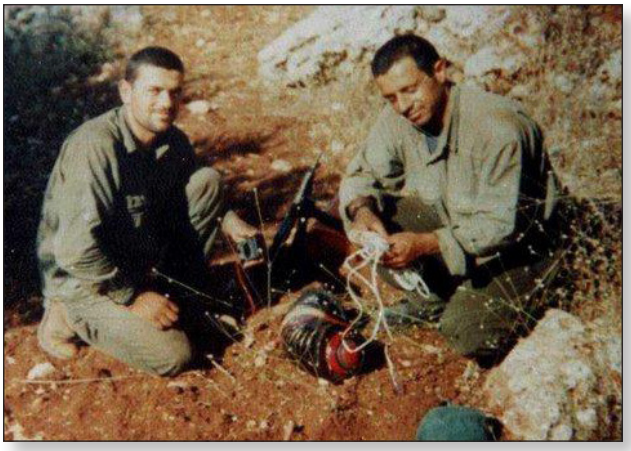

أطلق عليه الاحتلال لقب «ذئب الجبال»، ولكنه كان أسداً هصوراً في وجه أعدائه، أبيّاً إباء الأسود.

لم أحظَ بشرف صحبة هذا المجاهد الكبير؛ لأنه كان يعمل في دائرة أخرىٰ، لكنني حظيت بصحبة عدد من المجاهدين الذين عملوا معه، وكنت أحرص علىٰ سماع أخباره وأعماله البطولية، والتعرف علىٰ سمات شخصيته الفذة.

فقد كان قائداً حقيقياً بكل ما تحمله الكلمة من معنىٰ، كان رحمه رجلاً، صلباً شجاعاً، وقناصاً خبيراً محترفاً، يمتلك من الرجولة والشهامة، وشدة البأس وقوة التحمل ما يعجز عنه الرجال الأشداء.

كثيراً ما كان يؤثر الحياة الشاقة علىٰ رغد العيش، وقد عاش ظروفاً قاسية في الجبال، واحتمل الكثير من صعوبة العيش وخطورة المكان، وقسوةِ البرد، وحرارةِ الصيف، عاش طويلاً علىٰ الخبز الجافّ وزيت الزيتون والزعتر، والزيتون، والتمر، وبعض المعلبات.

بلغ من شجاعته أنه تسلّل إلىٰ «مستوطنة عمنوئيل»، ومكث فيها ستة أيام وهو يرصد المواقع في مداخلها ومخارجها، ويبحث عن نقاط الضعف الأمنيّ فيها.

وإلىٰ شجاعته وقوته أضاف خلقاً آخر هو الإيثار، فكان يقدّم إخوانه المطاردين، ويعطيهم من أغراضه، أو من السلاح الخاص به.

والإخلاص لله تعالىٰ كان يزين تلك الخصال والصفات التي جمّله الله بها، فلم يكن يقبل الأجر علىٰ ما يفعل، بل يحتسب الأجر من الله علىٰ عمله وجهاده، وإذا ما أتىٰ مبلغ من «التنظيم»، فإنه يرفض إنفاقه علىٰ نفسه، وكان يشتري به رصاصاً وعتاداً للجهاد.

وكل ذلك لم يكن ليُدخِلَ الغرورَ إلىٰ نفسه، بل كان دائماً يخاف من ضعف يكون سبباً في فشله، فكان دائماً يستعين بالله تعالىٰ، ويستخيره في أعماله.

كان مقتنعاً بأن الأجر على قدر المشقة، يكثر من ترداد ذلك عندما يقوم بالأعمال القاسية التي كان يفضل أن يقوم بها بنفسه ليأخذ أجرها، ومن ذلك نقل العبوات الكبيرة في الجبال.

غير أن هذه الشهامة والقوة والرحمة بإخوانه لم تجعل منه إنساناً ليّناً، بل كان قيادياً حاسماً لا يعرف التردّدُ إليه سبيلاً، ولكن بعد أن يأخذ الأمر حاجته من الدراسة والتخطيط، ففي «عملية عمنوئيل» البطولية مكث ستة أشهر يدرس ويرصد، ويعدّ لها ما تحتاجه من أسباب النجاح، وبعد التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه، اتخذ القرار الحاسم.

حاولت قوات الاحتلال اغتياله مرات عدّة، ولكنه نجا بفضل الله، حتى بلغت محاولات اغتياله الفاشلة ثلاثين، اختلفت أماكنها بين الجبال أو قريته تل، وحاصرته قوات الاحتلال مرات كثيرة، وكان ينجو من بين أيديهم بأعجوبة، مرة يختبئ تحت الأخشاب اليابسة أو الأغصان، ومرة ينسحب من المكان بخفة ومرونة كأنه جنيّ يوجد في المكان ولا يرى.

رؤيته للعمل الجهادي

كانت نظريته في العمل «الاستراتيجية» تقوم على تفعيل الريف الفلسطيني، واستهداف المستوطنين، وكان يقول دائماً: يجب علينا أن نركز عملنا على المستوطنين، وكان يحث على تنظيم خلية في كل قرية تقوم بعملية واحدة في العام ضد المستوطنين.

وكان يقول: يجب أن يكون لنا خلية في كل قرية مجاورة لمستوطنة، تعمل على تنفيذ عمل ضد المستوطنة وتحمل المستوطنين على عدم الشعور بالراحة والأمان، وهذا ما سيدفعهم إلى الرحيل بإذن الله تعالى.

وبناءً على ذلك عمل على تنظيم عدد كبير من المجاهدين الأبطال، منهم من استشهد، ومنهم من اعتقل، ومن هؤلاء الأبطال بلال الأقرع[1] من قبلان، ومجموعته المؤلفة من أيمن وعنان قادوس، وقد استشهدوا جميعاً باشتباك في وادي شمال قرية صرة بعد «عملية عمانوئيل الثانية».

ومن الأبطال الذي جندهم أيضاً سائد الأقرع من قرية بديا، وقد استشهد قرب «سجن جنيد»، وكذلك محمد عزيز من جماعين، وقد شارك في «عملية عمانوئيل الأولى»، وكان ذراعه الأيمن، وعاصم ريحان منفذ «عملية عمانوئيل الأولى»، وعاصم عصيدة منفذ «عملية عمانوئيل الثانية»، وسامي زيدان الذي شارك في «عملية عمانوئيل الثانية».

---

(١) ولد في الإمارات لعائلة متدينة عام **١٩٧٩م**، وعاد إلى فلسطين بعد حرب الخليج والتحق بالمساجد وعرف عنه اعتكافه وصومه، أنهى دراسته الثانوية عام **١٩٩٨م**، ودرس الهندسة في «جامعة بولتيكنك فلسطين»، ثم اعتقل عام **٢٠٠٠م** بسبب نشاطه في «الكتلة الإسلامية»، وأمضى سنة في السجن أمضاها في حفظ القرآن والمطالعة، والتحق بعد الإفراج عنه بـ«جامعة النجاح» وأصبح أمير اللجنة الدعوية فيها، التحق بـ«كتائب القسام» بعد محاولة قوات الاحتلال إعادة اعتقاله، واستشهد بتاريخ **٢٤/ ٧/ ٢٠٠٢** بالقرب من قرية تل .

وكان كذلك على اتصال مع إياد الخطيب من أبناء ديرستيا ومجموعته؛ للتجهيز لعمل ما، وقد استشهد إياد مع مجموعته في الطريق إلى قرية تل باشتباك مع قوات الاحتلال بعد أن قتلوا ضابطاً صهيونياً.

ومن المجاهدين الذين كان لهم دور مهم إلى جانب نصر الدين عصيدة البطلُ عمر عصيدة قناص «كتائب القسام»، وقد كانت له مشاركات في الجهاد، وتعرض للاعتقال، ثم منّ الله عليه بالإفراج في صفقة وفاء الأحرار.

ومن أولئك الأبطال الذين عملوا إلى جانبه، وكان لهم دور مهم ومحوري: حامد المصدّر من أبناء عسكر، وكذلك كان أمين المنزلاوي[1] رحمه الله يساعده ويقوم بالكثير من الخدمات والأعمال الجهادية.

لقد كان نصر الدين شعلة من العمل والعطاء، وهو يعمل في «كتائب القسام» منذ عام **١٩٩٧**م، وكان قائداً لمجموعة بطولية شنّت عدداً من العمليات، وقامت بتفجير العديد من العبوات الناسفة، ومن العمليات التي نفذّتها مجموعته «عملية يتسهار»، حيث قتلت اثنين من المستوطنين من حراس مستوطنة «يتسهار قرب قرية تل»، واستولت على أسلحتهم الرشاشة.

ثم شاء الله تعالى أن يدخل في ابتلاء الاعتقال على يد «أجهزة أمن السلطة»،

---

(١) ولد بمخيم عسكر عام **١٩٧٣**م لأسرة متدينة، وله شقيقان وأخت واحدة، التحق بالمساجد منذ الانتفاضة الأولى. اعتقل عدة مرات، وذلك في الأعوام **١٩٩٣**، **١٩٩٧**، **١٩٩٨** و**٢٠٠٠**، وعُرف عنه صموده أمام جميع أشكال التعذيب في أقبية التحقيق. التحق بـ«كتائب القسام» في انتفاضة الأقصى، وكان أحد النشطاء الميدانيين، وخاض العديد من الاشتباكات. اعتقل في سجون «السلطة» عام **٢٠٠١**، وهرب من السجن عندما قصفت طائرات «F١٦» الإسرائيلية مبنى المقاطعة في نابلس. شارك في معركة البلدة القديمة بنابلس. استشهد بعد إصابته بقذيفة «إنيرجا» أثناء تحصنه في إحدى منازل قرية زواتا، قضاء نابلس.

ولكن ذلك لم يثنه عن الاستمرار في الجهاد؛ فقد خطط لـ«عملية عمانوئيل الأولى» من داخل «سجن الجنيد»، وكان يستغل خروجه المحدد بثمان وأربعين ساعة في الذهاب إلى «مستوطنة عمانوئيل»؛ ليرصد المكان، ويخطط على أرض الواقع، وهذا دليل من أدلة حبه وعشقه للجهاد والمقاومة.

ثم أُفرج عنه عام ٢٠٠٠م، فعاد إلى العمل العسكريّ، وكان له دور بارز في منطقة نابلس، وشارك في عدد كبير من الهجمات ضد الاحتلال، ومن أبرزها «عملية عمانويل الأولى» التي نفذها عاصم ريحان في شهر كانون الأول من سنة ٢٠٠١م وقتل فيها أحد عشر صهيونياً، إضافة إلى جرح العشرات، وكذلك «عملية عمانوئيل الثانية» التي وقعت يوم ١٦/ ٧/ ٢٠٠٢م ونفذها عاصم عصيدة وسامي زيدان، وقتل فيها أيضاً أحد عشر صهيونياً، كان من بينهم قائد وحدة عسكرية، كما جُرح العشرات منهم، وشارك كذلك في «عملية ألون موريه» التي نفذها الاستشهادي أحمد عبد الجواد[1] في نابلس، وقُتل فيها أربعة مستوطنين.

(١) ولد عام ١٩٨٣م، وهو من سكان مخيم عسكر، وأصله من مدينة اللدّ، نشأ في كنف عائلة مجاهدة وعرف بنشاطه، أنهى الثانوية العامة، والتحق بكلية «حجاوي». استشهد بتاريخ ٢٨/ ٣/ ٢٠٠٢.

التقىٰ بالشهيد محمود أبو هنُّود، وعاش معه في الجبال، كما التقىٰ بالشهيد يوسف السُّرَكْجيّ رحمه الله.

استشهد القائد نصر الدين يوم الأربعاء ١٨/ ٣/ ٢٠٠٣م باشتباك مع قوات الاحتلال قرب قرية الفندق قضاء قلقيلية، فرحمه الله رحمة واسعة.

❊ ❊ ❊

الشهيد هاشم النجار
و«عملية ميحولا»

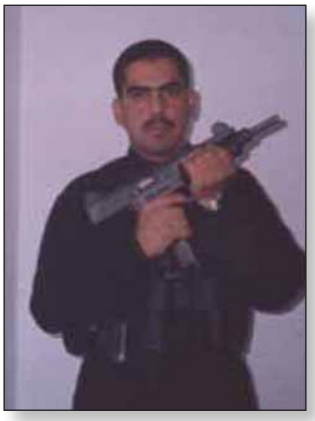

ولد هاشم النجار عام **١٩٧٥** في مدينة الخليل، وأصله يعود إلى قرية الفالوجة من الداخل المحتل، نشأ بين ستة من الإخوة والأخوات، عرف بنشاطه وتديُّنه وحيويته، درس الأساسية في مدارس «وكالة الغوث» ودرس الثانوية في مدرسة طارق بن زياد.

أكرمني الله سبحانه وتعالى بمعرفة هذا البطل، حيث كان لقائي الأول به في «سجن مجدو»، وتشاركنا الحياة في غرفة واحدة، وقد لمست فيه نقاء النفس، وحسن الخلق، وحب الجهاد في سبيل الله.

بعد الإفراج عني عام **١٩٩٩** م عدت إلى الدراسة في «جامعة النجاح» بنابلس، وفوجئت بهاشم النجار طالباً في قسم الصحافة بكلية الآداب، وكان أحد نشطاء «الكتلة الإسلامية»، وهناك توطدت علاقتي به، وازدادت أواصر المحبة التي جمعتنا.

وقد شرفني بزيارتي في منزلي في قريتي برقة قضاء نابلس، وكنت أرىٰ فيه روحاً ترنو إلىٰ السماء، ونفساً تعشق الشهادة، وتتوق إلىٰ الجنة، وما أكثر ما كان يحدثني عن الشهادة، وأنه منذ طفولته يشعر بأن الله سيرزقه الشهادة في سبيله.

كان لي شرف تنظيمه وانضمامه إلىٰ «القسام»، ودربته علىٰ استخدام السلاح، وكان له فضل مساعدتي في بعض الأعمال الجهادية.

وقد اعتقل عدة مرات في سجون الاحتلال، وأمضىٰ فيها عدة أعوام، واعتقل أيضا لدىٰ «السلطة الفلسطينية».

طلب مني أيمن حلاوة تجنيد مجاهد لتنفيذ عملية في قلب مدينة بيسان، فأشرفت علىٰ تجهيز هاشم النجار، وإعداده وتصويره وهو يحمل السلاح، وأوصلته إلىٰ أيمن حلاوة لإخراجه إلىٰ موقع الهجوم، ولكن الخطة تغيرت عما كان مخططاً له، فقد فجر هاشم الحقيبة التي كان يحملها بين حشد من الجنود، فاعترف العدو بداية بمقتل جنديين وجرح ثمانية عشر، ثم اعترف بإصابة ثمانية من الجنود ثلاثة منهم حالتهم خطرة، وكان ذلك يوم ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠٠، وهي أول عملية استشهادية في انتفاضة الأقصى.

* * *

الشهيد ياسر عصيدة

ولد البطل على ثرى قلعة الشهداء قرية تل، وترعرع فيها، ينمو مع أشجار التين والزيتون.

وتربى في أسرة ريفية محافظة على تعاليم الدين وأخلاق الشرع، فوالده رحمه الله من قراء القرآن الكريم، ومن المحافظين على صلاته في المسجد.

وشب يافعاً يتدافعه الصراع ما بين ضرورة الذهاب إلى المدرسة لأنها الطريق إلى المستقبل، وبين عشق الأرض وينابيعها وجبالها.

لم يجد ياسر في نفسه هوى للمدرسة والدراسة، فترك المدرسة مبكراً، والتحق بوالده يعمل في الأرض، فعشقها وعشق معها الصيد، ولم يكن يدري أنه سيتجه يوماً ما إلى صيد الغزاة الحاقدين، ويترك صيد طيور البر وحيواناته.

تعرف ياسر إلى عدد من الأصدقاء كان منهم القائد نصر الدين عصيدة الذي كان له الفضل الأكبر في تنظيم عدد كبير من أبناء القرية في «كتائب عز الدين القسام»، وكان ياسر أحد هؤلاء الأبطال الذين اختارهم نصر الدين بعناية فائقة بما أعطاه الله تعالى من خبرة في معرفة معادن الرجال، واختيار القادرين منهم على سلوك هذا الطريق الذي تحيط به الأهوال، والاستعداد لتقديم التضحيات.. طريق الجهاد والاستشهاد.

كان ياسر يلقب بـ«عاشق الشهادة»، وبعد توقيع «اتفاقية أوسلو» ألقت «السلطة الفلسطينية» القبض عليه مع من أبناء «الحركة الاسلامية»، فدخل «سجن الجنيد» في نابلس، وقضى فيه ثلاثين شهراً، وعاش فيه مع إخوانه من أبناء «الحركة الإسلامية» يتعلم منهم، وينهل من معينهم، فجمع مع جمال خلقه وأدبه صفاء النفس مما أضاف جمالاً إلى جماله، ومما أكسبه احتراماً بين رفاقه، وألفة ومحبة من كل مَنْ عرفه،

ولكن حب الناس له، وانسجامه في العيش معهم، لم يكن ليجعله متعلقاً بالدنيا وما فيها، فقد كان يخفي في قلبه ميلاً جامحاً للجهاد والاستشهاد.

بعد خروجه من «سجن الجنيد» التابع لـ«السلطة الفلسطينية» ابتدأ بالمشاركة في أعمال الجهاد، فشارك في التحضير لـ«عملية عمانوئيل الأولى»، وشارك كذلك في العديد من عمليات إطلاق النار على الصهاينة.

ولشدة حبه للشهادة طلب من قيادة الجناح العسكري أن يُقدَّم على غيره من الاستشهاديين؛ واستجابت القيادة لطلبه، ولكنه لم يستطع الوصول إلى هدف العملية بسبب التشديد الأمني وقتئذ، وعند عودته استهدفته مروحيات الصهاينة بالصواريخ على طريق طولكرم ـ نابلس بالقرب من قرية عنبتا، وارتقى على إثر ذلك إلى ربه شهيداً.

ومما ينبغي أن لا يفوتنا ذِكْره في قصة استشهاده أنه عندما اتصلت به قيادة الجناح العسكري، وطلبوا منه الرجوع وعدم تنفيذ العملية، انفجر بالبكاء حزناً؛ لأنه لم تتهيأ له الفرصة التي كان يحلم بها طويلاً، وهي كرامة الشهادة، ولكن الله سبحانه حقق له تلك الأمنية التي سعى إليها؛ وأكرمه بمنزلة الشهادة لصدقه في طلبها، فقد سعى إليها عن طريق عملية استشهادية، وأكرمه الله بها عن طريق صواريخ الطائرات الإسرائيلية، وماذا يهم الشهيد بعد أن ارتقى أكان ارتقاؤه بتفجير، أم بصاروخ، أم برصاصة من بندقية؟

❊ ❊ ❊

نسيم أبو الروس وجاسر سمارو

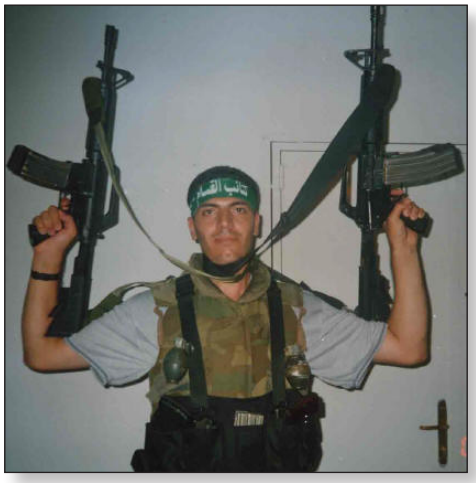

نسيم أبوالروس

جاسر سمارو

ولد نسيم عام **١٩٧٤** م بمدينة نابلس، وانضم إلى «كتائب القسام» عام **١٩٩٥** م، واعتقل لدى «السلطة» إثر انكشاف معمل المتفجرات بمدينة نابلس، وأفرج عنه عام **٢٠٠٠** م بعد اندلاع الانتفاضة المباركة.

أما جاسر فقد انضم إلى كتائب القسام عام **١٩٩٤**، واعتقل لدى الاحتلال عام **١٩٩٥**، وأمضى خمسة عشر شهراً في السجن بسبب علاقته بالقائد عثمان سعيد بلال، وأفرج عنه في **٣١/ ١٢/ ١٩٩٦** ليعاود نشاطه مع معاذ شقيق عثمان بلال، وكان من ضمن «خلايا شهداء من أجل الأسرى».

واعتقل بعدها لدى «السلطة» عام **١٩٩٧** مع رفيق دربه نسيم، ثم أفرج عنه عام **٢٠٠٠** ليلتحق مرة أخرى بانتفاضة الأقصى.

وكان معاذ بلال قد أرسل نسيم وجاسر إلى الشهيد محيي الدين الشريف ليعلمهم صناعة المتفجرات، فأرسل له محيي الدين أنك أحضرت لي شباب هم أصلاً متعلمون ومتقنون لهذا العمل (فقد كانوا تعملوا وتدربوا لوحدهم من خلال بعض الكتب).

ابتدأت علاقتي بجاسر سمارو عن طريق محمود أبو هنُّود وأيمن حلاوة، وكنت قد طرحت عليهم فكرة نقل عدد من المطاردين إلى جنين؛ لتخفيف الأعباء عن نابلس.

كان هؤلاء الأبطال من مهندسي «القسام» المبدعين، فارتأينا أن تستفيد مدينة جنين من خبرتهم، وافتتحنا عملاً مشتركاً مع الإخوة في جنين، وقد جاء ذلك في لائحة الاتهام، وذكرت اللائحة أن التنسيق كان مع الشيخ جمال أبو الهيجا، وقد كنت فعلاً فتحت خط اتصال بين الشيخ جمال أبو الهيجا وأيمن حلاوة، وكانت المراسلة عن طريق بلال الرزة، الذي اعتقل على إثر هذه القضية.

وبتوفيق الله تعالى اكتمل التنسيق مع الإخوة في جنين، وخرج الأَخَوان جاسر ونسيم إليها، وكانت استفادة الإخوة في جنين من خبرتهما كبيرة بفضل الله تعالى.

وجاءت ساعة الحسم، وحانت لحظة تذيق العدو ويلات لم تخطر له على بال، فقام نسيم بالتنسيق مع الجناح العسكري في جنين بتجنيد الاستشهادي عز الدين المصري ؛ بهدف تنفيذ «عملية سبارو».

أُرسل عز الدين المصري إلى مدينة رام الله، واستقبله بلال البرغوثي ومحمد دغلس.

هذه العملية كانت عملاً مشتركاً بين الجناح العسكري في جنين ونابلس ومدينة رام الله، وبعد تنفيذها عاد نسيم وجاسر إلى منطقة نابلس مجدداً.

لم تكن العلاقة بين هذين الأَخَوَين مجرّد أخوّة، فقد كانت تربطهما علاقه لا يعلم مداها وعمقها إلى الله تعالى، كان جاسر يستمد من أخيه نسيم صفاء النسيم ولطفه، وكان نسيم يستمد من أخيه جاسر الجسارة والجرأة، لتكتمل بهما معادلة نتج عنها غضب تَفَجَّر على العدو، وحناناً وعطفاً وخوفاً على المؤمنين.

بعد انتقال الأخوين إلى نابلس طرحت على محمود أبو هنُّود وأيمن حلاوة اصطحاب جاسر إلى منطقة شرق جنين لنكوّن فيها نقطة عمل، فقد كان خبيراً بتصنيع المتفجرات؛ وحصلتُ على الموافقة على هذه الفكرة، وكان اللقاء الأول مع جاسر في منطقة جبال عصيرة، ثم توجهنا إلى منطقة طوباس، ومن هناك إلى قرية جلقموس.

كان لوجود جاسر في جنين فائدة كبيرة، فقد قام بتدريب عدد من المجاهدين على صناعة المتفجرات، منهم محمد جرار وقيس عدوان، فأصبحا فيما بعد مهندسَين في «كتائب القسام»، وقد زوّد إخواننا في جنين بكمية من مادة «النيتروجليسرين» التي استخدمها قيس عدوان فيما بعد في الإعداد لعملية تفجير المطعم في حيفا التي نفذها الاستشهادي شادي الطوباسي، أثناء اجتياح مخيم جنين، وقتل فيها سبعة عشر

صهيونياً، كان من بينهم ضابط شرطة برتبة لواء، كان هو المسؤول عن تطوير دبابة «الميركافا».

قدّم الأَخَوان نسيم وجاسر بعد انضمامهما إلى «كتائب القسّام» خدمات عديدة للمجموعات التي قادها عبد الناصر عيسى، وقد عمل المهندس محيي الدين الشريف على تدريبهما، فأصبحا فيما بعد من «مهندسي القسام»، ثم التحقا بعد ذلك بمجموعة معاذ بلال وعمار الزبن وخليل الشريف ومحمود أبو هنُّود، وقاما بتصنيع العبوات التي نفذ بها الاستشهاديون عمليتي «محانيه يهودا»، و«بني يهودا» عام **١٩٩٧م**، وقتل فيها ستة وثلاثون صهيونياً، وجرح مئتان وخمسون آخرون.

اعتُقل الأَخَوان لدى «السلطة»، وطالت مدة اعتقالهما حتى انتفاضة الأقصى، وحكم نسيم اثنا عشر عاماً بتهمة عضويته في الجناح العسكري، وتعرض في ذلك السجن للتحقيق العنيف، وأضرب عن الطعام عدة مرات.

ولكن سجنهما واعتقالهما لم يفت في عضدهما، ولم يثنِ من عزيمتهما التي شابهت الصخر في الصلابة والعزيمة، فما إن أفرج عنهما حتى جددا بيعتهما مع الله سبحانه التي باعا فيها نفسيهما، ولم يرتضيا أن يدخلا مع الناس في عيشتهم الهادئة؛ لأنهما وجدا هدوء نفسيهما وراحة بالهما في الجهاد في سبيل الله تعالى، فعادا إلى العمل مع الجناح العسكريّ، وصنعا الكثير من العبوات التي استخدمها غيرهما من المجاهدين في تنفيذ العديد من العمليات ضد الاحتلال.

بل إن بركة عملهما بقيت بعد الاستشهاد، فالعبوتان اللتان صنعهما نسيم وكريم مفارجة استخدمتا بعد استشهادهما بشهور لتنفيذ «عملية عمانوئيل الثانية»، وكان نصر الدين عصيدة قد أخفاها في الجبال، ثم استخدمها في تلك العملية.

ومن الأعمال التي قام بها نسيم: التعاون مع مجموعات من «شهداء الأقصى» بنابلس، وقد عمل على تدريب مجموعة نايف أبو شرخ على التصنيع، وأمدّ بعضهم بالعبوات والأحزمة الناسفة.

كان نسيم رحمه الله يتمتع بخلق آسِر، وكان له من اسمه نصيب وافر، فهو في لطف النسيم، لبقٌ في تعامله، يفيض الأدب منه فيضاناً، والخلق العالي الذي يتجمّل به لا يترك لك مجالاً أن لا تحبّه أو تُعجب به، أما التفاني في العمل فحدّث عن ذلك ولا حرج، كان صافي النفس، زاهداً فيما بين يديه من الدنيا، يغلبه روح المبادرة، ويغمره النشاط والحيوية، وهو ثمرة من ثمرات مسجد السلام، وغرسة من غراس الشيخ يوسف السركجي.

ومما يحلو ذكره في هذه الصفحات التي تزدان بالسيرة العطرة للشهداء، أن نسيماً كان يسكن مع بعض المجاهدين المطاردين في شقة من عمارة مكونة من ستة طوابق، وكان البرد القارس يأخذ منهم كل مأخذ، ويصل إلى كل ذرة في جسدهم، غير أن شدة حرصه على المال العام جعله يمتنع من شراء مدفأة تقيهم من البرد، وعندما علم الشيخ يوسف السُّرَكْجيّ بذلك قدم لهم مبلغاً من المال، وقال: صحيح أنه يجب المحافظة على المال العام، ولكن من الواجب عليكم أيضاً المحافظة على صحتكم وأنفسكم، ويجب عليكم أن تقوموا بتأثيث البيت بما يلزم من المال العام.

أما جاسر فكان يجمع إلى جانب هدوء الطبع الجَلَد والصلابة، وكان حريصاً على إنجاز الأمر الموكل إليه على أكمل وجه، أما الجهاد فكانت علاقته به علاقة حب، والبندقية هي معشوقته التي يهيم بها.

وكان له من اسمه نصيب، فكان جاسراً على العدو، ولكنه رؤوف بإخوانه

وأحبابه، نبراسه قول الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومن بركة الشهيد جاسر، أن الحزام الناسف ـ الذي أرسله قيس عدوان؛ ليستخدم في «عملية حيفا» الشهيرة ـ كان من صنعه، ولم يزد عليه قيس سوى تغيير الصواعق، وكان تنفيذ هذه العملية بعد استشهاد جاسر رحمه الله، فهي في صحيفة أعماله.

قصة شهيدينا هذين لن يشعر بها تبثه من معان على حقيقتها إلا من عايشها، لقد عاشا سوياً، وارتقيا معاً كأن روحَيْهما روح واحدة تفرقت في جسدين، ما إن فارقت أحدهما حتى تركت الثاني، لأن الروح لا تقبل أن تتجزأ بين جسدين أحدهما حيّ والآخر هامد ميت، نسأل الله أن يجمعنا بهما على حوض نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

لقد فارقنا أولئك الإخوة بأجسادهم، وكان استشهادهما في **٢٢/ ١/ ٢٠٠٢**م، ولكنهم سكنوا أعماق قلوبنا.. فاللهم أنزل عليهم رحماتك ورضوانك في جنات النعيم.

❊ ❊ ❊

الشهيد مازن فريتخ

ولد في عائلة فقيرة، وتربّى يتيمَ الوالدين في حي الياسمينة في البلدة القديمة في نابلس. ومع بداية الانتفاضة باع شقةً كان يمتلكها وشرى بثمنها سلاحاً، وكان هو والشهيد أحمد جود الله يذهبون إلى الشوارع الالتفافية ويطلقون النار ويضعون العبوات الناسفة، وكان الشهيد مازن على علاقة بالشهيد القسّامي المهندس نسيم أبو الروس. وكان عمل الشيخ الشهيد مازن الجهادي من جيبه الخاص، وكان متديّناً جداً، ويُلقب بالشيخ. وفي شهر ٦ لعام ٢٠٠٢ قام الشهيد مازن بإرسال الاستشهادي سائد عواد من نابلس إلى التلة الفرنسية، وأعطاه جوّاله الخاص، وقبل العملية بعدّة أيام كان سائد قد استكشف المكان ورجع إلى مازن وقال له إنه استكشفت مكاناً لإجراء عملية ضد الصهاينة، وأحضر له مازن حقيبة مليئة بالمتفجِّرات كان أخذها من نسيم أبو الروس، وعاد سائد إلى مكان العملية وحين وصل إلى مكان تنفيذها اتصل على مازن وأراد ان يسمعه صوت الانفجار، وكان مازن يقف على دوّار الشهداء في

نابلس، ووقعت العملية، واعترف العدوّ بمقتل ١١ صهيونياً وإصابة العشرات، مع العلم أنه في بداية عملية السور الواقي في أول شهر ٤ وقع انفجار في بيت مازن في حي الياسمينة، واستشهدت عمّتاه، وأصيب شقيقه بجروح متوسطة، وأصيبت أيضاً شقيقته بجروح خطيرة.

وبعد عملية السور الواقي واجتياح نابلس كان مازن يشتبك دائماً مع العدو ويلحق بهم إصابات. وفي ١/ ٥ / ٢٠٠٣ أرسل مازن الأخوين براق خلفه وسامر النوري في عملية مزدوجة إلى تل أبيب حيث كان يعملان هناك ويعرفان المنطقة جيداً، واعترف العدو بمقتل ٢٣ صهيونياً وإصابة العشرات، وكان يحتفظ بالحقيبتين اللتين أعطاه إياهما نسيم أبو الروس. وبعد أيام كانت دبابة صهيونية تقف قرب مسجد عثمان شرق مدينة نابلس، وحين وصل مازن إلى المكان برفقة مجموعة من المجاهدين من كتائب القسّام ومنهم الشيخ أمين المنزلاوي تحرّكت الدبابة إلى مفترق الحسبة، ونزل الجنود منها، وكان يقف في المكان (جيب هَمَر)، وقام مازن وأمين المنزلاوي بإطلاق النار عليهم، واعترف بمقتل جندي وإصابة ضابط. وفي ليلة ١٥/ ٤/ ٢٠٠٣ كان مازن على موعدٍ مع الشهادة ، إذ حاصره العدو واشتبك معه، فقتل ضابطاً وجرح آخرَين، ثم زُفّ مازن إلى الشهادة، رحمه الله تعالى.

❊ ❊ ❊

في صحبة عالم مجاهد....
الشيخ الشهيد يوسف السُّرَكْجيّ

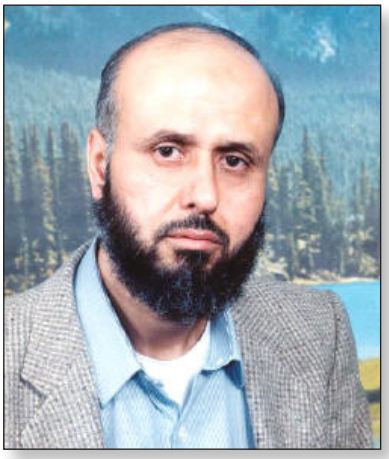

ولد الشيخ يوسف في ٣٠/ ٥/ ١٩٦١م بنابلس، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين وهو في السابعة عشرة من عمره، ودرس الشريعة في الجامعة الأردنية، وتتلمذ على يد الدكتور عبد الله عزام، ثم درس الماجستير، وحصل على الشهادة في عام ١٩٩٧م.

وأمضى في اعتقاله قرابة ثماني سنوات في سجون الاحتلال فقد اعتقل للمرة الأولى عام ١٩٨٨م، وخرج عام ١٩٨٩م، ثم أعيد اعتقاله عام ١٩٩٢م؛ ليبعد إلى مرج الزهور، ثم أعيد بعد عام إلى فلسطين.

وأعيد اعتقاله عام **١٩٩٥**م لعلاقته بالمهندس يحيىٰ عياش، وفي هذا الاعتقال تضررت صحته كثيراً، حيث أصيب بفشل كلوي علىٰ أثر التعذيب الشديد ووضعه في الثلاجة، فأعادوه إلىٰ قسمه في السجن فاقداً للوعي، حتىٰ إن رفاقه ظنوه قد استشهد، وبعدها أفرج عنه؛ ليكمل حياته بكلية واحدة.

اعتقلته «السلطة الفلسطينية» في نهاية عام **١٩٩٧**م، ووضع في «سجن جنين»، ومكث فيه إلىٰ أن قصفت مقرات «السلطة» في شهر نيسان من عام **٢٠٠١**م، ثم أفرج عنه، وأكمل مسيرته الجهادية.

وقد التقيت بالشيخ المجاهد يوسف السُّرَكْجيّ حين كنت مطارداً مرتين، ومكثت معه في بيت واحد لعدة أيام، وحينها تعرفت علىٰ شخصيته الفذّة وخصاله الحميدة، ووجدت نفسي أمام قائد كبير، وشيخ مجاهد، وعالم جليل، وفقيه ومربٍّ له تأثير كبير علىٰ المجاهدين.

كان رحمه الله يرشدنا ويعلمنا، ويوجهنا روحياً وتربوياً وتنظيمياً وأمنياً، يقدّم لنا المساعدة في توفير بيوت للمطاردين، علىٰ الرغم من أنه هو أيضاً مطلوب يطارده الاحتلال، وكان بعض الميسورين من أهل نابلس يثق به، ويضع بين يديه التبرعات للعمل الجهادي.

كان الشيخ يوسف من قيادات «الحركة» التنظيمية والسياسية علىٰ مستوىٰ الضفة الغربية، وكان ضمن أول مكتب إداري شكّلته «الحركة» بنابلس مع بداية الانتفاضة الأولىٰ.

وكانت المجموعة العسكرية التي يقودها تعد من المجموعات الأولىٰ علىٰ مستوىٰ الضفة الغربية، وقد ابتدأت عملها أواسط عام **١٩٨٨**م، وكانت تقوم بزرع العبوات الناسفة.

اكتشف أمره بعد تنفيذ «كتائب القسام» عمليتي «محانيه يهودا» و«بني يهودا» عام **١٩٩٧**م، فقد تبين أن له دوراً في توجيه وتمويل المجموعة التي نفذت هذه العمليات، فاعتقلته «السلطة الفلسطينية» أربع سنوات في «سجن الجنيد» بنابلس.

كان للشيخ رحمه الله دور رئيس في تعارف محمود أبو هنُّود وخليل الشريف ومعاذ بلال، حيث جمعهم في منزله، ووفّر لهم الدعم المادي والمعنوي لتنفيذ العمليات ضد الاحتلال.

بعد اندلاع انتفاضة الأقصى المباركة أفرجت عنه «السلطة» بسبب وضعه الأمني، ونتيجة ملاحقة قوات الاحتلال له، وعدم قدرته على لعب دور تنظيمي أو سياسي اضطُرّ إلى الاختفاء عن الأنظار، فعاش حياة المطاردة، ثم بعد مدة قرر أن يعيش مع مجاهدي «القسام» المطاردين، وكان قد تعرف على بعض منهم في سجن «السلطة» كمهند الطاهر، ونصر الدين عصيدة، وغيرهما.

كان الشيخ بالنسبة لأولئك المجاهدين المطاردين بمثابة الأب الروحيّ، والشيخ القدوة، وما زلت أذكر كلماته التي يرددها دائماً: «إنني أريد أن أكون خادماً للمجاهدين، وودت لو أن الظرف الأمني يسمح حتى نجتمع جميعاً ـ يعني: كل المطاردين ـ وأكون خادماً لهم».

وحينما كان يجتمع بعدد من المجاهدين يرفض أن يشارك أيٌّ مجاهد في خدمة البيت أو تنظيفه، أو العمل في طهي الطعام، أو تنظيف الأواني، بل كان يصرّ على خدمتنا وإكرامنا، فكان يعلمنا بأخلاقه ومعاملته بالإضافة إلى ما كان يعلمنا في دروسه وإرشاداته.

كان رحمه الله يقول لنا دائماً: «اسألوني عن أي قضية شرعية أو فقهية»، يريد

أن يعلمنا عن طريق السؤال والجواب، وقد كتب نشرات توعية وزّعت على «كتائب القسام»؛ لتوجيه العاملين، دون أن يطلب أحد منه ذلك، فقد كان حريصاً على نصحنا، وتقديم الخدمة والمساعدة.

ومما أثار إعجابي بشخصيته أنه لم يكتف بكل تلك الخدمات والتوجيهات التي يقدّمها للمجاهدين، بل إنه طلب من المطاردين الذين يتقنون التصنيع والإلكترونيات أن يدرّبوه على كل التقنيات التي يعرفونها، من التفجير عن بُعد، إلى تصنيع الدوائر الإلكترونية والمواد المتفجرة، وقد تم له ما أراد، ودربّه الإخوة على ما طلبه.

ثم إنه اتصل بنصر الدين عصيدة عندما كان يعيش في الجبال، وخرج ليعيش معه فيها، وتدرب على استخدام الأسلحة الرشاشة، وكان مما قاله لي رحمه الله: «إنه يريد أن يتدرب على كل شيء؛ لأنه قد يأتي وقت على «الحركة» لا يكون عندها خبراء في مجال ما، فربما احتاجوا إلى خبرته، فيكون بذلك قد سدّ ثغرة من الثغور».

وكان رحمه الله هو صاحب فكرة توثيق وتسجيل وصايا الاستشهاديين بالفيديو، وكذلك كلمات وداع للمطاردين أمثال نصر الدين عصيدة، وعاصم ريحان، ومهند الطاهر، وغيرهم، فطلب من المطاردين تسجيل أشرطة صوتية أو مصورة، وكان يقول للمطاردين: «من الضروري أن توثقوا عملكم بالتصديق كشهادة للتاريخ».

أحياناً كنا نتناقش معه حول طريقة العمل وما يتطلبه من احتياجات، وكانت طريقة العمل السائدة آنذاك لا تعجبه، فهي تقوم على أن «التنظيم» هو من يوفر المال، ونحن نعمل ونشتري السلاح، ونوفر احتياجاتنا بأنفسنا، وننظّم المجموعات، ونخطط للعمليات، ونوفر البيوت التي نختفي فيها، وكان الشيخ رحمه الله له وجهة نظر مختلفة مفادها أن التنظيم يجب أن يوفر كل شيء للمجاهدين والمطاردين؛ ليتفرغوا هم للعمل.

ومن الأفكار التي تداولناها في نقاشاتنا: ضرورة توفير ملاجئ سرية للاختفاء في المحافظة والمدينة، وكذلك الاهتمام بالأرياف، وتفعيل العمل فيها، وتوفير عيادة سرية، وتهيئة طبيب يعمل معنا عند حدوث أي إصابات للمجاهدين، وكذلك ضرورة توفير كل المستلزمات التي يحتاجها المجاهدون، مثل الأقنعة، و«الإكسسوارات»، و«البواريق»، وأدوات تزوير الوثائق، وغيرها من احتياجات العمل العسكري.

كانت علاقته بالمطاردين عموماً قوية جداً، غير أن علاقته بمحمود أبو هنُّود كانت متميزة، وقد لاحظت ذلك عندما عشنا سوية في بيت واحد.

لقد خسرت «الحركة» باستشهاده الكثير الكثير؛ فقد كان القائد القدوة المضحّي الذي يتقدم الصفوف، وكان عالماً عاملاً، وداعية ومربياً، ومجاهداً مقداماً يتقدم عندما يتأخر الناس، وقد اغتالته يد الغدر، واغتالت معه كلاً من الشهداء: نسيم أبو الروس، وجاسر سمارو، وكريم مفارجة في شقة في شارع عصيرة الشمالية بنابلس، وقد نفذ تلك العملية الجبانة وحدات خاصة من جيش الاحتلال، وكان ذلك بعد اعتقال «أجهزة السلطة» لي بأسبوعين، رحمه الله رحمة واسعة، ورحم إخوانه من الشهداء، وجمعنا بهم جميعاً في عليين.

❊ ❊ ❊

الاعتقال لدى «الأمن الوقائيّ»

بعد حملة الملاحقة التي طالتني من قوات الاحتلال و«أجهزة السلطة»، عدت من جنين إلى نابلس، والتقيت نسيم أبو الروس؛ بغية التدرب على مادة «النيتروجليسرين»، وتجهيز بيت توجد فيه أدوات مخبرية تفي بهذا الغرض؛ فقد طور قسم الهندسة في «الكتائب» خبرتهم، وأتقنوا تصنيع هذا النوع من المتفجرات أثناء وجودي في جنين، وكان عندي معلومات نظرية عنها، إلا أن انشغالي بتنظيم المجموعات وبنائها، ونقل العمل إلى المدن، منعني من ممارسة التصنيع بنفسي، وكنت خبيراً فيما سبق بتصنيع مواد أخرى دخلت حيز العمل.

خرجت أنا ونسيم أبو الروس، ثم افترقنا؛ لينفذ كل منا مهمة خاصة به، واتفقنا على أن نلتقي عند ساعة معيّنة في وقت متأخر من الليل؛ لنقلل من رؤية الناس لنا، لكنه تغيب عن موعد اللقاء، فصرتُ في وضع حرج وأنا واقف في ذلك الوقت المتأخر، في ليلة شديدة البرودة، وفي شارع فارغ من المارّة، فاتصلت بأخي مصطفى؛ ليخرجني من هذا المأزق، وكنت أظن أنه موجود في نابلس، لكن خاب ظني؛ لأنه كان قد خرج من نابلس إلى بلدتي برقة.

وجعلت أفكر بمن يمكن أن أتصل به في هذه الساعة، فخطر على ذهني صديقٌ لي من مخيم بلاطة اسمه أمير ذوقان، وهو من أبناء «كتائب الأقصى»، ويعمل في الوقت ذاته في «جهاز الأمن الوقائيّ»، وكنت قد التقيتُ به من قبل في «سجن شطة»، لأنه كان معتقلاً، وحكم عليه بثمان مؤبّدات، وأفرج عنه بفضل الله في صفقة وفاء الأحرار.

كنت أريد من أمير أن يشتري لي قطعة سلاح من نوع «شتاير»، وهي مناسبة للمطارَد؛ لأن حجمَها صغير، ويمكن إخفاؤها بسهولة.

سألته إن كان بإمكانه الحضور إليّ في غضون أربع دقائق، فاستجاب ولله الحمد، ووافق على الحضور، فأخبرته أني موجود في شارع فيصل عند المقبرة، ولم يخطر على بالي حينئذ أنه عليّ أن أُعيّن أيّ مقبرة أردتُ، وقد كنت واقفاً عند المقبرة الشرقية، وذهب هو إلى المقبرة الغربية، فتأخر عليّ، وطال وقوفي، فعاودت الاتصال به، وعلمت أنه ضل الطريق إليّ، فحددت له أيّ المقبرتين أردت، وطال بقائي في المكان، وكان هذا خطأً أمنياً قاتلاً أدى إلى اعتقالي فيما بعد.

فبعد أن حضر أمير، لم نلبث أن مشينا خطوات قليلة، وإذا بعدد من أفراد «الأمن الوقائيّ» يلبسون «ثياباً مدنية»، ويصرخون علينا شاهرين أسلحتهم باتجاهنا، كنت عندئذ واقفاً خلف الأشجار أحمل مسدساً، فهيّأتُ نفسي لإطلاق النار عليهم، محتمياً خلف شجرة، ورفعت مسدسي وكدت أن أُطلق النار ظاناً أنهم من «القوات الخاصه الإسرائيلية»، غير أن حديثاً دار بيني وبين أمير في تلك الأثناء، وعرفت أنهم من «الأمن الوقائيّ».

ترددتُ حينها في إطلاق النار عليهم، وهم يقتربون مني أكثر فأكثر، حتى حدث عراك فيما بيننا، كل منا يرفع السلاح في وجه الآخر، وبعد مشادة قصيرة بيننا أدركتُ أنني بين خيارين: إما أن أُعتقل وإما أن أنجو بنفسي، وأنه ما من سبيل إذا أردت الهروب إلا أن أقتلهم، غير أني لم أشأْ في تلك اللحظة أن تتلوّث يداي بدماء أبناء جلدتي بعد أن قتلتُ أعداداً من الإسرائيلين، فاخترت الطريق الثاني، وهو تسليم نفسي.

كان مركز شرطة محافظة نابلس يبعد عنا مسافة مئة متر، فقررت الذهاب معهم، ومما دفعني إلى ذلك أنه ليس معي قرار بالمواجهة وإطلاق النار وإن أدىٰ ذلك إلى القتل، وكان نتيجة ذلك أن اعتُقلتُ، واقتادوني إلى مقر «الأمن الوقائيّ» في مبنىٰ المقاطعة بنابلس، وهناك قابلني عدد من كبار الضباط، منهم قائد «الأمن الوقائيّ»، وقائد «الأمن الوطني»، وطال الحديث حتىٰ ساعات الفجر، وكان يدور في مجمله حول السياسة.

في اليوم التالي زارني أهلي منذ الصباح، ثم بعد العصر جاء عدد من الجنود وطلبوا مني أن أحضر أغراضي، فاعتقدت أنهم سينقلونني إلى «سجن نابلس»، وكان يبعد حوالي ٣٠٠ متر، وعندما كنت في السيارة فوجئت أنها تجاوزت «سجن نابلس».

تابعت سيرها نحو مدخل نابلس الشرقي، وسألتهم عن ذلك فأخبروني أنهم سينقلونني إلى المقرّ العامّ في بيتونيا ـ رام الله، وكان ذلك بتنسيق أوروبيّ، وحينما وصلنا إلى الحاجز الإسرائيلي حضر ضابط إسرائيليّ إلى السيارة التي أركب فيها وكانت تابعة لـ«الأمن الوقائيّ»، ودار بينهم حديث ذكر اسمي خلاله، ثم اتصل بجهازه الجوال، وبعد دقيقتين جاءت آليتان عسكريتان إسرائيليتان رافقتانا إلى رام الله، ثم أدخلوني زنزانةً صغيرة جداً في قسم التحقيق في مقر «الوقائي»، ولم تكن مساحتها تزيد عن مساحة الفراش الذي أنام عليه، ولم يكن يُسمح لي بالخروج إلى الحمام غير ثلاث مرات في اليوم.

مرت هذه الحادثة عليّ كالحلم، ولم أكن أستوعب ما يحصل معي، وكيف جرىٰ نقلي إلى رام الله بواسطة دوريات «الأمن الوقائي» والإسرائيليين معاً، وكيف صار بإمكان الضابط الإسرائيليّ أن ينظر إليّ من مسافة متر واحد فقط، وتقع عيني علىٰ عينه مباشرة، بعد أن كنت من أبرز المطلوبين طيلة المدة السابقة، ومختفياً عن الأنظار.

وقد أمضيت في هذه الزنزانة مدة التحقيق التي وصلت إلى ثلاثين يوماً، وكانت علاقتي بالعمل حينئذ مقتصرة على الشهداء.

ثم بعد مطالبة المعتقلين في السجن بإخراجي من الزنازين، وبعد أن حدثت مشاكل عديدة مع الإدارة أخرجوني إلى السجن، وفيه التقيت بصديقي بلال البرغوثيّ، وأحمد أبو طه، وعماد الشريف، وإسماعيل شقشق، وأحمد البايض، وآخرين، وكان جميع السجناء معنا معتقلون بسبب مشاركتهم في المقاومة، وكانت انتماءاتهم موزعة بين «الجهاد الإسلاميّ» و«الجبهة الشعبية» و«حماس»، وكنت أنا وبلال البرغوثي وأحمد أبو طه من أبرز المطلوبين لدى الاحتلال، وكان عدد المعتقلين ثلاثة وعشرين معتقلاً.

أخبرني الإخوة في السجن أن مشاكل كثيرة حصلت بينهم وبين ضباط «الأمن الوقائيّ»، وأنه جرى فيها ضرب واشتباكات أدت إلى جروح أُصيب بها الطرفان، وأن ممثلي «حماس» في رام الله تدخلوا لحل تلك الإشكالات.

بعد يومين من وجودي بين المعتقلين بدأنا العمل من أجل تفعيل قضيتنا، والمطالبة بالإفراج عنا، وأجرينا اتصالات مع القوى والفصائل الوطنية والإسلامية، ومع قادة «الحركة»، ومع قيادة «الأمن الوقائيّ»، وحصلنا على وعود بالإفراج عنا تدريجياً، ونظّمنا سلسلة من الاحتجاجات الكبيرة داخل السجن.

وقد وصلت الأمور إلى الاشتباكات بالأيدي مع السجانين مرة أخرى، فاعتصمنا في ساحة المقر، ورفضنا الدخول فحضر جبريل الرجوب، وجلس معنا في مكتبه حتى الساعة الثانية فجراً، وحصلنا على وعود بالإفراج، والسماح لنا بداية بالخروج في إجازات، ثم أُفرج عن عدد من المعتقلين بشكل متقطع، وبقينا في السجن مع سبعة إخوة آخرين.

كانت ظروف الاعتقال في البداية صعبة جداً، ولكن بعد سلسلة من المشاكل والاحتجاجات والتدخلات الخارجية والحوارات جرىٰ تحسينها تدريجياً، والغريب أنه لم يبقَ في سجون «السلطة» في غزة والضفة غيرنا، وكنا نستشعر ضعف موقف قيادة «الأمن الوقائيّ» وارتباكهم، وارتباكهم أمام عدالة قضيتنا، وصلابة موقفنا، وقوة حجّتنا.

وقد التقيت بأحد الذين جندهم «الأمن الوقائي» للتجسس علينا، وكان يحاول الحديث معي بحجة أن له علاقة بالمقاومة، لكننا فوجئنا بأنه متهم بالعمالة لإسرائيل، وأن أهله أعلنوا براءتهم منه، وكانوا قد قطعوا الحديث معه، ومع مرور الأيام لاحظنا عليه ارتباكاً شديداً، ودار بيننا وبينه حوار استطعنا أن نأخذ منه كلاماً صريحاً اعترف لنا فيه أنه قد جُنّد لصالح «الأمن الوقائيّ» من أجل التجسّس علينا في السجن، واختراق صفوفنا، والعمل معنا ليفضح أخبارنا، وقد كان فعلاً يُعرّض برغبته في العمل ضمن صفوف المقاومة مع «الحركة الإسلامية»، وبعد أن صارحنا بتلك الأسرار خرج عدد من الإخوة إلىٰ أحد قادة «الجهاز»، وأخبروه بأن أسلوبهم الخبيث قد كُشف، وقالوا له: إن عميلكم الذي زرعتموه بيننا قد اعترف أنكم جنّدتموه للتجسس علينا مقابل مبلغ من المال، فكان موقف هذا الضابط حرجاً، ولم يستطع الإجابة أو التبرير.

وبعد أن رأىٰ ذلك العميل أن أمره قد افتُضح راح يطرق علىٰ الأبواب، فحضر السجانون وأخرجوه من بيننا.

وقد كانت هذه الحادثة التي كشفت عن تجنيد رجل متهم بالعمالة للإسرائيلين لاختراق صفوف أبناء المقاومة دليلاً جديداً علىٰ مدىٰ خطورة هذا «الجهاز».

استشهد ثلاثة عشر مواطناً فلسطينياً في رام الله نتيجة اجتياح قوات الاحتلال، وكان ذلك قبل حصار المقر وتسليمنا لقوات الاحتلال بأيام قليلة، وقد أبلغني مدير

السجن أن هنالك قراراً بالإفراج عنا بعد هذا الاجتياح ، غير أن الاجتياح انتهىٰ، ولم يُفرج عنا علىٰ الرغم من مطالبتنا بذلك.

وبعد عدة أيام حدثت «عملية البارك» في «نتانيا»، وقتل فيها ثلاثون صهيونياً، ونفّذت كذلك «كتائب القسّام» عملية أخرىٰ، اقتحمت فيها «مستوطنة ألون مورية»، وقتل فيها عدد آخر من الصهاينة، عندها شعرنا بخطورة الموقف، وأننا علىٰ أبواب ردة فعل قوية من قوات الاحتلال.

وأخذت الأخبار عن حشد الدبابات قرب رام الله تصل إلىٰ أسماعنا، وعاودنا المطالبة بالإفراج عنا، وطلبنا حضور ضباط كبار للحديث معهم، غير أن السجانين لم يزد ردهم علىٰ أنه لا يوجد أحد، وابتدأ دخول الدبابات إلىٰ رام الله والبيرة، وقاموا بهدم «مقر الرئاسة»، وصارت شوارع بلدة بيتونيا حيث يوجد السجن الذي نحتجز فيه مسرحاً للدبابات تجيء فيه وتروح، وأمضينا الليل كله نطالب بحضور أحد الضباط للتفاهم معهم، ولكن دون جدوىٰ.

وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الاجتياح بدأت الدبابات بالتقدم نحو المقر، وعندئذ حضر إلىٰ السجن النائب الأول لقائد «جهاز الأمن الوقائي»، واسمه الجبريني، والنائب الثاني زكريا مصلح، وجلسا معنا، وقالا لنا بصراحة: لم يعد هناك شيء يربطنا بالإسرائيليين، ووضعكم في هذا السجن، وبقاؤكم فيه خطر علىٰ حياتكم، وأنتم الآن أحرار، ولكن قبل أن تقرروا الخروج ينبغي أن تنزلوا معنا إلىٰ المقر لنقرر ماذا نعمل.

ونزلنا إلىٰ قسم التحقيق في المقر الرئيسي، وهناك جلسنا مع إخوتنا من الأسرىٰ: بلال البرغوثي، وأحمد أبو طه، وإسماعيل شقشق، وأحمد الهندي، ومحمد البايض، ولم يخبروا إبراهيم أبو الرب بشيء؛ لأنه كانت عائلته في زيارة له وقت الاجتياح، فبقي

محتجزاً في غرفة مع زوجته وطفلته التي لـم يتجاوز عمرها الثلاثة أشهر.

وفي تلك الأثناء دار بيننا نقاش حول الخيارات المتاحة أمامنا:

هل نخرج معاً ونغامر بحياتنا؟ أم نخرج فرادىٰ؟ أم إن بقاءنا داخل المقر أفضل لنا وأكثر أمناً؟ ذلك أن مقرات «الأمن الوقائي» لم يُهاجمها الاحتلال، ولم يُقصف «المقر الوقائي» مدة احتجازنا مع أن بقية مقرّات «السلطة» قد قُصفت، ولم يسلم منها مقر الرئيس نفسه، ومما جعلنا نفكر بالبقاء أيضاً أننا لم نشعر أن قادة «الأمن الوقائي» كانوا يحسبون حساباً لقصف المقر، أو قصفنا ونحن في السجن، أو اقتحام المقر.

وقد طلبوا منا إخلاء الغرف والخروج إلىٰ ساحة السجن مرة واحدة فقط بسبب غارات طائرات الاحتلال علىٰ رام الله، وفي مرة أخرىٰ جرىٰ إخلاء المقر الرئيسي، ولم يطلب منا الإخلاء علىٰ الرغم من الخطر الذي يتهددنا، ولم يكن هناك أي اعتبار للحفاظ علىٰ حياتنا، وهذا يدل علىٰ عدم مسؤولية قادة «الأمن الوقائي»، وعدم اكتراثهم بأمننا وحياتنا.

وبعد نقاش طويل بيننا اتفقنا علىٰ أن نخرج تدريجياً، وأن يخرج من كانت عنده القدرة علىٰ تدبير أموره خارج السجن، ووقع الاختيار علىٰ أخوين للخروج في أول دفعة، وكانت قضاياهم أقل خطورة من قضايانا، وهما محمد البايض، ومنزله قريب من السجن، لا يبعد عنه سوىٰ مئتي متر، والثاني هو أخ آخر له أقارب في قلنديا وبيتونيا.

وعندما أبلغنا المقدم أمين السيوطي بما توصّلنا إليه، وبأن إبراهيم ومحمد يريدان الخروج، فوجئنا بالموقف الجديد، وهو أنه لا يستطيع إخراجهما علىٰ مسؤولية «جهاز الأمن الوقائي»، وإنما علىٰ مسؤوليتهم الشخصية، ويجب عليهم أن يكتبوا تعهداً

شخصياً بهذا الخصوص، وأنه يريد شاهدين منا على هذا التعهد، والغريب أننا قبل ساعات قليلة أُبلغنا أننا أحرار ونستطيع الخروج متى نشاء.

تشاورنا مجدداً حول هذا القرار المفاجئ، وقررنا كتابة هذه التعهدات، وشهدت أنا وبلال البرغوثي عليها، ففوجئنا مجدداً بأنه لا يمكن الخروج دون حضور العقيد زكريا مصلح، ثم بعد ساعات حضر العقيد زكريا والعقيد أبو أسامة الجبريني قائد الموقع، وكانت الساعة قد قاربت السادسة مساءً، ودار بيننا حديث عن ضرورة إخراجهما وتسليحهما أيضاً، وأن «الوقائي» إذا كان لا يريد تسليحهما، فليعطهما من سلاحنا الشخصي الذي صادروه منا لحظة اعتقالنا.

قابَلَنا زكريا مصلح بالرفض، ثم خرجوا من عندنا، وقالوا: سنعود بعد وقت قصير لنخرجهما، إلا أنهم لم يفوا بوعدهم هذا، بل رجعوا عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، وأخرجوهما من السجن.

لكن ما إن ابتعد محمد البايض عن السجن قرابة المئتي متر حتى فوجئ بدبابات الاحتلال، ولم يدر أين يذهب، ولم يجد إلا أن يعود إلى السجن، وقد تسببت عودته لنا بضربة معنوية، فقد أكد ذلك مخاوفنا عن خطورة الموقف حول المقر.

وأما الأخر الآخر الذي خرج فعندما وصل إلى بناية قريبة من المقر لاحقته قوات صهيونية خاصة، واقتحمت تلك البناية، ولكنه استطاع أن ينجو منهم بأعجوبة بفضل الله، ولما نزل إلى شارع مجاور فوجئ بوجود ثلاث دبابات، ولم يدر أين يذهب، فما كان منه إلا أن اختفى في حفرة قرب الدبابات، وأمضى فيها ساعات، وبقي يعيش على هذه الحال مدة اثنين وعشرين يوماً، يتنقل من شارع إلى آخر، ومن بناية إلى أخرى، يرافقه الجوع والبرد، واعتقل بعدها بأسابيع على يد قوات الاحتلال .

بعد فشل محاولة الخروج الأولى بدأت الدبابات بالتقدم نحو المقرّ، وبدأت الجرافات بهدم الأسوار، فأخرجونا عندئذ من مقر التحقيق إلى وسط المقر، ووضعونا في غرف مراقبة المحطات الفضائية والمحلية المليئة بأجهزة التلفاز، وقد أتاح لنا ذلك متابعة الأخبار، وفوجئنا بجبريل الرجوب على قناة «ANN» يقول في مقابلة مباشرة معه: «إنه لا يوجد عندي مطلوبين للاحتلال، ولا معتقلين، وإنه ما يزال في المقر، وإن قواته المدربة والمجهّزة ستقاوم حتى آخر رجل، ولن نرفع الراية البيضاء».

شعرنا حينئذ بمؤامرة كبيرة تحاك ضدنا بعد أن سمعناه ينكر وجودنا، وكنا قد أدخلنا أجهزة جوال دون أن تعلم بها سلطة السجن، فطلبت من إسماعيل شقشق ـ من أبناء خانيونس ـ أن يحصل على رقم الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، ويخبره بما حصل معنا، فاتصل به وأخبره بكل ما يدور، وما زالت تلك المكالمات التي أجريناها مع قادة «الحركة» في القطاع مسجلة على مواقع الشبكة العنكبوتية «الإنترنت».

وقد طلبنا من قيادة «الحركة» أن تضغط على قيادة «الوقائي» ليسلّمونا سلاحاً ندافع به أن أنفسنا، وأن يسمحوا لنا بالخروج حتى نواجه قوات الاحتلال، ولكن دون فائدة، وطلبنا من قيادة «الأمن الوقائي» أن يسلحونا، ولكن، وتعلّل زكريا مصلح بأنه لا يوجد سلاح، حتى هو نفسه وكبار الضباط لا يملكون أسلحة خاصة بهم، ولكن كذبه ظهر بعد ساعات قليلة، فرأيناه يحمل أفضل سلاح هو وكبار الضباط، حتى إن الطباخين وعمال النظافة قد حملوا أسلحة كذلك.

طلبنا من الدكتور عبد العزيز الرنتيسي أن يخرج على «قناة الجزيرة»، ولكنه طلب منا تأجيل الأمر لعله ينجح في إقناع قيادة «الوقائي» بتسليحنا، وكنا حينئذ على تواصل دائم مع قادة «الحركة» في القطاع، منهم صلاح شحادة والدكتور نزار ريان رحمها الله.

ودارت أحاديث أثناء الحصار بيننا وبين ضباط «الأمن الوقائي» حول استعدادهم للمواجهة، فأكدوا أنهم مستعدون، وأنهم يملكون أسلحة في المقر، وهم ينوون التصدي للدبابات، ويريدون الاستفادة من خبراتنا في تصنيع المتفجرات، وعندما أبدينا استعدادنا للمشاركة في التصنيع، ورأوا أن الأمر جاد، وليس مجرد أحاديث فارغة، عدلوا عن الفكرة، ورفضوا تنفيذها.

كانوا يطمئنونا بأنه لن يكون هناك اقتحام، ويحاولون إقناعنا بأن وجودنا في المقر أكثر أمناً لنا، وأن ما يصيبنا يصيب المقر، بل إن أحدهم كان يتساءل: ولماذا يقتحمون؟ نحن لم نعمل شيئاً ضد إسرائيل، وبقينا جهة رسمية محايدة، ولم نتورط كما تورطت «أجهزة السلطة» الأخرى، فاحتمال الاقتحام بعيد، ولكن إذا حصل الاقتحام فسنقاوم.

حاولت الخروج من الممر عن طريق أحد عناصر «الجهاز»، وقد كان صديقاً لأحد أقاربي، وعندما علموا منعوه، وفي هذا دلالة واضحة على نيتهم الحقيقة في الاحتفاظ بنا وعدم إخراجنا، وإن زعموا فيما بعد أنهم عرضوا علينا السلام والخروج، ونحن الذين رفضنا ذلك، وفيه بيان لكذب مزاعم جبريل الرجوب في مكالمته المسجلة مع الدكتور الرنتيسي، حينما ادعى أن زوجتي وأولادي عندي، وهذه المكالمة موجودة على موقع «اليوتيوب»، فالحقيقة أنه لم يكن عندي أحد من عائلتي، ولم يكن عندي أولاد أصلاً في ذلك الوقت، وزوجتي أنجبت ابني الوحيد عمر أثناء اعتقالي عند الإسرائيليين بعد تسليمي لهم.

في تلك الأثناء، وقبل اشتداد القصف حصل أول لقاء لنا مع مطلوبين من «فتح» كانوا قد لجؤوا إلى المقر، وجزء منهم كان يعمل لصالح جبريل جروب.

كان هؤلاء المطلوبين مسلحين، ولم يكونوا معتقلين كما زعم بعضهم، وإنما جاؤوا إلى المقر برغبتهم، وأنا أذكر هذه القصة هنا؛ لأن أحدهم كان يكذب وينشر أخباراً عن رفضنا السلاح، ورفضنا الخروج، ويصف حالنا ووضعنا بغير ما كنا عليه، وكان أولئك أحراراً في تحركاتهم ومعهم أسلحتهم إلى آخر لحظة، ولم يكونوا معتقلين مثلنا.

وقد انكشفت لي حقائق عن ذلك الموقف بعد الاعتقال، فقد ذكر لي أحد عناصر «السلطة» الذين كانوا معنا في «مقر الوقائي» أنه شاهد بأمِّ عينه، وسمع بأُذنه الاتصالات التي كان يُجريها قائد الموقع مع قوات الاحتلال؛ بغية تنسيق عملية انسحاب قوات «الأمن الوقائي» من البنايات المحيطة بالمقر، وتسليمها لقوات الاحتلال.

كانت ناقلة الجنود تأتي وتُنزل مَنْ فيها عند مدخل كل بناية، وكانت قوات «الأمن الوقائي» تنسحب من البناية، وقد عرفت ذلك قبل خمس سنوات فقط، وذلك عندما صارحني أحد عناصر «السلطة» السابقين بما رأى وسمع خلال مدة حصارنا.

وهذا دليل واضح على عدم وجود نية للمقاومة كما كانوا يزعمون ، وهو إشارة كذلك إلى أن ما حصل معنا كان مؤامرة لتسليمنا، ومقامرة بحياتنا من أجل الإثبات إلى السيد الأمريكي والصهيوني أنهم يحاربون المقاومة، ويرفضون إطلاق سراح المقاومين إلى اللحظة الأخيرة، على أمل أن يحظوا برضاهم، ويحتفظوا بمواقعهم ومكتسباتهم، وليس مهماً أن نموت نحن أو نعتقل، مقابل أن لا يخسر جبريل الرجوب مكانته ومكتبه، وتبقى لهم مكاتبهم الفاخرة وبطاقات «VIB».

بدأت قوات الاحتلال بالنداء عبر مكبرات الصوت مطالبة لنا بتسليم أنفسنا والخروج من المكان، وبدأت بإطلاق النار، وقصف الموقع بالرشاشات الثقيلة، وقذائف المدفعية، وصواريخ طائرات «الأباتشي»، ولم يهدأ رصاص القناص.

كان الرصاص يمر من جانبنا، والقذائف تنفجر على بعد أمتار عنّا، وقد احتراق الطابق الرابع الذي كنت فيه، ثم نزلنا إلى الطابق الثالث، ووزعنا أنفسنا على الممرات بين الغرف، وبقي القصف مستمراً ما يقارب العشرين ساعة، ولم يكن هناك أي مقاومة سوى رصاصتين: إحداهما خرجت خطأً، والثانية عمداً من أحد الجنود، وعندما رأوه منعوه من المقاومة وإطلاق النار، وهذا مثال آخر يدحض زعمهم للمقاومة والصمود.

وبعد توقف القصف بعشر دقائق اتصل أبو أسامة الجبريني قائد الموقع عبر جهاز لاسلكي، وقال: صمود.. صمود.. صمود يا شباب، خمس دقائق وبعدها حلٌّ مشرِّف.

وبعد عشر دقائق توقف القصف، وصدرت أوامر لكل القوات بالنزول من الطابق الثاني، وبعد نزولهم صدر أمر آخر بتسليم جميعِ العناصر سلاحَهم.

كنا في حالة من الترقب والذهول، ماذا نعمل؟ وما هو الحل؟ سألنا زكريا مصلح: ما هو الحل المشرف؟ ولكنه رفض الحديث.

وبعد أن تأكدوا من تسليم الجميع للسلاح وسيطرتهم على الموقف قالوا: الحل يقضي بخروج الجميع إلى «مستوطنة عوفر»، وكل من لا إشكال عليه سيفرج عنه، فقلنا لهم: ونحن المطلوبون، ما مصيرنا؟ قالوا لنا: مثلنا مثل الباقين، الكل يخرج إلى «عوفر»، ونحن لا نستطيع الصمود أكثر من ذلك.

عندما بدأ عدد من المجاهدين بالتهديد الوعيد للضباط جاء أبو أسامة الجبريني، فأخذني في جولة، وأراني الدمار الذي حصل للمقر عامة، ولمكتبه خاصة، وقال لي: «أكثر من هيك صمود ما في مجال، انظر إلى مكتبي والدمار في المقر»، فقلت له: «ليس المهم الآن الحديث عن الصمود، المهم لماذا نحن لغاية الآن في السجن؟ لماذا لم تسمحوا لنا بالخروج»، ولكنه لم يكن عنده أية إجابة.

عندها اجتمعنا وتباحثنا ماذا نعمل؟ هل نسلم أنفسنا؟ أم نعتصم في المقر ونرفض تسليم أنفسنا ونحن فارغو الأيدي من أي سلاح؟ وقد طرحت عدة آراء، وفي النهاية كان الاتفاق على الخروج والتسليم؛ لعدم إمكانية المقاومة والصمود.

خرجنا مع قوات «الأمن الوقائي»، فاعتُقلنا، وجرى تحويلنا للتحقيق، وحوِّلتُ أنا إلى مركز التحقيق بتاح تكفا في أراضي ٤٨، وما كان لنا إلا أن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ملابسات الاعتقال

ولا بد لي من ذكر بعض الأمور حول قصة اعتقالي عند «السلطة»، وتسليمي إلى قوات الاحتلال:

ـ لماذا اعتقلني «الوقائي» بنابلس؟ وكيف عرفوا وجودي في هذا الشارع مع أمير ذوقان؟

لقد كان أمير ذوقان مراقَباً على مدار الشهر؛ بسبب تقارير عن علاقته بي وبأحمد مرشود وأيمن حلاوة، وكانت المراقبة له دقيقة جداً تتولاها وحدة متابعة خاصة في «الوقائي»، وكان هناك لقاء بين نصر الدين عصيدة وأمير ذوقان قبل أسبوع، حيث جرى تجريب سلاح في الجبل، وكان هذا الحدث مرصوداً من قبل «الوقائي»، وعندما اعتقلوني كانوا يظنون أني نصر الدين عصيدة، وعندما حضر أمير ذوقان لمقابلتي كان في مقر «الوقائي»، فطلب إذناً للمغادرة؛ لرؤية صديق لأمر ضروري، عندها اغتنم «الوقائي» الفرصة، وذهبوا وراءه، واعتُقلت على إثر ذلك.

وربما كان للجوال دور أيضاً في هذا الموضوع، حتى وإن كانت المدة قصيرة؛ لأن هاتف أمير كان مراقباً.

ـ أريد أن أشير إلى بُطلان دعوى «الوقائي» أنهم نقلوني بتنسيق أوربيّ؛ فلم يكن هناك وجود لأيِّ ممثل أوربيٍّ عند نقلي إلى رام الله، وكان الموجود هو الجيش الإسرائيلي، والحديث معهم كان أمامي، وقد ذكروني بالاسم، ونظر الضابط الصهيوني إليّ مباشرة.

عند اعتقالي على يد «جهاز الوقائي» تم ضبط بعض الشرائح والجوالات، وبعض الأوراق والرسائل، وقرصاً صلباً للحاسب، وقد استفاد «الأمن الوقائي» من هذه الأمور.

ولذلك يجب على المطارد أن لا يحمل أيّ شيء سوى سلاحه، ووثيقة مزورة للتنقل؛ لخطورة وقوع أيِّ أمر يمكن أن يستفيد منه العدو، ويمكن أن يستعين المطارد بأيِّ مساعد يحمل له بعض الأشياء المهمة، ولكن بشرط أن لا يكون معه، أو قريباً منه.

ـ إذا ما تحدثنا عن أساليب التحقيق عند «السلطة»: فهي مزيجٌ من أساليب التحقيق عند الاحتلال وأساليب التحقيق عند بعض الأنظمة الحاكمة في العالم الثالث، ولكن الخطورة أن هؤلاء المحققين هم في يوم من الأيام كانوا في صفوف حركة مقاومة، ثم تحولت توجهاتهم، وفي بعض الأحيان يستخدمون أساليب يستدرجون بها المجاهدين، فيرتدون قناع الوطنية حيناً وقناع الدين أحياناً، ويتظاهرون بحجة حماية المجاهدين من أن يعتقلوا على يد الاحتلال، وأنهم إنما يعتقلون المجاهدين ويأخذون سلاحهم خوفاً وحرصاً عليهم، وأحياناً يستخدمون أسلوب الصفقات، فيعرضون على المعتقل التسليم مقابل أمور ومكاسب شخصية، ولا يفوتهم زرع عملاء بين الأسرى في سجونهم، كما حصل حصل معنا، وأشرت إلى ذلك سابقاً.

علاقة آثمة

ـ ومما تجدر الإشارة إليه ما ظهر من التنسيق القويّ بين «أجهزة السلطة»

وقوات الاحتلال، وما بين الجهتين من تبادل المعلومات على مدار الساعة، ولو أرادت «السلطة» وقف التعامل مع الاحتلال فإنها لا تستطيع؛ لأن هذه الأجهزة مخترقة تقنياً، وهي تستخدم شبكات اتصال يسيطر عليها الاحتلال، وقد ضبط الكثير من أجهزة تنصت في مقراتها هذه الأجهزة.

وأريد أن أذكر كلاماً مهماً تحدث به أحد ضباط جيش الاحتلال عند اعتقالنا، وسمعه أحد الأصدقاء الذي يتقن اللغه العبرية، فقد تحدث هذا الضابط على «القناة الثانية الإسرائيلية» عندما سأله المذيع: كيف ضحيتم بجبريل الرجوب؟ فأجابه: كنا بين خيارين صعبين: الأول: خيار جبريل الرجوب وخدماته، والثاني: خيار دم الإسرائيليين، وهؤلاء المطلوبين والمعتقلين في المقر أيديهم ملطخة بدماء عشرات الإسرائيليين؛ لذلك قدمنا الخيار الثاني، وهو دم الإسرائيليين على الخيار الأول، وهو جبريل وخدماته.

هناك أمور خطيرة في قناعات وتفكير وتوجهات قيادات «أجهزة السلطة»، فهم يعدون حربهم على المقاومة جزءاً من المشروع الوطني من أجل الحفاظ على المشروع السياسي لـ«حركة فتح»، وعدم السماح للمقاومة بأن تضرب هذا المشروع الذي سيقود ـ بحسب اعتقادهم ـ إلى دولة.

وكذلك إيمانهم بحربهم على الحركات الإسلامية، وضرورة بقاء ملف الاعتقال السياسي مفتوحاً، وهذا الأمر سمعناه منهم مباشرة عند النقاش والحديث معهم حين كنا معتقلين عند «الأمن الوقائي»، وقد تحدثوا بكلمات واضحة بأن ملف الاعتقال السياسي سيظل مفتوحاً حتى لو قامت الدولة، وهذا يدحض شعارات الديمقراطية التي يتشدق بها بعض قادة «السلطة» وأجهزتها.

كنا نسمع السباب والإهانات لقادة ورموز وشهداء حتىٰ من «حركة فتح» نفسها، وهذا يدلل علىٰ خطورة هذه القناعات والأفكار التي يحملها هؤلاء علىٰ المشروع الفلسطينيّ بأكمله أياً كانت توجهاته.

أساليب الاحتلال في التحقيق

بعد تسليمنا للاحتلال بتاريخ ٢/ ٤/ ٢٠٠٢م استخدم معي أساليب مختلفة في التحقيق، ولم يستخدم الأساليب السابقة التي استخدم معي في الاعتقال الأول عام ١٩٩٣م، ولا في الاعتقال الثاني عام ١٩٩٤م.

فقد كان التحقيق هذه المرة يركز علىٰ الجانب النفسي أكثر من تركيزه علىٰ الجانب الجسدي، وكان الصهاينة يهددون بإدخالي إلىٰ التحقيق العسكري في أية لحظة، والظاهر أن خطتهم في التحقيق هي إبقائي تحت التهديد المستمر.

ثم نقلوني إلىٰ تحقيق عسكري في سجن سري لم أعرف حينها اسمه ولا مكانه، وعزلوني نهائياً عن أيّ معتقل آخر في هذا السجن لمدة تسعة وثلاثين يوماً، وبعدها تسرب إلىٰ مسامعي أنه جرىٰ حديث بين الأسرىٰ أنني أول شخص يحقق معه في «سجن عتليت» السري، ولم يتسنَ لي التأكد من ذلك.

وضعوني في ظروف صعبة داخل السجن، فلم تكن ظروف الحياة فيه إنسانية، وكذلك ما يتعلق بالنظافة واستخدام الحمام، فكانوا يعرضونني للإهانة عند كل موقف، وأثناء نقلي من غرفة التحقيق إلىٰ الزنزانة، فكان ذلك يستغرق ما لا يقل عن عشر دقائق، وهم يطلبون مني الدوران حول نفسي وأنا معصوب العينين بقطعة قماش، وإذا رفضت ذلك يقوم الجنود بإجباري علىٰ الدوران لعدة دقائق، وما ألبث أن أمشي عدة أمتار حتىٰ يعيدوا الكرة ويقوموا بدفعي، والضرب علىٰ الأبواب والجدران

بالعصي، والصراخ والتهديد، وكانوا يستخدمون معي الأسلوب نفسه كلما طلبت الخروج لقضاء الحاجة.

ومن الأساليب التي استخدموها معي: الشبح على كرسي بدون ظهر، ولم يكن عرض الكرسي يتجاوز خمسة عشر سنتيمتراً، وكانوا يشغلون المكيف أثناء الشبح ليعمل بدرجة حرارة تقترب من الصفر لساعات طويلة.

ومن أساليبهم القذرة التي كانوا يمارسونها: الخداع، فكانوا يقولون لي مثلاً: إن عدداً من المطاردين الذين عملوا معي قد استشهدوا، ولم يبقَ إلا فلان وفلان، فمن أجل ماذا أنت تصمد؟ الأمور انكشفت وأغلب المطاردين تم تصفيتهم .

وكذلك إظهار بعض الأوراق التي تم ضبطها فعلاً، علماً أنه حتى ساعة اعتقالي كان هناك عدد كبير من الإعترافات عليّ يُدينني، ثم كانت اعترافات أخرى بعد ذلك أيضاً.

ومن ذلك استغلال الخطورة الشديدة للظرف الذي اعتُقلنا فيه، حيث كان الحديث يدور عن خمس مئة شهيد في مخيم جنين، ومئة شهيد في نابلس، وأنه لا توجد قيود في هذه الحرب ولا في أساليب التحقيق، وأنهم سينتزعون المعلومات التي يريدونها بأية وسيلة؛ لأنهم يعيشون في حالة حرب وطوارئ، وقد استخدموا جهاز كشف الكذب عدة مرات أثناء التحقيق معي.

كانت الزنازين مظلمة، وصوت المكيف المزعج جداً، الذي صُمّم بطريقة تجعله يصدر أصواتاً عالية جداً، مما يجعل الأسير يعيش في حالة من عدم الاتزان وكأن الأرض تدور به، وهذا الصوت المزعج لم يكن ينقطع ليل نهار.

ومن ذلك استخدام أساليب نفسية، ويكثر ذلك حينما يكون الأسير بحالة من

الترقب، وخاصة مع الأسير الذي شكل الخلايا ونفذ العمليات التي أدت إلى قتل صهاينة، فيفاجأ الأسير بقول المحقق له: الحمد لله على السلامة، أنت حيّ، ويجب أن تكون سعيداً لأنك لم تقتل، ثم يعرض عليه أن يُحضر له ما يريد كالملابس والطعام، ويحضر له ما طلبه، وكذلك يحضر له الشاي الساخن، وبعد ذلك يقول له: أنت قاتلت ضدنا، وقدت المعركة، ولكننا اعتقلناك ونحترمك، ونحترم قتالك لنا، ولكن أنت الآن بين أيدينا، ومن حقنا أن نأخذ المعلومات منك، ثم تخرج إلى السجن، وتعيش حياتك فيه إلى حين حصول صفقة تبادل.

كانت المخابرات تتعمد إشاعة أخبار التبادل أثناء التحقيق وفي الزنازين كي تشجع الأسير على الإدلاء بالمعلومات، وتزرع في نفسه الأمل بالافراج بعد الانتهاء من التحقيق.

لقد مكثت في التحقيق قرابة أربعة أشهر، وكانت هذه بعض الأساليب التي نفذوها معي في محاولة استخراج ما يريدون من معلومات.

ورغم كل هذه الأساليب ومن خلال تجربتي وتجارب الآخرين فإنه يمكن لأي مجاهد أن يصمد ويتحدى السجان إذا كان هناك ايمان حقيقي لله عز وجل وإرادة صلبة.

تقييد للحياة ومعاناة لا تتوقف

تكفي كلمة السجن لتعبر عن حقيقة هذا الشيء، فإذا أردت أن تعبر عنه فهو كبت للمشاعر والأحاسيس، وتقييد للحرية الشخصية، وفقدان لكل ما فيه خصوصية في الحياة الجماعية والأمزجة والأذواق المختلفة، إنه نظام الحياة اليومي المتكرر، والروتين القاتل، والإهانات التي تقع كثيراً من السجان، وهو المعاناة الكثيرة في أجلى صورها، وانعدام ما يسمى إنسانية بكل المقاييس، فالمرض يرافقه عدم وجود

رعاية حقيقية، والتفتيش المذل يجرد الإنسان من هذا الوصف الكريم، واستخدام سيارات «البوسطة» التي لا تصلح للبشر في نقل السجين إلى المحاكم، أو إلى المستشفى تجعله يوقن أنهم لا يعاملونه على أنه إنسان مثلهم، أضف إلى ذلك عدم وجود نظافة في بعض السجون، والطعام غير المناسب، والتقييد الثقافي، والكتب القديمة التي لا تواكب الواقع.

والأهم من ذلك كله معاناة الأهل الزوجة والابن، ومسؤولية الأسير تجاه زوجته وولده الذي ولد وهو في السجن، فأنا ـ مثلاً ـ ولد ابني حين كنت في مركز تحقيق بتحتكفا بعد اثنين وعشرين يوماً من اعتقالي، ولم أشاهده إلا في المنام، ثم بعد شهور شاهدته في أحد المحاكم لأول مرة، واحتضنته بين ذراعيّ بعد سنة من اعتقالي في المحكمة، وزارني لأول مرة في السجن بعد ثلاث سنوات ونصف، وكم كان مفاجئاً لي انسجامُه في الحديث معي طوال خمس وأربعين دقيقة، وهي مدة الزيارة التي يُسمح لنا بها، فهو لم يعش معي من قبل، ولم يرني إلا من خلال الصور، ولم يعرف شيئاً عني إلا من حديث أمه المتكرِّر عني، جزاها الله عني كل خير.

مُنعت من الزيارة لمدة ثلاث سنوات ونصف، ثم سُمح لي بزيارة متقطعة، وبعدها سمحوا للوالدين بزيارتي، وكانوا يسمحون لزوجتي بزيارتي مرة واحدة كل ستة أشهر، وكان ذلك يسبب معاناة لي ولها، خاصة عندما تكون بحاجة ماسة لوجودي إلى جانبها عند حدوث مناسبة هامة، أو مرض يصيب ولدي عمر، أو عند الحاجة لإجراء عملية جراحية له وأنا غير موجود.

وكذلك والداي العزيزان طالهما كثير من المعاناة في الزيارات والانتظار الطويل على الحواجز.

وفي أحد المرات زارتني زوجتي في الساعة التاسعة والنصف صباحاً في «سجن

بئر السبع»، وعادت إلى البيت في الساعة الثانية والنصف فجراً من اليوم التالي، أي: إن رحلة الزيارة استغرقت إحدى وعشرين ساعة في جو بارد عاصف، فنسأل الله الصبر لنا ولأهلنا، والفرج القريب لنا، ولجميع المظلومين.

ومن صور المعاناة كذلك اعتقال أخي مصطفى في السجن نفسه، حيث منعونا من اللقاء ونحن في سجن واحد، وبقينا كذلك حتى آخر أربعة أشهر من اعتقاله، وقد التقيت به مصادفة في «سجن نفحة»، وهذا الاعتقال يضيف إلى معاناة العائلة شدائد أخرى هم في حاجة ماسة إلى تفاديها.

ولازلت أذكر قصة مؤثرة جداً حدثت مع أهلي وولدي عمر، ـ حين كنت معتقلاً في «سجن نفحة ـ فقد دخلت في إضراب عن الطعام عام **٢٠٠٤م** دام ثمانية عشر يوماً، وشاركني أخي في هذا الإضراب، ثم بعد ذلك أفرج عنه، وكان قد أنهى مدة حكمه التي بلغت ثلاث سنين، وبعد أن عاد إلى البيت فرح الأهل بعودته، وفرح بعودته كذلك ولدي عمر ابنُ الثلاث سنوات وأربعة أشهر، وقد ظن حينها أن أخي مصطفى هو والده، وأصبح يناديه: بابا، وكان ذلك الموقف مؤثراً ومحزناً جداً، وأمراً مؤلماً للعائلة كلها .

ومن صور المعاناة أيضاً: عدم إعطاء الأسرى حقهم المعنوي من قبل المجتمع و«الفصائل» و«السلطة»، فالمفترض أن يكون الاهتمام بهم أكبر، والرعاية لهم أفضل.

ومما يحز في النفس أن نقارن أسرانا بذلك الجندي الصهوني المسمى «شاليط» كيف يتحرك أهله مع المنظمات والمؤسسات، وتسخر لقضيته ماكِنة إعلامية ضخمة، وأنشطة متواصلة، بينما ترى آلاف الأسرى الفلسطينيين، ولا تسمع لقضيتهم أيَّ صدى.

فمن حق هؤلاء الذي ضحّوا بأنفسهم، وعرّضوا أغلى ما يملكه الإنسان للخطر، وأصبحوا بين جدران سجون الاحتلال، من حقهم أن يكون لهم من الاهتمام الإعلاميّ الكثير، وأن يكون السعي في قضيتهم معنوياً ومادياً وسياسياً، وأن يكون التركيز على تحريرهم، وليس على معاناتهم فقط، ويجب نشر هذه الثقافة على مستوى الأمة بأسرها.

ومن الصور الإيجابية التي يراها المرء في السجن وجود إخوة صابرين ثابتين على الحق، محافظين على صلابة المبادئ والمواقف على الرغم من طول مدة سجنهم، من أمثال المجاهد نائل البرغوثي الذي قضى ثلاثة وثلاثين عاماً بين جدران السجن، وغيره من المجاهدين كثير، فإنك ترى منهم ما يخفف عليك وطأة الأسر وصعوبة الحياة فيه.

ومن تلك الصور كذلك المعاني الأخوية الصادقة، واهتمام غالبية الأسرى بشؤون الأمة، والقضايا الفلسطينية، وما يتعلق بالمقاومة، أكثر من اهتمامهم بأنفسهم، وهذا يدل على المعدن الطيب، والنفس المعطاءة التي لا تجف ينابيع الخير فيها، والتضحية من أجل الآخرين حتى في خِضَمِّ معاناة الأَسْر.

ولا بد لي في الختام من أن أوضح قضية هامة أرى ضرورة بيانها في مذكراتي هذه، تتعلق بالعمل العسكري في الضفة الغربية بشكل عام، وهي أنني كنت جزءاً من عمل جماعي، عمل يظهر فيه بوضوح روح الفريق على الرغم من صعوبة الظروف، وكثرة التحديات، وأنا لا أدعي لنفسي الدور الأبرز، فقد كان في كل المناطق دون استثناء إخوة مبادرون بالعمل والتضحية، ولا يعني الحديث عن تشكيلي لمجموعة في منطقة ما أنه لم يكن هناك عمل في هذه المنطقة لغير هذه المجموعة.

ويبقى للشهداء الذين سبقونا إلى رحمة الله الفضلُ الكبير، وهم الأكرم منّا جميعاً.

نسأل الله سبحانه أن يفرج كربنا، ويرحم شهداءنا، ويجمعنا بهم في علّيّين، ونسأله سبحانه الإخلاص في السرّ والعَلَن.

أخوكم

سـليم حجّـة

أبو عمر

إضاءات لجيل المستقبل

هذه التجربة الجهادية في انتفاضة الأقصى مليئة بالدروس والعبر، لكني أريد أن أقف عند أهم ما فيها، وهو حلقة كانت شبه مفقودة عندنا، نشعر بحاجتنا إليها في عملنا، إنها الحاجة إلى شخصية قيادية، حاجة لا تغضُّ من قدر أيٍّ من القادة الذين عملوا في تلك المرحلة، هذه الشخصية لا بد أن تضم بين جنباتها عدة صفات من أهمها:

ـ الوعي السياسيُّ والاستراتيجيّ، والإلمام بالعلوم العسكرية والأمنية، فالقائد يحتاج إلى أن يكون عارفاً بكيفية استثمار الجغرافيا، وتسخير الإمكانات، واستغلال الطاقات عند تشييد بنيان الجماعة التي تعمل تحت إمرته.

ـ وخبرته في تحديد الأولويات تمنحه نظرة مستقبلية يستطيع من خلالها رؤية الصورة من جميع جوانبها، إنها خبرة تعينه على اتخاذ القرار للعمل المناسب، واختيار الوقت المناسب والمكان المناسب، فقراراته وتصرفاته ليست ردّات فعل، ولا تتأثر بغبار المعركة التي غالباً ما تكون الرؤية فيها مشوشة.

ـ إنه يعرف كيف يخطط لكل عمل، ويرشد التائهين إلى الصواب فيه، ويصوب أداء الذين أخطؤوا، ويقوّم التجارب التي يمر بها أبناؤه، لا تكاد تجد تحت إدارته رجلاً في المكان غير المناسب، فالتخصص مراعىً في توزيع المهام.

ـ إنه قائد يحافظ على إخوانه أكثر مما يحافظ على نفسه، ويقدر قيمة الانسان

المجاهد المضحي فلا يضيع عنده جهدٌ مبذول، وإن كان الباذل لا ينتظر من قائده مدحاً أو ثناء، فضلاً عن تعويض من دنيا زائلة.

تلك صفات أرىٰ أننا إذا أردنا للعمل المقاوم أن يتطور فلا بد أن يكون إعداد قادته مبنياً علىٰ هذه الصفات.

وبعد أن فرغت من كتابة هذه الذكريات لا بد لي من الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم، ولأهل الشرف بشرفهم؛ عملاً بقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وعلىٰ رأس من يجب عليّ الاعتراف بمنّته.. شقيق الروح.. ورفيق الدرب في المقاومة والجهاد.. وشريك المعاناة في سجون «السلطة» وفي سجون الاحتلال.. المجاهد والقائد القسّاميّ بلال البرغوثيّ، الذي أسأل الله تعالىٰ أن يكرمني بمرافقته في الجنان.

عرفت في هذا الأخ النقاء في النفس، والطهر في القلب، والتفاني في العمل، مع البذل والعطاء، والتضحية والشجاعة النادرة، يتقن فن العمل أكثر مما يتقن فن الكلام.

ظهرت بصمات جهوده واضحة علىٰ العمل الجهادي في رام الله، وكانت له مساهمة في تطور العمل هناك تطوراً نوعياً، وقام بتجنيد عدد من الأبطال.

إنني أشعر بأن صداقتي له نعمة كبيرة مَنَّ الله عليَّ بها، وقد كان أعزَّ صديق في حياتي، وقف إلىٰ جانبي في أصعب الظروف، وشدّ من أزري، ويرجع الفضل الكبير إليه بعد الله في تشجيعي علىٰ كتابة هذه المذكرات، وإخراجها إلىٰ النور؛ لتقرأها جماهير المقاومة، وينتفع بها الجيل القادم.

ومن الأبطال الذين أرىٰ أنَّ شكرهم واجبٌ عليَّ الحافظُ لكتاب الله.. القائدُ الكبير.. والمهندس القسّاميّ.. رفيق دربي في رحلة المطاردة.. ورفيق دربي في سجون الاحتلال.. الصديق العزيز أمجد السايح..

تربىٰ القائد أمجد في المساجد، ومنها استقىٰ النقاء والصفاء والطهر، ومن مآذنها تعلّم الشموخ، كان رفيق زياد الخليلي وإبراهيم هواش.

أصيب أثناء المطاردة، واعتقل وصمد في زنازين التحقيق علىٰ الرغم من ألم الجراح، ولم يُرغِمْه القهرُ والتعذيب، وقد كان له كذلك الأثر الكبير، والدور الطيب في تشجيعي علىٰ الكتابة.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أُشير إلىٰ أَخَوين حبيبين من مهندسي «القسّام» كان لهما فضل عليّ، هما محمد جرار وعصام جرار، أرىٰ أنهما من الذين يصدق عليهم قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ فقد كان لهما فضلُ إيوائي حين كنت مطارداً، إضافة إلىٰ دورهما البارز في العمل العسكريّ وتصنيع الصواريخ.

لي مع أولئك العظام ذكرياتٌ لا تنسىٰ.. ستبقىٰ ذكراهم محفورة في مخيلتي.. منهم من قضىٰ نحبه.. ومنهم من أكرمه الله بالتحرير في صفقة وفاء الأحرار.. ومنهم من ينتظر الفرج.. وظنُّنا فيهم أنهم ما بدلوا تبديلاً.

❊ ❊ ❊

الخاتمة

وقبل أن أضع القلم الذي رافقني في رحلتي بين هذه الصفحات.. وأعانني على إخراج هذه الذكريات.. وعاش معي .. فاطلع على انفعالات نفسي.. وخفقات قلبي.. وشجوني وأحزاني.. وابتساماتي وآمالي.. سار معي في كل حرف كتبتُه.. وكل موقف صوَّرتُه.. وكل مشهد عكستُ صورتَه.. قبل أن أفارقه لا بد لي من التأكيد على أمور عدة:

١ـ إن هذه المرحلة الجهادية المباركة، وهذه التضحيات العظيمة، ما هي سوى حلقة مشرقة في طريق الجهاد الطويل للشعب الفلسطيني المرابط، وهي من غير شك قد بُنيت على مراحل جهادية سابقة، وأَسَّست ـ بفضل الله تعالى ـ لمراحل آتية من العمل المقاوم، هذه المرحلة لم يكن ليكتب لها النجاح لولا تضحياتُ المجاهدين والشهداء، ولولا أبطالٌ سخَّروا خبرتهم لخدمة المقاومة، من أمثال المهندس يحيى عياش، والمهندس محيي الدين الشريف، وعادل عوض الله، مع رفاقه الأبطال الأسرى: المجاهد القائد إبراهيم حامد والمجاهد القائد عبدالناصر عيسى والمجاهد القائد عبد الحكيم حنني والمجاهد القائد صالح العاروري.. وغيرهم الكثير من الأبطال.

٢ـ إن هذه الذكريات كأي عمل بشريّ عرضة للخطأ والنسيان، لكني أرجو أن يكون خالصاً لله وحده، فإن أصبت فمن الله وبفضله وتوفيقه، وإن أخطأت فمن النفس والشيطان.

وأعترف أنّ عليَّ أنْ أقدِّم اعتذاري لكل مجاهد غفلتُ عن ذِكْره، وأُنسيت أن أُخلد عظيمَ صُنْعه وجهاده، ولكن عذري أمامهم أنّ حسبهم أنّ الله يعرفهم، ويذكرهم في ملأ خيرٍ من ملئنا، وأن أعمالهم مدونةٌ في صحائف خيرٍ من صحائفنا.

٣ـ إن هذه البطولات التي صنعها المجاهدون، وسطّر حروفَها الأسرىٰ، وسقاها الشهداء بدمائهم الزكية، لم تكن لتنجح لولا توجيهاتُ العلماء والدعاة، وتربيةُ الأم الصابرة، واعتناءُ الأخت المربية، واهتمامُ الزوجة الوفية والمحتسبة، وشجاعةُ الفتىٰ المقدام، كلهم ناضلوا كنضال المجاهدين حمَلَة السلاح، وساروا جنباً إلىٰ جنب مع الشباب المؤمن المجاهد، الذي حمل روحه علىٰ كفّه، وسار من أجل رضا ربه، وتحرير أرضه ومقدساته، فهذا التكامل المنظَّم هو ما أوصل إلىٰ توازن المعادلة، ولا يمكننا إغفال أيِّ عنصر من العناصر التي شكل انسجامُها وتكاتُفها ما وصلت إليه المقاومة من قوة وبأس، وشدة ذاق العدوُّ ويلاتها.

هذه الذكريات شمس توهجَّت بوَقود دماء الشهداء؛ لتضيء الطريق إلىٰ الأجيال القادمة من المجاهدين؛ كي تمضي بخطاً ثابتة واثقة نحو مشروع النصر والتحرير، مستلهمةً تجارب مَنْ سبقها من المجاهدين ، ومستفيدةً من نجاحاتهم وإخفاقاتهم.

وفي الختام أسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يتقبل منّا هذا العمل المتواضع، وأن يجعله في ميزان حسناتنا يوم القيامة.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم.

سليم حجّة

من «سجن رمون»

في ٢٤ / ٤ / ٢٠١٣م

تنويه واعتذار

نظراً لصعوبة الظروف التي عشتها وما زلت أعانيها في الأسر، فإنني أعتذر للقارئ الكريم عن أيِّ خطأ يجده في هذا الكتاب، سواء كان في الجانب اللغوي، أو يتعلق بدقة المعلومات الواردة فيه، وأرجو أن تتاح لي فرصة أخرىٰ للنظر في مواده، وإصلاح ما وقعت فيه من خطأ في الطبعة الآتية بإذن الله تعالىٰ.

وأرجو من كل من وقف علىٰ خطأ فيه أن ينبه عليه عسىٰ أن يكون له الأجر من الله تعالىٰ في تصحيحه.

السيرة الذاتية للكاتب

ولد الأسير المجاهد سليم حجة في «برقة» بنابلس عام **١٩٧٢** للميلاد، في كنف أسرة محافظة متواضعة، بلغ عدد أفرادها اثنا عشر نفساً من الإخوة والأخوات، وكان أسيرنا التاسع في سلسلة هذه العائلة الشريفة.

ارتاد المساجد منذ نعومة أظفاره، وتربى فيها، ونشط في الدعوة إلى الله تعالى، وشارك في الانتفاضة الأولى مشاركة فاعلة، وانضم إلى صفوف حركة المقاومة الإسلامية «حماس» عام **١٩٨٩** للميلاد، وكان من نشطاء أبنائها منذ البداية، ولم يقتصر نشاطه على القرية التي ولد فيها، بل تعداها، فشمل المنطقة كلها.

تحصيله العلمي

درس المرحلة الابتدائية، ثم الثانوية في مدارس هذه القرية المناضلة التي قدمت أكثر من ستين شهيداً من خيرة أبنائها في سبيل الله.

وحصل على شهادة الثانوية العامة ـ الفرع العلمي ـ والتحق بـ«جامعة النجاح الوطنية» عام **١٩٩١** للميلاد؛ ليدرس البكالوريوس في تخصص الشريعة الإسلامية، فكان أحد الخطباء الذين يُشار إليهم بالبَنان، وعُرف بحماسة خطبه، ولكنه لم يتمكن من التخرج حتى الآن؛ لتواصل الاعتقال بحقه.

وحصل على شهادة الدبلوم في تأهيل الدعاة من «كلية العلوم التطبيقية» في غزة.

وهو كذلك يدرس التاريخ سنة ثالثة في «جامعة الأقصى» بغزة.

في الانتفاضة الأولى شكل سليم خلية مجاهدة، وهو الذي أدخل الاستشهاديّ رائد شغنوبي في صفوف «حماس»، وكان رائد أحد أبطال «عمليات الثأر المقدّس» التي قادها الأسير القائد حسن سلامة؛ ردًّا على اغتيال المهندس يحيى عياش، وأحدَ النشطاء البارزين في الخلية، وكان من أفرادها كذلك أحد أبطال عملية «سبارو» الأسير المحرّر محمد دغلس.

وبعد الفعاليات التي نفذتها خليته العسكرية هذه، وعلى إثر ضرباتهم الموجعة للاحتلال اعتقل سليم مع مجموعة من رفاقه عام **١٩٩٣** للميلاد، ومكثوا في التحقيق قرابة **٤٩** يوماً، وأفرج عنهم بعد أن عجز الاحتلال عن أخذ أيّ اعتراف منهم.

واصلت الخلية ضرباتها، إلى أن اعتقل مع مجموعة أخرى عام **١٩٩٤** للميلاد، وكان قد تحمّل مسؤوليتها، فاقتادوه إلى التحقيق العسكريّ مع سبعة من رفاقه إلى «سجن نابلس المركزي»، حيث بقي في التحقيق **٦٤** يوماً تحت التعذيب، لكنهم عجزوا أن يأخذوا منه أيَّ اعتراف، غير أنه أدين باعترافات الآخرين عليه، وحكم عليه بحكم أشدَّ من أحكام الباقين؛ ردعاً له، فصدر بحقه الحكم بالسجن تسع سنين؛ لمسؤوليته عن الخلية وتوجيهها، وأمضى مدة سجنه في سجن «مجدو» و«شطة» و«عسقلان».

المشاركة في انتفاضة الأقصى

أثناء وجوده في الأسر، وبعد أن أمضىٰ أكثر من أربع سنوات أشار إليه إخوانه في الأسر بأن يعترض علىٰ الحكم الصادر بحقه، لأنه شديد بالمقارنة مع أفراد مجموعته؛ فقد كانت مدة حكمه هي الأطول، علىٰ الرغم من أنـه لا اعترافات في سجله، وإنما هي اتهامات ـ أو اعترافات ـ من قبل الآخرين، حُكم بناءً عليها، فرأىٰ أن يوكّل محامياً ليستأنف الحكم، ويطعن فيه، فعمل المحامي علىٰ استئناف الحكم، فخُفضت المدة إلىٰ خمس سنوات وتسعة أشهر، وخرج قبل اندلاع «انتـفاضة الأقصـىٰ»؛ ليصبح أحد مؤسِّسي العمل العسكري فيها، وليكون واحداً من الذين جعلوا العدو يعُدّ قتلاه.

وما كان الأسر ليصد هذه النفس العظيمة عن استكمـال طريق العلم، فبعد الإفـراج عنه عام **١٩٩٩** للميلاد عاد إلىٰ «جامعة النجاح»؛ ليستكمل ما بقي له، وعقد قرانه، وتزوج بعد مطاردته، ورُزق بولده عمر وهو في الأسر، ولكنه لم يستطع أن ينهي دراسته بسبب مطاردته.

ثم إنه اعتـقل في نـهاية العام **١٢/ ١/ ٢٠٠٢** للميلاد لدىٰ «الأمن الوقائي» في «سـجن بيـتونيا»، ثم اعتـقلته قوات الاحتلال من السجن نفسه في **٢/ ٤/ ٢٠٠٢** للميلاد.

حكمت عليه محكمة الاحتلال بستة عشر مؤبداً، إضافة لثلاثين سنة بتهمة إعادة تشكيل الجناح العسكري، ولِـما كان له من دور مركزيٍّ ومـحوريٍّ في تشكيل الجناح العسكري في «انتفاضة الأقصى»، وبسبب جهوده في توسيع نطاق العمل ليصل إلىٰ عدد من مدن الضفة، ودوره في تنظيم خلايا في عدة مدن، وقد كانت خلاياه هذه من أقوىٰ الخلايا التي أذاقت العدو ضربات استراتيجية في عمق كيانه الغاصب،

ولمسؤوليته المباشرة عن «عملية ميحولا»، و«عملية حيفا» الاستشهاديتين، و«عملية التلة الفرنسية»، والوقوف خلف عمليتي «سبارو» و«الدلفناريوم»، وشارك بجانب الشهيد القائد أيمن حلاوة في تنظيم وتنفيذ عدد من العمليات الجهادية الأخرىٰ.

ويعدّ أسيرنا من أبرز قادة شمال الضفة الغربية، وقد أمضىٰ في الأسر حتىٰ تاريخنا هذا ما يبلغ ثمانية عشر عاماً من حياته، انتقل خلالها من أسر إلىٰ آخر. فرّج الله همَّه، ونفَّس كربَه، إنه نِعْم المولىٰ ونِعْم النصير.

❊ ❊ ❊

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
الشكر والتقدير	٧
تصدير بقلم الأستاذ إسماعيل هنية	٩
تقريظ بقلم القائد الأسير الأستاذ إبراهيم حامد	١١
تقريظ بقلم القائد الأسير الأستاذ عبد الناصر عيسى	١٧
المقدمة	٢٣
توطئة تاريخية عن الحقبة التي كتبت فيها هذه المذكرات	٢٧
انتفاضة الأقصى	٢٧
مهندسو الحياة	٣٧
بداية التفوق	٣٩
تبادل الخبرات في خدمة الجهاد	٤٠
تطور في طرق التصنيع	٤٢
صعوبات ومعوقات	٤٥
مقرات قسامية «شقة شارع ١٠»	٤٩
بداية الطريق	٥٠

الموضوع **الصفحة**

تمويه الأهداف ٥١

مسيرة الشقة الجهادية ٥١

الانفجار المدوّي ٥٤

الشهيد عبد الرحمن حمّاد وعملية «الدلفناريوم» ٥٧

أخطاء قارنت النجاح ٥٩

اغتيال القائد ٦٢

بلال البرغوثي ٦٥

عبد الله البرغوثيّ وانضواؤه تحت لواء الحركة ٦٧

تشكيل «مجموعة سبارو» وعلاقتي ببلال ٦٨

عملية التلة الفرنسية ٦٩

عملية «سبارو» ٧٤

قبساتٌ من حياة القائد الشهيد محمود أبو هنُّود ٧٩

شخصية آسِرَة ٨١

من طرائف أيام الملاحقة ٨٤

محاولة فاشلة لاغتياله ٨٧

العودة إلى العمل العسكريّ ٩٠

اغتيال القائد ٩٣

أخطاء مكّنت العدو من اغتياله ٩٥

عملية حيفا ٩٩

بداية الحكاية ١٠٠

الموضوع **الصفحة**

الإعداد للعملية ١٠٢

خطة التنفيذ ١٠٢

تجنيد الاستشهاديّ ١٠٣

هستيريا ردود الأفعال ١٠٧

ما تميزت به «عملية حيفا» ١٠٧

الشهيد أيمن حلاوة ومواقف مع الشهيد علي علان ١٠٩

الغطاء السياسي والمالي ١١٩

الشهيد القائد نصر جرار وعمله مع الأسيرين عصام ومحمد جرار ١٢٥

المجاهدون المطارَدون صور ومواقف أثناء المطارده ١٣١

التحدي يخلق الإبداع ١٣٤

صورة لأخلاق المجاهد المطارد وخشيته من الله ١٣٤

عائلات مضحية ١٣٥

لقاء محمود أبو هنُّود بوالده ١٣٦

نبوءة تحققت ١٣٨

لقاء مؤثر مع أمي الغالية أثناء المطاردة ١٣٩

أنا وفلسطين وحبيبة العمر ١٣٩

معانٍ رمزية ١٤١

نصر الدين عصيدة وعاصم عصيدة وسامي زيدان ولمحات من أيام المطاردة ١٤٣

حياة سعيدة في البراري ١٤٣

مواقف وأحداث مثيرة ١٤٨

الموضوع **الصفحة**

مهمة عسكرية داخل «مستوطنة يتسهار» ١٥٠
الأسير القائد جمال أبو الهيجا ١٥٢
الصفات الشخصية ١٥٣
الشهيد عاصم صوافطة ١٥٤
أسرة مجاهدة ١٥٤
جهاده ١٥٦
بيت التهنئة ١٥٧
مع الشهيد قيس عدوان ١٥٩
قصة قيس مع شاكر حبيشة ١٦١
دور قيس عدوان في العمل ١٦٢
استشهاده ١٦٢
الشهيد إبراهيم هواش ١٦٤
الشهيد محمد زياد الخليلي ١٦٦
الشهيد سامي زيدان ١٦٩
الشهيد سعيد حسن حسين الحوتري ١٧٢
صفاته ١٧٣
الرجوع إلى الوطن ١٧٤
الشهيد طاهر جرارعة ١٧٩
الشهيد عاصم ريحان ١٨٢
الشهيد عاصم عصيدة ١٨٥

الموضوع **الصفحة**

رثاء والد لابنه الشهيد..... ١٩٢
المجاهد مازن فقها..... ١٩٥
الشهيد محمد عزيز حاج علي..... ١٩٨
كريم مفارجة و«صدقة الأنفس»..... ١٩٩
«صدقة عن الأنفس»..... ٢٠٠
الشهيد القائد محمد الحنبلي..... ٢٠٢
صفات الشهيد..... ٢٠٣
بداية مشواره..... ٢٠٤
استشهاده..... ٢٠٥
الشهيد محمد ريحان..... ٢٠٦
الشهيد القائد مهند الطاهر..... ٢٠٨
صفات الشهيد..... ٢٠٨
دوره الجهادي قبل انتفاضة الأقصى..... ٢٠٩
ومن الأدوار الجهادية التي قام بها..... ٢١٠
استشهاد القائد..... ٢١٢
الشهيد نائل رمضان..... ٢١٣
أسد الجبال الشهيد القائد نصر الدين عصيدة..... ٢١٤
رؤيته للعمل الجهادي..... ٢١٧
الشهيد هاشم النجار و«عملية ميحولا»..... ٢٢١
الشهيد ياسر عصيدة..... ٢٢٣

الموضوع	الصفحة
نسيم أبو الروس وجاسر سمارو	٢٢٦
الشهيد مازن فريتخ	٢٣٢
في صحبة عالم مجاهد... الشيخ الشهيد يوسف السُّرَكْجيّ	٢٣٤
الاعتقال لدى «الأمن الوقائيّ»	٢٣٩
ملابسات الاعتقال	٢٥١
علاقة آثمة	٢٥٢
أساليب الاحتلال في التحقيق	٢٥٤
تقييد للحياة ومعاناة لا تتوقف	٢٥٦
إضاءات لجيل المستقبل	٢٦١
الخاتمة	٢٦٥
تنويه واعتذار	٢٦٨
السيرة الذاتية للكاتب	٢٦٩
تحصيله العلمي	٢٦٩
المشاركة في انتفاضة الأقصى	٢٧١
فهرس المحتويات	٢٧٣

❊ ❊ ❊